

هاينريش بـل

6.8.2017

ولم يقل كلمة

12

ياسين طه حافظ ترجمة

الدار المصرية اللبنانية



AND NEVER SAIDA WORD



نوبل / 1972

ترجمة ياسين طه حافظ

روايات جائزة نوبل

12

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت تليفون: 23910250
فاكس: 23909618 ـ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com
رقم الإيداع : 5825 / 1997
الترقيم الدولى : 2 - 360 - 270 - 977

الطبعة الأولى : رمضان 1418هـ ـ يناير 1998 م
الطبعة الثانية : جمادى الأولى 1429هـ ـ يونيو 2008 م


1

بعد العمل ، مضيت إلى « البنك » لصرف ذلك الشيك . كان أمام المحاسب « طابور » طويل من الناس . انتظرت نصف ساعة حاملاً ذلك الشيك فى يدى ، أخيرًا رأيت المحاسب يمرره إلى فتاة ترتدى بلوزة صفراء . التفتت الفتاة إلى ملف بطاقات الحساب ، وجدَتْ بطاقتى ، أعادت الشيك إلى المحاسب قائلة :

ـ « صحيح » .

عدّتْ يدا المحاسب النظيفتان الأوراق النقدية على وجه الرخامة أمامه . أعدتُ أنا حسابها واتخذُت طريقى للخروج . ذهبت إلى مائدة صغيرة إلى جانب الباب لأضع النقود فى ظرفٍ ، ولأكتب ملاحظة لزوجتى . كان على المائدة أوراق إيداعٍ قرنفلية . أخذت واحدةً وكتبتُ على ظهرها بالقلم الرصاص :

« يجب أن أراكِ غدًا ، سأتصل قبل الثانية » .

وضعت الملاحظة فى ظرف . . ترددتُ . . أخرجتُ النقود مرةً أخرى . . سحبت قطعة فئة عشرة ماركات منه ووضعتُها فى جيب سترتى . أخرجت ورقة الملاحظة ثانية ، وأضفت إليها هذه الكلمات :

« احتفظتُ بعشرة ماركات لنفسى ، سأعيدها لَكِ غدًا . قَبِّلى الأطفال ... فريد » .

لكن الظرف لا يلتصق ، فذهبت إى رَفٍّ خالٍ مكتوب عليه إيداعات . الفتاة وراء الزجاج ، نهضت ورفعت زجاج النافذة . كانت نحيلة ، ببشرة سمراء ، ترتدى سترة قرنفلية اللون ، مشدودة عند العنق بوردة صناعية .

سألتها : « أيمكننى أن أحصل على قطعة شريط لاصق ؟ »

نظرت إلىَّ لحظة وترددتْ ، ثم قَطعتْ شريطاً من لفَّةِ لاصقٍ بُنيّة اللون ، سلمته لى دون كلمة ، وأعادتْ إنزالَ الزجاج مرة ثانية ، فقلت ووجهى لزجاج النافذة :

ـ «شكراً » .

عدت إلى المائدة . . ألصقت الظرف ، وأنزلت قُبَّعتى على جبهتى ، وغادرت « البنك » .

كانت السماء تمطر حين خرجت ، وفى الشارع بضع أوراق يابسة تنجرف على الأسفلت . وقفت فى مدخل « البنك » ، أنتظر . . السيارة رقم (١٢) تستدير على المنعطف ، قفزتُ فيها ومضيتُ إلى ميدان « توكوف» . كانت السيارة مَلْأَى بالناس ، وملابسهم تقطر من الْبَلَل . كان المطر يزداد شدةً حين قفزتُ نازلاً فى ميدان « توكوف » ولم أدفع ثمن التذكرة . اندفعت تحت مظلة محل أكلات خفيفة ، تقدمتُ وطلبتُ سجقة مقلية وكوباً من مرق البقر ، وطلبتُ عشر سجاير ، وصرّفتُ الماركات العَشْر .

تناولت قضْمَةً من السجق . . نظرت فى المرآة التى احتلت كل حائط الكشك . فى البداية ما عرفت نفسى ، وقد رأيت ذلك الوجه المضنى تحت

القُبَّعَة الحائلة اللون ، وانتبهت فجأة إلى أنى أبدو مثل واحد من أولئك الباعة المتجولين الذين كانوا يأتون إلى باب أمى ولا يبرحون . كان اليأس القاتم فى تلك الوجوه يشخص فى الضوء المعتم لواجهة الصالة . كنت أفتح لهم الباب وأنا إذا ذاك ولد صغير . وحين تجىء أمى ـ وقد كنت أدعوها بإلحاح وعينى على حاملة المعاطف ـ تجىء بأسرع ما تستطيع من المطبخ ، وهى تنشف يديها بصدريتها فيشع ضوء غريب على تلك الوجوه والأشكال اليائسة. كانوا يحاولون بيع كسر الصابون ، أو ملمع الأرضيات أو مقصات، أو أربطة أحذية . . تلوح على تلك الوجوه الرمادية اليائسة سعادة لدى رؤية أمى . لكن لهذه السعادة شىء مّا يكدرها . كانت امرأة طيبة ، فهى لا تطرد أحدًا عن بابها ، تعطى الشحاذين خبزًا إن كنا نملك بعضًا منه ، ونقودًا إن كان لنا شىء .

تقدم لهم فى الأقل كوباً من القهوة ، وإذا لم يتبق لنا شىءٌ فى الدار تقدم لهم ماءً باردًا فى قدح نظيف. كان حول جرس الباب زحمة إشارات ونداءات متسولين ، تتاح لكلِ شحاذ فرصة طيبة لبيع شىء ، حتى لا يبقى فى البيت ما يكفى لشراء رباط حذاء. لا يثير الباعة ارتياب والدتى ، ولا تستطيع مقاومة أوجه أولئك المعذبين ، فتروح توقِّع للآخرين على أثمان أشياء تظل ديوناً عليها ، كما توقع لهم وثائق تأمين وكفالات . أتذكر وأنا ولد صغير أرقد فى فراشى فى الليل أنىِّ كنت أسمع والدى يعود إلى البيت ، ولحظة يدخل غرفة الطعام ، يبدأ الشجار ، شجار مخيف لا تقول فيه والدتى كلمة واحدة. كانت امرأة هادئة . أحد الرجال اعتاد أن يأتى إلى مكاننا مرتدياً قُبَّعَةً حائلة اللون ، مثل هذه التى ألبسها الآن ، كان اسمه « ديتش» ، وكان كاهناً لم يجرّدْ من سلطته ، كما اكتشفت ذلك بعدئذ ، وكان يبيع كِسَرَ

الصابون . الأن ، وأنا أتناول السجق ، وهو ساخن جدًّا لدرجة أنه أحرق لَثَتِي الحساسة ، اكتشفت فى المرآة الممتدة على طل الجدار أننى صرتُ أبدو مثل ذلك الديتشى بقبعتى ووجهى المُجْهَد، واليأس فى عينيَّ . لكنّ قريباً من وجهى فى المرآة رأيتُ وُجوه رجال آخرين على المقاعد الأمامية وأفواهاً تنفتح واسعة لتلتهم سجقاً . رأيت لثاتٍ معتمة خلف أسنان صفراء يَعْلَقُ بها فُتاتٌ ورديٌّ من لحم السجق، يتساقط منها فى تلك الفتحات السود . رأيت قبعات جيدة ورثة ، وشعورًا مبللة لآخرين بلا قبعات ، وذلك الوجه الوردى وجه النَّادِلَة التى تقدم على خدمتهم ، والتى تمضى بينهم وتعود . وفى ابتسامة بهيجة تصطاد بشوكة خشبية سجقة من بحيرة الزيت ، وتضع قليلاً من الخردل على صحن ورقىّ . هى أيضاً تُسَلّم سجاير وعصير ليمون، وتتناول نقودًا بتلك الأصابع الوردية . هذا . . والمطر لا يزال يهطل على سقف المحل .

فى وجهى أيضاً أرى ذلك المشهد للشراهة وأنا ألتهم السجق ، وحين أفتح فمى فيكشف عن بلعوم قاتم وراء أسنان مُصْفَرَّة ، أرى ذلك المشهد فيفزعنى بين وجوه الآخرين . رءوسنا كانت مسطرة مثل الدُّمَى . . وجوه تلوح خاوية فى البخار الدافىء المتصاعد من المقلاة .

فى نوبة اشمئزازى تلك ، اندفعتُ خارجاً مرة أخرى ، مسرعاً خلال المطر فى شارع « موزار » . تحت مظلات المخازن وقف الناس منتظرين . وعند الوصول إلى ورشة «فاجنر » كان علىَّ شقُّ طريقى عبر الزحام إلى الباب الذى فتحته بعسر ، واسترحتُ أخيرًا حينما رحت أمشى نازلاً على درجات السلم ، وقد ارتفعت بعدها لتستقبلنى رائحة الجلود . كانت هنالك رائحة أحذية عتيقة ، ورائحة جلود جديدة ، ورائحة شمع الإسكافى وكنت أسمع مكنة خياطة الجلود قديمة الطراز .

اجتزت امرأتين تنتظران على مصطبة ، فتحت الباب الزجاجى ، وسرنى أنى أرى زيارتى تجلب ابتسامة إلى وجه «فاجنر» . لقد عرفته مدة خمس وثلاثين سنة .

اعتدنا العيش فى الطابق الأعلى ،فوق محله الحالى ، فى مكان ما فى العراء، فوق السقف الأسمنتى لورشته. هنالك كنا نعيش . وأذكر أنى حملتُ له يوماً نَعْلَىْ أمى ولم أتجاوز حينها الخامسة . والآن ، مرة أخرى أرى صورة المسيح المصلوب معلقة على الجدار وراء مقعده ، وإلى جانبها صورة القديس كريستيان ، ذلك الإسكافى شيخٌ وديع بلحية رمادية يحملها فى يديه ، يدين ليستا خشنتين كثيرًا بالنسبة ليدى إسكافى .

صافحتُ « فاجنر » ، ولأنه يحمل مسامير فى فمه ، فقد اكتفى بهزّ رأسه باتجاه المقعد الآخر دون كلمات . جلستُ وأخرجت الظرف من جيبى ودفع « فاجنر » تبغَه وورق سجائره عبر المائدة ، لكن سيجارتى لا تزال مشتعلة .

قلت له : « كلا ، شكرًا » وقدمت الظرف إليه .

وأضفت : « لعله ... » .

أزاح المسامير من فمه ، مَرّرَ إصبعه ماسحاً شفتيه ليتأكد من عدم التصاق مسمار عليهما، وقال : « رزمة أخرى لزوجتك ـ حسن ، حسن»!

أخذ الظرف وهزّ رأسه قائلاً : « سأهتم به ، سأرسل ابنى الكبير إلى هناك حينما يعود من الاعتراف ـ ونظر إلى الوقت ـ خلال نصف ساعة » .

قلت : «يجب أن تصلها اليوم نقود فى داخله » .

أجابنى : أعرف .

صافحته وودعته ، وأنا أصعد السلم خطر لى ثانية : كان علىّ أن أطلب منه بعض النقود . ترددت لحظة ، ثم صعدت آخر دَرْجَةَ ورحت أشق طريقى بمرفقى خلال الناس .

مضت على مغادرتى السيارة خمس دقائق ولا تزال السماء تمطر فى شارع «بنكام » أسرعت قدماً بين « الجَمَلُونَات » العالية التى ثُبتت لحماية المبانى الغوطية ، التى بدت مثل تحف أثرية . ومن خلال أُطُر النافذة المسودة ، تمكنت من رؤية السماء المثقلة بالسحب . بناية واحدة من تلك البنايات كانت مشغولة ، مشيت مسرعاً تحت سقف مدخلها ضغطت الجرس ، وانتظرت .

استطعت أن أقرأ فى عينى الفتاة البنيتين اللطيفتين ذلك العطف نفسه الذى كنت أشعر به أنا نحو ذلك النمط من الناس الذين صرت الآن أشبههم . أخذت سترتى وقبعتى . نفضتهما خارجاً قرب الباب .

قالت : « يا إلهى ، حتماً تحملت المطر ! »

هززتُ رأسى ومضيت إلى المرآة ، وأجريت كفى فى شعرى .

سألتها : « هل السيدة « بيزم» موجودة ؟» .

ـ « كلا ليست ... »

ـ أسألُ إنْ هى تذكّرت أَنَّ غدًا هو الأول من الشهر . . ؟ .

ـ كلا .

أجابتنى الفتاة وأدخلتنى غرفة « الصالون » . حركت المنضدة قريباً من الموقد الحجرى ، ونظرت إلى الساعة الجدارية التى مضت عليها مائة

وخمسون سنة تعلن الوقت لعائلة « بيزم » . الغرفة مزدحمة بأثاث قديم والنوافذ ذات زجاج غوطى أصيل مُؤَطَّر بالرصاص .

جاءتنى الفتاة بكوب من القهوة ، ساحبة « الفونس » وراءها من حمالة بنطلونه ـ بيزم الصغير الذى تعهدت بتعليمه قواعد حسبا الكسور الولد أحمر الخدين ، يهوى اللعب بالبلوط فى الحديقة الكبيرة ـ يجمعها بشوق ، يجمعها حتى من البنايات المجاورة التى لا تزال فارعة ، فى الأسابيع القليلة الماضية ، صرت أرى ، حين تكون النافذة مفتوحة ، سلاسل طويلةً من البلوط تتدلى بين الأشجار .

ضممتُ كوبَ القهوة بيدىَّ لأشعر ببعض الدفء، وببطء أعيد قواعد الكسور لذلك الوجه المفعم بالعافية ، وأعلم أن ما أفعله غير ذى جدوى . إنه طفل محبوب، ولكنه غبى مثل والديه وإخوانه وإخواته ، فى الدار شخص واحد ذكى : الفتاة .

السيد « بيزم » يتاجر بالجلود والأحشاء ، رجل محبوب ، حينما التقى به أحياناً ويبادلنى الحديث، أحس إحساساً مضحكاً ، ذلك أنه يحسدنى على عملى . لدىَّ انطباع أنه طول حياته يعانى من حقيقة أنه يُتَوقعُ منه أكثر مما يستطيع أن يقدم : إدارة عمل كبير تتطلَّبُ من الفظاظة قدر ما تتطلب من الذكاء ، و هو يفتقد الاثنين . عندما نلتقى يسألنى عن تفاصيل عملى بعاطفة تجعلنى أظن أنه يفضل أن يقضى كل حياته مغلَقَة عليه غرفة بدَالة مثلى . يريد أن يعرف كيف أدير لوحة الأرقام ، كيف أدخلُ نداءات المسافات البعيدة ، يسألنى عن رطانة حرفتنا . وفكرة أنى أستطيع أن أتنصَّتُ على كل حديث ، هذه الفكرة منحته ابتهاج طفل ،

اندهش قائلاً : « ممتع » وظل يعيد : كم ذلك ممتع ! .

تقَّدمَ عقربا الساعة ببطء . كان الولد يعيد علىَّ القواعد ، أمليتُ عليه تمارين ، وجلست أدخن حتى يتم حلها . كانت الحالة هادئة فى الخارج . هنا فى قلب المدينة صمتٌ مثل صمت القرى الصغيرة فى السُّهوبِ التى ابتعد عنها الرعاة ، فليس فيها بعدهم غير عجائز عليلات : الكسور تقسم على بعضها بضربها مقلوبة . فجأةً ، وَجَّه الطفلُ إلى وجهى عينين ثابتتين وقال :

ـ . كليمنز نال B . a فى اللاتينية .

لا أدرى إن كان لاحَظَ كم أثارنى . فتنويهه سحب وَجْه ابنى وألقاه أمامى ، ذلك الوجه الشاحب لصبى فى الثالثة عشرة . وتذكرت أنه يجلس إلى جانب الفونس .

قلت بجهد : « ذلك لطيف وماذا عنك ؟ »

قال : « d ».

وتركزتْ عيناه المليئتان بالشك فوق وجهى ، كما لو كان يبحث عن شىء ، وشعرت فى الوقت نفسه بأنى ممتلىء باللامبالاة ، فهم جميعاً يحدقون فى وجهى الآن . تجسدت ـ كاملةً قريبةً من وجهى ـ وجُوهُ زوجتى وأطفالى ، وجوه كبيرة عملاقة كما لو كان وجهى يُضِيئُهَا . كان علىَّ أن أغطى عينىَّ وأنا أتلفظ :

« استمر ... كيف نضرب الكسور ببعضها ؟ .

وأعاد القاعدة بصوت خفيض ، ناظرًا إلىَّ ، لكنى لم أسمعه ، فقد لاح أطفالى يجرون فى الحلقة المفرغة التى تبدأ بحمل الحقيبة المدرسية على الظهر

وتنتهى فى مكانٍ مَّا فى مكتب دائرة ـ وكيت ، زوجتى ، تراقب أطفالنا يخرجون فى الصباح حاملين حقائبهم المدرسية على ظهورهم . . أعدت قواعد الحساب العشرى بوجه الطفل ، بعضها ارتد من وجه الطفل عائدًا إلىَّ ، ومرت الساعة ، وإن كانت بطيئة ، وربحتُ ماركين ونصفًا وخمسين فينيكاً .

حددت للصبىِّ واجبه البيتى للدرس القادم ، شربتُ بقية ، القهوة ودخلت إلى الصالة . جففت الفتاة سترتى وقبعتى فى المطبخ ، ومنحتنى ابتسامة وهى تعيننى على ارتداء سترتى .

خطوت خارجاً إلى الشارع ، استعدتُ وجه الفتاة الناشف ، طيب الشمائل ، وفكرت : أيمكن أن أطلب منها نقوَدا ! ترددتُ لحظة، قَلَبْتُ ياقة سترتى، إذ كانت السماء لا تزال تمطر ، وأسرعت إلى موقف السيارات بجوار كنيسة « أحزان مريم السبعة » .

بعد عشر دقائق ، كنت أجلس فى القسم الجنوبى من المدينة ، وفى مطبخ تفوح منه رائحة الخل ، وفتاة شاحبة الوجه ذات عينين واسعتين بنيتين كانت تستظهر قائمة من الكلمات اللاتينية . ولحظةً فتحتُ البابَ إلى الغرفة المجاورة أطلَّ وجه الفتاة بعينين واسعتين بنيتين : أَتْعِبِى نفسَكِ يا صبية ، فأنتِ تعلمين كم هو عسير إرسالك إلى مدرسة ، والدروس تكلف كثيرًا » .

الطفلة أجهدت نفسها ، وأنا أجهدتُ نفسى، وقد مضت الساعة كلها علينا ونحن نهمس لبعضنا بقوائم من الكلمات اللاتينية ، بجمل وقواعد نحوية ، وأنا على يقينٍ بأن كل ذلك بلا جدوى . . فى الثالثة وعشر دقائق

خرجت إلينا المرأة النحيلة من الغرفة المجاورة تضوع برائحة الخل، ضَفَرَتْ شعر الطفلة ثم نظرتْ إلىَّ ، وسألت :

ـ «هل تعتقد بأنها ستنجح فيها؟ فى الاختبار الأخير حصلت على (a.c) وغدًا اختبارهم الثانى » .

زررتُ سترتى ، وأخرجت قبعتى الرطبة من جيبى ، وقلت لها بهدوء : «سوف تنجح فيها » . ووضعت يدى على ضفيرة الطفلة الذهبية ، وقالت المرأة :

ـ « ستنجح فيها ، إنها كل ما أملك . . زوجى قُتِلَ فى فينستا :

تذكرتُ فى تلك اللحظة صورةً محطة القطار القذرة فى « فينستا » وهى مَلْأَى بالجرارات الصدئة .. نظرت إلى المرأة واستجمعتْ هى فجأة شجاعتها وقالت ما أرادت أن تقوله كله :

ـ « هل يضيرك أن تنتظر النقود حتى ... » .

ووافقتُ حتى قبل أن تُكمل جملتها . منحتنى الطفلة ابتسامة .

حين خرجت ، كان المطر قد توقف ، والشمس الآن مشرقة ، وبضعة أوراق صفراء كبيرة تجرفها الريح من الأشجار إلى الأسفلت الرطب .

أردت حقيقةً أن أذهب إلى البيت ، إلى « المجمع السكنى » حيث أعيش شهرى الأخير ، لكنى بقيت أستعجل إنجاز الأمور ، أُؤدِّى مهامَّ وأنا أعلمُ أنها لن تفضى إلى شىء : كان ممكناً أن أطلب من « فاجنر » نقودًا ، وتيسر لى أن أطلب من عاملة آل بيزم أو المرأة التى تضوع برائحة الخل ، وكنت واثقاً أنهما سيعطيانى شيئاً ، لكنى بدلاً من التوجه إليها ذهبتُ إلى موقف

الترام ، ركبتُ الترامَ رقم (١٦) وتركت نفسى تهتز بين ركابٍ مُبللين حتى «نيكنهايم» وأنا أحس بأن السجق الساخن الذى تناولته بعد الظهر قد بدأ يُصيبنى بالغَثَيان .

فى « نيكنهايم » سرتُ بين شجيرات المتنزه المهملة حتى وصلت إلى «فيلاّ» « بولكر » ضغطت الجرسَ وأدخلتنى خادمته إلى الصالة ، حين دخلتُ غرفته قطع « بولكر » شريطاً من جريدة ليجعل منها مؤشرًا فى كتابه ، أطبق كتابه بقوة والتفت إلىّ بابتسامة باهتة ، هو أيضاً قد شاخ ، لقد عاش سنوات مع هذه المرأة « دورا » ، وصار ما بينهما أثقل عبئاً من أى زواج يراقبُ كُلٌّ منهما الآخر بشدةٍ ، جَفَّتْ تعابيرهما ، إنهما يتناديان بـ « حبيبى » و« بوسى» ويتشاجران على النقود وهما متعانقان .

فى عودتها إلى الغرفة ، قَطَعَتْ « دورا» أيضاً شريطاً من الجريدة ، ووضعته مؤشراً فى كتابها ، وصَبَّتْ لى كوباً من الشاى . . على المائدة بينهما بعضُ الحلوَى وعلبة سجائر ودورق شاى .

قال بولكر : «حَسَنٌ أن أراكَ مرة أخرى ، هل من سيجارة ؟ »

أجبته : « أجل ، من فضلك » .

دَخَّنَّا بصمت . . « دورا » جالسة جافية الوجه عنى ، ولكنها التفت لأنظر إليها اكتسَى وجهها مظهرًا حجريًّا يذوب فى ابتسام حلما تلتقى عيناى بعينيها . لم يقل أحدهما كلمة ، ولم أقل . . نفَضتُ سيجارتى فجأة ، وقلت وسط ذلك الصمت :

« هل أستطيع اقتراض بعض النقود ، لعل ... »

لكن « بوكلر» قاطعنى بضحكة قائلاً : « إذن تستطيع اقتراض الشىء نفسه الذى نحن دائماً فى حاجة إليه ، يسرنى أن أساعدك ، ولكن النقود كما تعرف ... »

نظرتْ إلىَّ «دورا » وذاب فى الحال مظهرها الحجرى فى ابتسامة لها غضون عميقة حول فمها ، وتبدو أنها تمتص دخان سيجارتها بعمق أكثر من المعتاد .

قلت : « آسِف ، ولكنك تعلم أنها . . »

أجاب : « أعلم ، لا حاجة للاعتذار ، كل واحد يمكن أن يجد نفسه فى حرج »

« لن أضيع وقتك » . أجبتُه ونهضت .

قال لى : « أنت لا تضيع وقتنا أبدًا » .

وأستطيع أن أقول ، من الحميمية الفياضة فى صوته ، أنه كان يعنى ما يقول « دورا » نهضت أيضاً ، أعادتنى مِنْ كتفىَّ ، واستطعت أن أقرأ فى عينيها الخوف من أن أغادر المكان .

أدهشنى أنهما كانا فَرِحَيْنِ برؤيتى حقًّا . قدمت لى دورا » علبة السجائر، وصبَّت لى كوباً ثانياً من الشاى . وجلستُ ملقياً قبعتى على مقعد . لكنا بقينا صامِتَيْنِ ، نتبادل بين آونة وأخرى بضع كلمات . ومتى ما نظرت إلى وجه « دورا » الحجرى ذاب فى ابتسامة منها ، على أن أؤكد أنها ابتسامة مخلصة . لأننى حينما نهضت أخيرًا وأخذت قبعتى من فوق المقعد ، أدركت أنهما كانا خائفين من أن يعودا وحيدين .

إنهما كانا خائفين من الكتب والسجائر والشاى . هما كانا مرعوبين من المساء ، من الضجر الانهائى الذى جلباه على نفسيهما، والذى هو حصيلة زواجهما الممل .

بعد نصف ساعة كنتُ واقفاً فى قسم آخر من المدينة ، عند باب زميل مدرسة قديم ويدى تضغط الجرسَ . لم أره منذ أكثر من سنة ، والآن ، وأنا أزيح الستار قليلاً وراء النافذة الصغيرة فى الباب الأمامى رأيتُ ذلك اليأس على وجهه الممتلىء ، كثير اللحم . فتح الباب ، وقد تهيأ له وقت أثناء ذلك ليرتدى وجهاً آخر ، وإذا نحن نسير معاً فى الممر ، وَصَلَ إلَىَّ البخار المتصاعد من غُرفة الحَمَّام ، وصوت يقول :

ـ « من ؟ »

جلستُ معه نصف ساعة فى الغرفة ذات أثاث ضارب إلى الخضرة يضوع برائحة « النفتالين » . تحدثنا عن هذا وذاك ، دخّنا ، وحين بدأ يستذكر أشياء عن المدرسة ، توهج وجهه قليلاً ، فى حين أدركنى الضجر ، ومع دخان سيجارتى ، نفخت طلباً فى وجهه :

ـ « هى يمكنك إقراضى بعض النقود ؟ »

لم يدهشه ذلك ، لكنه بدأ يتحدث عن الدفع للإذاعة ، وخزانات المطبخ ، والأريكة ، وعن سترة شتوية لزوجته ، ثم مُغَيِّرًا الموضوع ليبدأ الكلام عن المدرس مرة أخرى . أصغيت إليه وانتابنى شعور غريب، كأنه يتحدث عن شىء جدث قبل ألف سنة . صِرْنَا فى حديث غامض مع البواب ، نَرمى إسفنجات على السبورة ، رأيتنا ندخن فى المرافق ، كما لو أن

ذلك فى عصور ما قبل التاريخ . كان ذلك غريباً جدًّا وبعيدًا ، بحيث أرعبنى .

فنهضت قائلاً : « آسف ... » واستدرتُ لأغادرهم .

تجهّمت تعابير وجهه مرة أخرى ونحن نمشى عائدين فى الممر ، ومرة أخرى انطلق زعيق زوجته من داخل الحمام تطلب شيئاً لم أميّزه ، وردّ هو على الصياح بشىء مثل :

« اقطعيها . . هل تستطيعين ؟ »

وأغلقتُ الباب ورائى . وحين نظرتُ إلى الوراء من بين السلالم المتسخة تمكنت من رؤيته يزيح الستار من النافذة الصغيرة، ويراقبنى وأنا أغادر المكان .

سرتُ ببطء فى البلدة . وبدأت السماء تمطر مرة أخرى بلطف . . هنالك فاحت رائحة التفسخ والرطوبة ، وقد أوقدت المصابيح الزيتية توًّا . فى نُزُلٍ فى الطريق . تناولتُ « شنابن» ، ولاحظتُ رجلاً واقفاً عند صندوق الموسيقى ، ظل يلقى بقطع نقدية ليصغى إلى نغم يودّ سماعه . نفثتُ دخان سيجارتى عبر المنضدة ، حدقتُ بالوجه الجليل لربة النُّزُلِ ، التى نظرت إلَىَّ كواحد ملعون ، دفعتُ ثمن شرابى وخرجتُ إلى الطريق .

من أكوام ركام البنايات المقصوفة بالقنابل يتحدَّرُ ماء المطر إلى جانب الممشى فى جداول طينية مُرَقَّشةٍ باللَّوْنَيْنِ : الأصفر والبنى . وبينما أسير تحت السقالات، كانت تتساقط على سترتى منها قطرات طباشيرية .

جلستُ فى كنيسة « الدُّمِنيكان » وحاولت أن أصلى ، كانت الكنيسة مظلمةً، ونقاط صغيرة من رجال ونساء وأطفال يقفون فى منطقة الاعتراف .

وفى مقدمة المذبح شمعتان تتقدان . كان المصباح الأحمر الثابت يتوهج مثلما كانت المصابيح الصغيرة فى منطقة الاعتراف . شعرتُ بالبرد ، فقد بقيت حوالى ساعة فى الكنيسة ، سمعتُ الهمهمات الخفيضة للمعترفين ، راقبُت الناس يتحركون إلى الأمام حينما يقتحمهم أحد ليدخل إلى صحن الكنيسة ، مغطياً وجهه بيديه. مرةً رأيت الملفّات الحمر المتوهجة للمسخّن الكهربائى ، كان ذلك حين فتح أحد القساوسة باب غرفة الاعتراف ، ونظر إلى ماحوله ، ليرى كمًّا من الناس لا يزالون ينتظرون .

بدا عليه أنه أُحبِطَ من رؤية ذلك العدد الكبير ، أكثر من دستة من الناس ينتظرون .عاد ودخل إلى مكان الاعتراف . يمكننى سماع المسخّن الكهربائى يُطفأ ، وتتصاعد ثانية همهمات المعترفين . بدت لى مرة أخرى وجوه كل أولئك الذين ذهبت لأراهم بعد ظهر ذلك اليوم ، ابتداءً بالفتاة التى أعطتنى قطعة الشريط اللَّصق فى المصرف ، إلى المرأة ذات الوجه الأحمر القاتم فى كشك الأكلات الخفيفة ، ووجهى وفمى المفغور ، وفُتات السجق يتساقط فى حفرته والقبعة « حائلة اللون تعلو وجهى . . رأيت وجه «فاجنر» ، والوجه اللطيف الناشف لخادمة بيزم . والصغير « الفونس بيزم» الذى همست له بقواعد الحساب ، والفتاة فى المطبخ التى تفوح منها رائحة الخل ، ورأيت محطة القطار فى فينستا ، قذرة ملأى بالجرارات الصدئة ، تلك المحطة التى قُتِلَ فيها أبوها ، رأيت أمها بفمها الدقيق وعينيها السوداوين الواسعتين . رأيت « بوكلر » زميل الدراسة ، والوجه الآخر للرجل الذى كان واقفاً عند صندوق الموسيقى فى النزل .

سَرَى إلىَّ البرد ، وقفتُ ، وأخذت بعضاً من الماء المقدّس من وعاء فى الممر ، رسمت الصليب، ومضيت خارجاً إلى شارع « بونن » ، وحين

دخلت « حانة بتزنر» وجلست أمام مائدة صغيرة قرب لعبة الكرة أدركتُ أنى طيلة بعد ظهر ذلك النهار ، ومن اللحظة التى أخرجت فيها العشر الماركات من الظرف ، ما فكرت بشىء غير « حانة بتزنر » الصغيرة .

ألقيت بقبعتى على المشجب وناديت :

ـ «شنابز كبير ، من فضلك » .

وزررتُ سترتى ، ورحتُ أخرج بضع قطع من جيبى . ألقيتُ قطعة فى شقّ لعبة الكرة ، وضغطت الزر محرّكاً الكرات الفضية الصغيرة فى مجراها ، ومستخدماً يدى اليمنى فى رفع الشنابز الذى جلبه لى بتزنر ، قاذفاً الكرة إلى اللوح المنحدر ، وأصغيت إلى النغمة التى تطلقها الكرة وهى تلامس المصدّات . وحين بحثتُ بجدِّيَّة فى جيبى وجدتُ قطعةً ذات خمسة ماركات كدت أنساها : لقد أعطانى إياها الصديق الذى أستضافنى فى غرفة البدالة .

انحنيت على اللعبة أراقب دحرجة الكرات الفضية وأصغى إلى نغماتها . وسمعت « بتزنر » يقول لرجل آخر فى البار قريباً جدًّا منه :

ـ «سيظل هناك حتى يتخلص من آخر بنس لديه » .

عددتُ النقود التى أرسلها لى « فريد » مرة ثانيةوثالثة : أوراق مصرفية قاتمة الخضرة ، خفيفة الخضرة وزرقاء ، مطبوعة عليها رؤوس فلاحات متوّجات بسنابل القمح ، ونساء مُفْعَمَات بالصحة يرمزن إلى التجارة أو الزراعة ، ووراء جُبَّة بطل مّا يختفى رجلٌ يمسك عجلة ، لعله يمثّل الحِرفَ، إلى جانبه عذراء رثّة تضم أنموذج المصرف إلى صدرها ، وعند قدميها لفّة ورق وآلات معمارية . فى وسط الورقة المصرفية الخضراء امرأة غير

جذَّابة ، تمسك وسط ميزان بيمناها ، اجتازتنى النظرة الآتية من عينيها الجامدتين . أفكار قبيحة تؤطر هذه الأوراق المصرفية الثمينة ، الزوايا مطبوعة عليها أرقام تمثل قيمتها . أوراق بلوط وسنابل قمح ، أوراق عنب ومطارق متقاطعة منقوشة على قطع النقود المعدنية . كل قطعة تحمل على ظهرها النسر، رمز الإنذار ، بجناحيه الممتدين ، يكاد يطير ويهجم منقضًّا .

كان الأطفال يراقبوننى وأنا أفرز الأوراق المصرفية بين يدى ، أصفّفها . وأجمع القطع المعدنية : الدخل الشهرى لزوجى الذى هو موظف بدالة فى إدارة أبرشية : ثلاثمائة وعشرون ماركاً وثلاثة وثمانون فنيكاً . عزلت ورقة مصرفية للإيجار ، واحدة للكهرباء والغاز ، وواحدة للتأمين الصحى ، حسبت النقود التى أنا مدينة بها للخباز ، وحسبت ماتبقّى : مائتان وأربعون ماركاً . فريد قدّم ورقة مصرفية قائلاً : إنه احتفظ بعشرة ماركات سوف يعيدها غدًا . سيشرب بها .

الأطفال يراقبوننى . وجوههم وديعة هادئة . لكنى أحمل مفاجأة لهم : سوف يسمح لهم اليوم باللعب فى الممر . فالسيدان فرانك غادر المكان بمناسبة عطلة نهاية الأسبوع ، ولحضور اجتماع عصبة النساء الكاثوليكيات وعائلة « سيلبستانين » التى تعيش تحت سوف تغادر المكان لمدة أسبوعين بمناسبة العطلة ،أما بالنسبة لآل « هوبفز» الذين استأجروا الغرفة المجاورة لنا ، والتى لا يفصلها عن غرفتنا سوى لوح « البلاستر » فلا حاجة للاستئذان منهم . لهذا سيسمح للأولاد باللعب فى الممر ، وذلك امتياز لا يستهان به .

ـ « هل النقود من والدنا ؟ » .

أجبتهم : « نعم»

ـ « أهو لا يزال مريضاً ؟» .

ـ « نعم ، يمكنكم اللعب فى الممر اليوم ، ولكن لا تكسروا شيئاً ، وانتبهوا لورق الجدران » .

وغمرنى ابتهاج ، إذ رأيت وجوههم تتألق ولارتياحى منهم وأنا أبدأ أعمال السبت .

لا تزال رائحة الأطعمة المختزنة عالقة بالممر ، وقد ملأت السيدة فرانك حتى الآن ثلاثمائة من جرارها ، رائحة الخل الساخن ، التى تكفى وحدها لإثارة صفراء فريد ، ورائحة الفاكهة والخضار المطبوخة ، الأبواب مقفلة ، وقبعة السيد فرانك القديمة هى كل ما تبقى على حمَّالة المعاطف ، يلبسها حينما ينزل إلى السرداب . الورق الجديد وصل إلى حدّ بابنا ، والصبغ الجديد إلى منتصف نافذة الباب ، راسماً المدخل إلى شقتنا : هى غرفة واحدة أقمنا فيها حاجزًا خشبيًّا وفَّرْنا به مهجعاً ينام فيه طفلنا ، ونخزن فيه بعض سلعنا . آل فرانك ـ من ناحية أخرى ـ لهم أربع غرف : مطبخ ، غرفة صالون ، غرفة نوم ، وغرفة مكتب تستقبل فيه السيدة فرانك روّادها . لا أعرف عدد أفراد الجمعية ، ولا عدد مجلس الإدارة ، فلم أَنْتَمِ لنواديها ، كل الذى أعرفه أن سلطات الكنيسة قد أقرّت بحاجتها لهذه الغرفة ، الغرفة التى ربما لا تسعدنا ، ولكنها تضم إمكانية استمرار حياتنا الزوجية فيها .

لا تزال السيدة « فرانك » امرأة جميلة وهى فى الستين ، الألق الغريب فى عينيها تسحر به أى إنسان ، ويملأنى أنا بالخوف هاتان العينان السوداوان الصلبتان ، شعرها المصفف بعناية والمصبوغ ببراعة ، صوتها

العميق الذى يترنم قليلاً ، الذى يصبح عالياً فقط عندما تحدثنى ، طراز ثيابها وحقيقة أنهاتستقبل أعضاء الجمعية المقدسة كل صباح ، وتقبِّل خاتم المطران كل شهر ، وهو يستقبل نسوة الأبرشية البارزات ـ كل هذه الأشياء تجلعها شخصًا لا أمل لى من محاربته . نحن نعلم ذلك من تجربتنا ، فقد حاولنا أ ن نواجهها سنواتٍ ، وقد استسلمنا الآن .

الأطفال يلعبون فى الممر : اعتادوا الهدوء فهم الآن ، وإن سُمِحَ لهم ، لا يُحْدثون صخباً. يندر أن أسمعهم : لقد ربطوا صناديق من الورق المقوّى فارغة ليصنعوا منها قطارًا طوله طول الممر ، وهو الآن يتحرك بحرص إلى الوراء وإلى الأمام . لقد شادوا محطات مملوءة علباً فارغة وعصيًّا ، وأنا متأكدة من أنهم سيظلون منشغلين بهذا القطار حتى وقت الغداء . الرضيع لا يزال نائماً .

أحصيت النقود مرة أخرى . هذه الأوراق المصرفية الثمينة الحقيرة ، ترعبنى رائحتها الثقيلة ذات العفن الخاص : فى مخيلتى ، أضفت لمجموعها عشرة ماركات اقترضها فريد . سوف يصرفها على الشرب ، فقد غادرنا قبل شهرين ، وهو يقضى لياليه مع أصدقاء فى هذا المأوى أو ذاك ، لم يعد يحتمل الأحوال الصعبة فى شقتنا ، وحضور السيدة فرانك وآل هوبفز المرعبين جوارنا . فى هذا الوقت قدمنا طلباً للَجْنَةَ الإسكان التى كانت تنشىء عمارة متطورة فى طرف المدينة ، رفضوا طلبنا ، لأن فريد يسكر ، ولأن الاستشهاد الذى زودنى به القس لم يكن مشجعاً . إنه مستاء من عدم مشاركتى فى الأبرشية . على كل حال ، رئيسة لجنة الإسكان هى السيدة فرانك ، التى نتيجة لهذا القرار ، رسخت سمعتها امرأةً صلبةً ضد أى مؤثر،

فهى إذا ما ضمنت لنا كسب الشقة الجديدة فستخلو غرفتنا ، التى تفضل أن تجعلها غرفة طعام لها ، وهكذا هى ردتنا إلى ما يضيرها .

أما أنا فقد استولى علىَّ رعب يتعذر وصفه ، فأن أكون هدفاً لمثل تلك الكراهة ، ذلك أمرٌ يملأنى رعباً . وانكمشت من المشاركة فى جسد المسيح ، فكان نتيجة ذلك أن صارت السيدة فرانك تزداد تهديدًا لنا يوماً بعد يوم . ألق عينيها صار أقسى وأقسى ، وأنا صرت أخاف سماع القداس المقدس ، وإن كانت وداعة القداسات واحدة من أواخر مباهجى ، فحيث أصلى أتحسس السلام اللانهائى الذى يبعثه حضور الإله فى المكان ، لكن السيدة فرانك هناك تظهر أنواعاً من المشاعر تخيفنى أكثر مما تخيفنى كراهيتها ، ففى عيد الميلاد جاءت تدعونى للاشتراك فى احتفال صغير فى غرفة الضيوف ، ورأيتنا نسير فى الممر كما فى أعماق مرآة : أولاً كليمنز وكارلا ، ثم فريد ، وأنا أتبعهم حاملة الرضيع .

كنا نسير فى أعماق مرآة ، ورأيتُنا ظهَرْنَا هنالك فقراء .

فى غرفة الضيوف التى ظلت على حالها ثلاثين سنة . شعرت كأنى غريبة ، كأنى فى عالم آخر ، سَمَكَةٌ خارج الماء : فليس لنا ما نفعله بين أثاث كهذا ، بين عدة لوحاتٍ ، شعرنا بأن علينا ألاّ نجلس لموائد مغطاة بالدمقس ، وزينات شجرة الميلاد التى ادخرتها السيدة فرانك من زمن قبل الحرب ، أجفلت قلبى رعباً تلك الزينات الملتمعات ـ الزرق والذهبية ـ ذلك الشعر الملائكى ، والأوجه الزجاجية للملائكة الدُّمَى ، ويسوع الطفل مصنوع من الصابون وموضوع فى مهد من خشب الورد ، مريم ويوسف مصنوعان من طين ، مصبوغ وملون ، يشعان بعذوبة تحت لفافة جبس فرنسية تعلن : « السلام للبشرية » ـ هذا الأثاث الذى يضيع من أجله كل

أسبوع ولمدة ثمانى ساعات عرق امرأة عضو فى اتحاد الأمهات ، يَدْفَع لها خمسين فينيكاً للساعة . . كل هذه النظافة العقيم تفزعنى . السيد فرانك يجلس فى زاوية يدخّن غليونه . هيكله العظمى صار يمتلىء ، وأنا أسمع خطوه الوطىء وهو يصعد السلم ، مشيته الثقيلة ونفسه المُجْهَدة ، يجتاز غرفتى ويدخل أعماق الممر .

الأطفال خائفون من ذلك الأثاث الذى لم يعتادوا رؤيته ، فهم خجلون جدًّا منه ، وصامتون صمتاً أبكانى . صحون من حلوى أُعِدَّت لكل منهم، وكانت هناك هدايا : جوارب ووصفٌ خنازير من طين ، هى منذ ثلاثين سنة من معالم عيد الميلاد عند عائلة فرانك .

كان فريد مُقَطِّبَ الجبين ، يبدو أنه آسِفٌ على قبول الدعوة كان واقفاً متكئاً على قضبان النافذة . . سحب سيجارةً من جيبه بلطف ثم أولعها .

السيدة فرانك ملأت « ملأت الأقداح بالنبيذ ودفعت للأطفال «كاسات» من الخزف ملأى بعصير الليمون . الكاسات الخزفية مرسومة عليها مشاهد حكاية خرافية عن الذئب والمَعِيز السبع الصغيرات .

شربنا . أفرغ فريد كأسه برشفة واحدة ، رفعه متأمّلاً بيدٍ واحدة وقد اتضح عليه ازدراؤه لمذاق النبيذ . فى لحظات كتلك ، أقدره ، لأن وجهه يعبر عن مشاعره، فلا يحتاج إلى كلمات . شريحتان من لحم الخنزير وقدح من النبيذ وخمس دقائق من كلام العواطف ، ذلك لا يخفى حقيقة أن شقتنا صغيرة جدًّا. هذه الزيارة الفاضحة انتهت بوداعٍ فاتر . أكاد أقرأ فى عينى السيدة فرانك كل ما ستقوله لأصدقائها عنها : فوق ما ابتلوا به من شقاء ولعنات عيش لا تحصى فقد أضافوا لأنفسهم الجمود والفظاظة . وتروح تضيف لنفسها طبقتين أخريين فوق إكليل استشهادها متعدد الطبقات .

أما السيد فرانك ، فنادرًا ما يقول شيئاً ، لكنه حين يعلم أن زوجته خارج البيت ، يحوم حول بابنا ويضع علبة « شكولاته » على المنضدة ، وأحياناً أسمعه يكلم الأطفال فى الممر . هو يُوقفهم ويهمهم ببضع كلمات . ويخبرنى الأطفال بأنه يربّتُ رُءُوسَهُم ويقول لهم « كلمات حلوة » .

السيدة فرانك ليست كذلك ، فهى كثيرة الحركة ، ومِهْذَارة ، وخلو من الرقة . انحدرت من عائلة تاجرة قديمة فى المدينة ، وظلت تغيّر مواد تجارتها من جيل إلى جيل ، وتتقدم إلى السلع الأغلى : فمن الزيت ، إلى الملح ، إلى الدقيق ، إلى السمك، والقماش ، ومنهما تقدموا نحو النبيذ ، ثم مضوا إلى السياسة ، وقد غطسوا من هناك إلى الحكومة الفعلية ، وأنا أظن أحياناً أنهم الآن يتاجرون بأغلى السلع قيمةً : الدين .

فى المناسبات النوادر ، تبدى السيدة فرانك بعض اللطف : أولها ، حين تتحدث عن النقود ، فهى تلفظ الكلمة برقة تفزعنى ، تقولها بالطريقة التى يلفظ بها الناس كلمات : حياة ، حب ، إله، بتهذيب وبنبرةٍ خشيةٍ فى أصواتهم . الألق فى عينيها يُعتم قليلاً وقسمات وجهها تصير أفتى حين تتحدث عن الذهب وعن جرار مقتنياتها ، وكلاهما كنز ،فلا تسمح بانتهاكهما . يستولى علىَّ الخوف أحياناً حينما أكون فى السرداب لآتى منه بفحم أو بطاطا، فيحدث أحيانًا أن أسمعها تفرغ الجرار بغية حساب مدّخراتها فيها : تهمهم فى الأرقام بنغمة خفيضة مثل نغمة طقسٍ دينى . ويذكّرنى صوتها بصوت راهبة تصلى ـ وغالباً ما أترك مكْيَلَتى هاربة إلى أعلى لأحتضن أطفالى ، أحس أن علىَّ حمايتهم من شىء ما . ويحدِّق الأطفال فىَّ « عينا ولدى الذى بدأ يترعرع ، وعينا ابنتى اللطيفتان السوداوان . إنهما يحدقان فىَّ ، يفهمان ولايفهمان ـ ويترددان وهما يشاركاننى الأدعية التى أشرع

بتدريدها . رتابة الابتهال التى لا تُمَلّ ، وعبارات الصلاة الربانية تتهاوى واهنةً من شفاهنا ...

لكنها الساعة الثالثة الآن ، وقد ارتحلت عنا مخاوف الأحد ، فقد تفجر الضجيج من الساحة الخلفية ، ويمكنني سماع أصوات تعلن عن عصر سبت بهيج ، وبدأ قلبى بالتجمد داخل جسدى ، مرة أخرى حسبتُ النقود، نظرت إلى الصور الميتة على الأوراق النقدية ، وأخيرًا قررت الشروع بصرفها .

الأطفال يضحكون خارجاً فى الممر ، استيقظ الرضيع ، وعلىّ أن أمضى إلى أشغالى ، وحين رفعتُ بصرى من المنضدة التى كنت محنية عليها ، حيث كانت تطوّف أفكارى ، وقع نظرى على جدران غرفتنا التى علقت عليها صور مطبوعة رخيصة : وجوه رينوار الحلوة ـ بدت إلى غريبة لا أستطيع أن أفهم كيف كنت أحبها قبل نصف ساعة . أنزلت الصور ، مزقتها أنصافاً بيدين متوترتين ، ورميت المزق فى السلة التى سارعت بإنزالها . مر بصرى على جدراننا ، لم تلمس عيناى رحمة إلاّ فى الصليب فوق الباب ، وفى رسم لرسام لا أعرفه ، حركة خطوطه وألوانه المتناثرة لم تعن لى شيئاً لكن ما أكتشفته فجأة هو أن أستطيع أن ألتمس شيئاً فى تلك الرسوم دون أن أفهمها .

حين غادرت المحطة ، ابتدأ الفجر ينبلج ، والشوارع لا تزال خالية . هرعوا حذرين يجتازون مجموعة من البنايات التى أصلحت واجهاتها بلطخات غير منتظمة من الجص . كانت باردة ، وعدد من سائقى التاكسى واقفون يرتجفون فى ساحة المحطة ، أيديهم مدفونة عميقاً فى جيوب معاطفهم . وللحظة استدار إلىّ أولئك السائقون الأربعة أو الخمسة

بوجوههم الشاحبة تحت قبعاتهم مستدقة الرءوس ، تحركوا مثل رجل واحد، ممثل دُمًى على خيط ، فى لحظة واحدة ، ثم تراجعت الوجوه إلى موضعها الأولى ، استداروا إلى باب المغادرة فى المحطة .

ليس من أحد ، فى الشوارع فى تلك الساعة ، وحين استدرتُ بثقلٍ حوالَىّ ، رأيتُ عقربَ ساعة المحطة الكبيرة يزحف إلى التاسعة : إنها السادسة إلا ربعاً . انعطفتُ فى الشارع متجهاً إلى اليمين متجاوزًا إحدى البنايات ، أنظر بتمعن فى واجهات المخازن : فى مكانٍ مًّا ، مَقْهًى أو نُزُل لزامٌ عليه أن يظل مفتوحاً ، أو أنه أحد تلك الأكشاك التى ـ برغم كراهتى لها ـ أفضلها على غرف الانتظار فقهوتها فى مثل هذه الساعة فاترة ، وحساء لحمها البقرى المسخّن كثيرًا ما تفوح له رائحة المبانى المكتظة . . رفعتُ «ياقة» سترتى ، طويتُ زواياها على بعضها ، أزحت بالفرشاة الأوساخ العالقة فى بنطلونى ومعطفى .

شربت فى الليلة الماضية أكثر مما اعتدت ، وقرابة الواحدة صباحاً ذهبت إلى المحطة لأرى «ماكس » . الذى « يمنحنى » أحياناً مكاناً أنام فيه . ماكس يعمل فى وزن الحقائب ، هنالك مدفأة ماء ساخن كبيرة مثّبتة وسط إطار خشبى ، وفى الغرفة أيضاً مصطبة ثابتة . لهذا يقصده العمال من المستوى الأدنى للاستراحة عنده : الحمالون ، العاملون فى غرف الرزم ، وعاملو المصعد . الإطار الخشبى يترك لى ملجأً لكى أزحف وراءه وأنزل إلى الأرضية حيث يتوفر مكان أوسع ، مكان مظلم ودافىء أشعر بأمان حين أنام فيه ، فقلبى هنالك مطمئن ، والخمر تجرى ساخنة فى عروقى ، وضجيج القطارات يدخل ويغادر المحطة ، بطاقات الحقائب تلطم رأسى مع حفيف أصوات المصاعد ، أصواتها فى الظلام تجعله أكثر ظلمة ـ تخدرنى بسرعة

فأنام ، أيضاً ، أنا أبكى هناك أحياناً حينما أفكر فى كيت والأطفال . أبكى وأعلم أن دموع السكران لا حساب لها ولا وزن ـ وأن هنالك شيئاً أدعوه وخزات ضمير ، لكنها وخزات فحسب . اعتدت الشرب حتى قبل الحرب ، لكن الناس ـ على ما يبدو ـ قد نسوا ذلك ، فسلوكى المنحط هذا يُنظر له باعتبار خاص ، فيمكنهم أن يقولون عنى بأنى قاتل فى الحرب .

نظفت نفسى قدر استطاعتى ، وأنا أنظر فى المرآة المعلقة قرب نافذة المقهى الصغيرة ، وقد عكست المرآة هَيْئَتِي الرثة وأنا فى ذلك الفراغ مرةً ، وأخرى مثل ظل خيالى أجوف ، وحولى الكيك ذو الكريم والشكولاتة التى تلتمع على طول الخط إلى جانبى . هكذا رأيت نفسى هناك ، شكلاً ضئيلاً ضائعاً يتدحرج بين المعجّنات ، يحاول مضطرباً أن يصّفف شعره ويعدل «بنطلونه» .

مررت ببائع سجائر ، ومحلات بيع زهور ، ومخازن ملابس « المانيكانات » فيها يحدقن فى وجهى بتفاؤل زائف . تفرّع الشارع إلى اليمين ، فصار طريقى كله أكواخاً خشبية . كانت فى المنعطف لافتة ضخمة تقول :

مرحباً بالدوائيين ! .

أكواخ شيِّدت من كِسَر ، تبرز من بين واجهات مدمّرة ، محروقة ـ لكن تلك الأكواخ كانت مخازن سجائر ، ومخازن ألبسة ، ومحلات بيع صحف . وحين وصلت أخيراً إلى محل الأكلات الخفيفة ، كان ذلك المحل مغلقاً .

حركت قبضة الباب ، استدرت فرأيت فى الأخير ضوءاً ، عبرت الشارع تإليه ، فبدا أن ذلك الضوء يأتى من كنيسة ، وكانت نافذتها الغوطية العالية سيئة الترميم .

حين توغلت إلى وسط مبنى من حجر ، لاحت لى نافذة صغيرة صفراء ، واضح أنها الغرفة حمام، زجاجاتها الصغيرة الأربع أُضيئت بضوءٍ أصفر شاحب توقفت هناك وتفكرت لحظة ربما لا تكون ، ربما كان هنالك دفء . خطوتُ إليها خطوات مترددة ، بدا الباب سالماً . . باب مغلف بالجلد ، دافىء داخل الكنيسة ، حركت قُبعتى قليلاً زحفت ببطء إلى الأمام بين المقاعد الطويلة ، فرأيت شموعاً تشتعل فى جناح الكنيسة المرمّم . مضيتُ فى سيرى ، اكتشفتُ أن البرد هناك أشد مما هو فى الخارج . كان هواءً باردًا ، وتيارات هواء تأتى من كل الجوانب ، لم ترمم جدران بعض الأمكنة بالحجارة، بل بألواح « فايبر» راحت تنفصل عنها طبقات ، وتقف أغلفة عليها. فى بعض ألواح « الفايبر» ثقوب تنضح ماءً . توقفتُ مترددًا إلى جانب عمود .

كان قس شاب ، بثيابه البيضاء واقفٌ بين نافذتين عند مذبح حجرى ، بين شمعتين ، كان يصلى ويداه مرفوعتان . ومع أنى رأيت ظهر القس فحسب ، فقد كنت متأكدًا أنه يشعر بالبرد . بدا لبرهة كما لو أن القس وحيد مع كتاب الترتيل المفتوح . إن يديه الشاحبتين مرفوعتان وظهره مرتجف ، لكننى ميّزتُ خلف الشموع المرتعشة فى الأعلى ، رأس فتاة محنياً بعيدًا إلى الأمام ، حتى أن شعرها المسترسل انقسم على ظهرها جديلتين . إلى جانبها انحنى صبى يتلفّت من جهة إلى أخرى ، وبالرغم من عتامة الضوء تمكنت من أن أميز فى هيئة وجهه أجفاناً منتفخة وفمَ أبله فاغرًا ، أن أرى الأجفان المحمرّة والوجنات المنفوخة والفم البارز الغريب . فى لحظات رؤيتى تلك ، كان على وجه الطفل تعبير احتقار فيه دهشة وتحدّ.

التفت القس ، وجه فلاح شاحب مضنى ، قبل أن يُخفض يديه

المرفوعتين ، انزلقت عيناه إلى العمود ، حيث أجلس ، فبسطهما ثانية ، وهمهم بكلمات . بعدها استدار ، انحنى على المذبح الحجرى ، وفجأة التوى حوله لحد ما ، وبورع يكاد يكون مضحكاً منح بركاته للفتاة والولد الأبله .

غريب أنى لم أشعر بأننى داخل الكنيسة ، وإنْ كنتُ فعلاً فيها . استدار القس إلى المذبح ، ارتدى قلنسوته ، حمل كأس القربان وأطفأ الشمعة التى على يمينه . مشى بتؤدة إلى المذبح الرئيسى ،ثَنَى ركبتيه قليلاً واختفى فى اكتئاب الكنيسة . لم أعد أراه ، وتعذر علىَّ سماع صرير مفاصل الباب .

بعد دقيقة ، رأيت الفتاة فى الضوء : وجه لطيف وورعٌ بسيط . ركعت ، ثم عجلّت خُطاها لتطفىء الشمعة الأخرى . وقفت فى ذلك الضوء الأصفر فاستطعت أن أراها ، كانت جميلة حقاً ، رقيقة وطويلة وذات ملامح ناعمة، لاحمق فى شدّ شفتيها حينما تنفخ على الشمعة ، ثم هبط الظلام عليها وعلى الولد . ولم أرها بعد ذلك إلا بعد أن لاحت ثانية فى الضوء الرمادى ، فى النافذة المدمرّة فوق . مرةً أخرى أثّرت فىّ الطريقة التى مسكت بها رأسها ، أمالت عنقها وهى تمرّ بى ، منحتنى نظرةً هادئة ومتطلعة وهى تغادر الكنيسة جميلة كانت ، وتبعتها عند الباب ركعت ثانية وفتحت الباب وسحبت الأبله وراءها .

تبعتها . سارت فى الاتجاه المعاكس ، باتجاه المحطة ، وخلال شارع مهجور ، لا أكواخ تحدّه ولا ركام . لاحظتها تنظر إلى وراء عدة مرات ، كانت رقيقة ، نحيفة إلى حدٍّ ما ، بدت لا تزيد على الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة . وما اضطربت مشيتها وهى تجرّ الولد على الطريق .

لا تزال هناك بنايات ، وصادف أن رأيت كوخاً ، هنالك خطوط ترام تتجمع فى ذلك المكان ، ورأيتُ قسماً من مدينة لم أزره من قبل . لابد من أنه محطة ترام . أسمع صرير العجلات وراء حائط أحمر سيء الترميم . أرى فى ذلك الشفق إضاءاتٍ تعشى البصر ، تبعثها ماكينات اللحام ، وأسمع هسيس أسطوانات الأوكسجين .

حدّقت طويلاً فى ذلك الجدار حتى فاتنى أن الفتاة قد توقفت ، فأنا الآن جوارها تماماً ، ثم رأيتها تقف أمام أحد الأكواخ ، تبحث فى حزمة مفاتيح . كان أبله ينظر إلى المدى الرمادى للسماء . مرة أخرى نظرت الفتاة إلى الوراء ، إلىّ ، وترددت لحظة وأنا أجتازها حتى رأيت أن الكوخ الذى بدأت تفتح بابه ، هو مطعم أكلات خفيفة .

فُتِحَ الباب ، وفى الداخل فى الظلام الرمادى أرى مقاعد ومناضد ، ولمعاناً كامدًا لماكِنة قهوة ، وتأتى من خلال الباب رائحة فطائر البطاطا المحلاة . استطعت أن أرى فى العتمة ، وخلف زجاج ملوَث كرات من اللحم مكومة فوق طبقين بعضَ لحمِ الضُّلوعِ البارد ، ودورقاً كبيرا أخضر ممتلئاً خياراً غاطساً فى الخل .

حين توقفت الفتاة ، نظرت إلىَّ ، تحركت مغاليق الباب الحديدية وحدقت أنا أيضاً فى عينيها .

قلت : « معذرة ، هل تفتحين المحل ؟» .

أجابتنى : « نعم »

ومشت عنى حاملة آخِرَ الأقفال إلى الداخل ، وسمعتها تنزله . ومع أنها رفعت الأقفال ، فقد عادت ثانية ونظرت إلىَّ، فسألتها :

« أيحق لى الدخول الآن ؟ »

قالت : « طبعاً ، لكنها لا تزال باردة فى الداخل »

« آه ، لا يهمنى ذلك » أجبتها ودخلت .

كانت الرائحة فى الداخل لاتُطاق ، أخرجت سجائرى وأشعلت واحدة، فتحت الكهرباء ، فأدهشنى كم كان كل شىء نظيفاً فى الضوء .

قالت : « جو مضحك فى سبتمبر . فعند الظهر ستكون الأجواء حارة مرة أخرى ، لكنها لآن باردة جدًّا .

أجبتها : « أجل مضحك ، إن أجواء الصباح باردة » .

قالت : « خلال ثانية واحدة سأوقد النار »

كان صوتها واضحاً ، رفيعاً بعض الشىء ، ولاحظت أنها متحّيرة .

هززت رأسى قليلاً ، تطلعت إلى الحائط عن المنضدة ، وتطلعت داخل الغرفة : تتكون الجدران من ألواح خشب عارية ، مغطاة بإعلانات سجائر ملونة ، وهناك رجال مهذبون بسوالف رمادية يقدمون علبة سجائر لسيدات يرتدين فساتين واسعة الفتحات، يبتسمن بإغراء ويحملن فى اليد الأخرى زجاجة « شمبانيا » ـ رعاة بقر على ظهور جياد ، ملامح شر على وجوههم ، يد تمسك اللجام ، وأخرى تمسك السجائر ، يسوقون سحابة دخان زرقاء حجمها غير عادى ، فهى تمتد مثل لافتة حريرية إلى أفق المرج .

الولد الأبله جاثم قرب الموقد ، ينشج قليلاً من البرد . فى فمه مصّاصة ، وفى يده عود خشبى ، يمتص بجنون قطعة السكّر الحمراء المزوّقة التى عليه، و خطان من السائل رفيعان يجريا على جانبى فمه .

قالت الفتاة برقةٍ وهى تنحنى بعطف عليه وتمسح زوايا فمه بمنديلها : «برنارد» .

ثم رفعت الغطاء عن الموقد وأمسكت بجريدة رمتها ، و وضعت بعض الفحم فى أعلى الموقد ثم حملت عود ثقاب مشتعل إلى الموقد الصدىء .

قالت لى : « اجلس ، هل تود؟ »

قلت : « شكراً » ولم أجلس .

كنت أشعر بِالبرد وأردت أن أظل واقفاً قريباً من الموقد ، وإنِ اتجَهَ نظرى إلى الولد الأبله ومصدر الروائح الطعام الرخيص ، كما أن فكرة قهوة وخبز وزبد ملأتنى بدفء مبهج . ورحتِ أنظر إلى أسفل عنق الفتاة الجليدى ، إلى الجوارب الخشنة على ساقيها ، وانتبهت لحركات رأسها اللطيفة حينما انحنت تتابع سير النار .

فى البداية كان هنالك شىء من الدخان ، ثم بدأت أسمع قرقعة ، وابتدأ اللهيب بهدوء وخَفتَ آخر الدخان .

كات طيلة هذه المدة تحرَكَ النار فى فوهة الموقد . أسمع حركات أصابعها، وأحياناً تحنى أكثر لتنفخ فيه ، وكلما فعلت مثل ذلك رأيت ظاهر عنقها .

فجأة نهضت على قدميها ، ابتسمت لى ونظرت إلى ما وراء المنضدة استدارت إلى الحنفية ، غسلت يديها ، وأوصلت الكهرباء لمكنة القهوة . تقدمت إلى الموقد أكثر ، رفعت الغطاء ، فرأيت اللهب يوقد قطع الفحم. بدأ الذفء فعلا ومكنة القهوة ابتدأت عملها ، وأحسست بشهيتى تزداد . وقت الشرب أحس بشهية كبيرة للقهوة والإفطار ـ لكنى نظرت بقرف

إلى السجق البارد وجلده المتغضن فى إناء السلطة . رفعت الفتاة صندوقاً معدنيًّا لِلْقَنَانِى الفارغة وخرجت ، ملأنى وجودى وحيدًا مع الولد الأبله باستياء غريب . الطفل أهملنى تماماً ، أثارت أعصابى طريقته وهو جاثم هناك يمتص بارتياح وشرهٍ عود السكر المقزّز .

رميتُ سيجارتى ، كنت متهيأ ، حين فتحت الباب ، وبدلاً من الفتاة ظهر القس الذى أنهى خطبته توًّا : وجهه الفلاحى المدور الشاحب ، تظلله الآن قبعة سوداء نظيفة .

قال : « صباح الخير »

وألقت الخيبة ظِلاًّ ثقيلاً على وجهه حينما رأى المكان وراء المنضدة خالياً . تذكرت الآن أَن الكنيسة التى كنت فيها هى كنيسة الأبرشية ، « كنيسة أحزان مريم السبعة » ، وأنى ملمّ إلماماً جيدًا بأعمال القس ، كانت درجاته متوسطة ، أدعيته شعبية تفتقد الدرامية ، وصوته جشب يابس . لم يتميز خلال الحرب ، لم يكن بطلاً ، ولا مقاتلاً فى المقاومة ، ولم تزين صدره ميدالية ، ولم يُتَوَّج بتاج الشهادة السِّنِىِّ ، بل هو نال عقوبة تأديبية بحرقه قرار منع التجول ، فَلَطّخ سجله بها . لكن هذا كله لم يصل فى سوئه إلى ما وصلت إليه قضيته الغريبة مع امرأةٍ ، والتى وان اعتبرت قضية أفلاطونية ، فقد نالت درجة من النفح الروحى هبطت بمراتبه الكهنوتية . إن قس أحزان مريم السبعة واحد من أولئك الذين وسمتهم الكنيسة بأنهم قسس مادون الدرجة (ج) والمنحدرين إلى الدرجة (د) .

كان إخفاق القس المذلّ واضحاً جدًّا لدرجة أنه أربكنى. أشعلتُ سيجارة أخرى ، وقلت ثانية : «صباح الخير » .

وحاولت النظر إلى ذلك الوجه عديم الملامح . كلما رأيت القسس ، بقناعتهم البريئة ، أو بفقدانهم البرىء للقناعة ، فى ذلك الوقت ينتابنى مزيج من الغضب والرثاء ، مثل ذلك الذى أشعر به نحو أطفالى .

كان القس يحرك قطعا من فئة ماركين على واجهة المنضدة الزجاجية حينما فتحت الفتاة الباب ، ودخلت ... تدفق دم خفيف من عنقه صاعدًا إلى وجهه .

قال لحظتها :

« آه ، أردت بعض السجائر » .

راقبته عن كثب وهو يقترب بأصابعه القصار البيض يجتاز ـ باتجاه السجائر ، التقط علبة حمراء ، رمى بقطعة النقود على المنضدة وقال : « مع السلامة » وهو يغادر الكشك متعجلاً .

تابعته الفتاة بنظراتها ، وقد أنزلت السلة التى كانت تحملها ، وشعرت بأن لعابى يسيل وأنا أمام تلك اللفّات الذهبية الطازجة .

ابتلعت ذلك اللعاب الدافىء ، أطفأت سيجارتى ورحت أبحث عن مكان أجلس فيه . المدفأة الحديدية تبعث دفئاً لذيذًا ، لا يزال هناكِ ما يثير دخانَ الفحم ، وكنت أشعر بغثيان خفيف يتحرك حامضاً فى معدتى .

فى الخارج كانت عربات الترام تقرقع حول المنحنيات وهى تغادر المحطة ، العربات البيض المتسخة وصلت معاً ـ اثنتين اثنتين ، وثلاثات ـ وابتعدت مرتجّة صاخبة ، ينطلق صريرها من نقاط احتدام مثل عُقَدِ خيوط تنحلّ وتختفى فى قنوات أبعد .

الماء يغلى فى مكنة القهوة ، الولد الأبله ماضٍ فى امتصاص عود حلواه الذى لم يبق عليه غير طبقة وردية من السكر .

سألتى الفتاة من وراء المنضدة :

ـ « قهوة ؟ أترغب فى شىء من القهوة ؟ » .

أجبتها فى الحال :

ـ « نعم ، من فضلك » .

وكأن نغمة صوتى أثّرت فيها ، أدارت وجهها الهادىء الجميل إلىّ وأحنت رأسها مبتسمة وهى تدفع الكوب والصحن تحت رغوة المكنة . بهدوء فتحت علبة القهوة . وحين أخذت ملعقة منها هبت علىّ نفحة من الفستق « الأرضى » ، وترددتْ لحظةً قبل أن تسالنى :

« كم ؟ كم من القهوة تود ؟ » .

وبسرعة أخرجت نقودى من جيبى ، سوّيتُ القطع الورقية منها ، وبسرعة كومتُ القطع المعدنية ، حسبتها جميعاً وقلت :

ـ « ثلاثة ، أريد ثلاثة أكواب » . أجابتنى :

ـ « ثلاثة » ؟ .

وابتسمت مرة أخرى وأشارت برأسها :

ـ إذن سأعطيك دورقاً ، إنه أرخص » .

راقبتها وهى تضع أربع ملاعق من البن فى « المجرّ» المعدنى الصغير ، دفعته ، أبعدت الكوب ، ووضعت الدورق مكانه . وبهدوء عدّلت القفل ففتحت المكنة ، وبدأ الغليان . هسَّ البحار عابرًا وجهها ، ورأيت النسائل

البنيّ الغامق ينساب إلى الدورق ، وصار قلبى يخفق بسرعة أكثر قليلاً مما كان .

أحياناً أفكر فى الموت ، وفى لحظة العبور من هذه الحياة إلى الحياة الأخرى، وأحاول أن أتخيل ما سيظل معى فى الحياة الثانية : وجه زوجتى الضامر ، أُذن القس البيضاء ، فى الاعتراف ، بضع جلسات هادئة فى الكنائس المعتمة مملوءة بتراتيل الطقوس ، وجلد أطفالى القرمزى الساخن وفى هذه اللحظة وأنا أراقب الفتاة تعدل قفل مكنة القهوة انتبهت إلى أنها أيضاً ستكون معى هناك . فتحت أزرار سترتى ، رميت قبعتى على كرسى فارغ وسألت :

ـ « أيمكننى تناول بعض اللفائف ، أهى طازجة ؟ »

أجابت : « طبعاً ، كم واحدة تريد ؟ » .

قلت : « أربع ، وعليها شىء من الزبد » .

ـ « أوه ، أونس ، أو ما يقارب ؟ » .

تناولت اللفائف من السلة ، وضعتها فى الصحن ، وبدأت تقطع بسكين قطعة من الزبد :

ـ ليس لدى ميزان ، أيمكن أن تكون أكثر قليلاً ؟ »

قلت : « بالتأكيد » .

وكان واضحاً أنها وضعت إلى جانب اللفائف أكثر من « أونسين » ، لأن القطعة كانت هى الكبرى بين الأرباع الأربعة ، التى قُسمِّتَ العلبة إليها .

وبعناية ، أزاحت الورق عن الزبد وجاءت تحمل الصينية إلىَّ .

رفعتِ الصينية عالياً ، قريباً من وجهى ، لأنه أرادتْ أن تمد الشرشفَ بيدها الأخرى المتحررة ، فرحت أساعدها على نَفْضِه ، وللحظة رحت أشم شذى يديها ، شذى يديها كان زكيًّا .

قالت : « هذا ما أردت » .

قلت : « شكراً » .

صببتُ لنفسى كوباً من القهوة ، أضفت لها سكّرًا ، حركتها وشربت . كانت القهوة ساخنة وطيبة جدًّا . زوجتي وحدها تصنع قهوة مثل هذه ، لكى نادًرا ما أنال قهوة فى البيت ، ولا أدرى كم مضى علىَّ من زمن منذ تناولت مثل هذه القهوة الجيدة . ارتشفت عدة رشفات شعرت بعدها فى الحال بعودة روحى .

صحت : « مدهشة ، قهوتك مدهشة ! » .

ابتسمت ، وأشارت لى برأسها ، وأدركت فجأة كم أحببت النظر إليها . حضورها ملأنى بالرضا والوجود المريح .

« لأول مرة يقول لى شخص إن قهوتى بمثل هذه الجودة » .

قلت : « نعم ، إنها كذلك » .

بعد ذلك سمعت قرقعة القنانى الفارغة فى الإناء المعدنى ، فى الخارج . بائع الحليب جاء بقنانٍ ملأى ، وبهدوء عدتّها بأناملها البيض : حليب ، شوكولاته ، لبن ، قشطة ، بدأت الحرارة تزداد فى الكشك ، ولا يزال الولد الأبله يجلس هناك يمسك بعود السكرّ العارى فى فمه ، يتلفظ أصواتاً تتفق ومناسباتها . يطلقها خطأً من كلمات تبدأ بـ «ز» فتبدو كأنها تبعث نغماً من

« زوزو ـ زازا ـ زَوْزُو» إيقاع وحشى وسرى يثقل هذه البربرة . وإذا ما التفتت الفتاة إلى الأبله انتشرت على وجهه جهامة . دخل بعض مُصلحى الترامات . أزاحوا النظارات الواقية عن عيونهم ، جلسوا ، شربوا حليباً خلال تعصبات فى القنانى ، تبينّت سمات المدنية مرسومة على صداريهم . فى الخارج ، كانت الأشياء نابضة بالحياة، خطوط الترام اختفت الآن ، وعربات بيض مسودّة ترسل صريرها وهى تمر على فراغات منتظمة فى الخطوط الطويلة .

فكرت فى « كيت » زوجتى وبأنى سأكون معها ذلك المساء ، لكن علىَّ أولاً أن أهيّىء بعض النقود وأن أجد غرفة . ليس سهلاً أن أحصل على نقود، وتمنيت أن أجد من يقدمها لى . لكن فى مدينة مثل مدينتنا ، مدينة الثلاثمائة ألف نسمة ، ليس سهلاً أن تجد فيها إنساناً يعطيك نقودًا فقط ، لأنك تطلب ذلك منه . أعرف أناساً قليلين من السَّهل سؤالهم ، وقررت أن أقصدهم ، ويمكننى فى الوقت نفسه أن أتطلع إلى الفنادق وأحاول إيجاد غرفة .

أنهيت قهوتى ، وقد قاربت السابعة . رائحة التبغ ملأت خياشيمى . معوّق عجوز ، خرِبٌ ، هالك ، غير حليق ، جاءنى مبتسماً . جلس أمام المدفأة ، راح يشرب قهوةً ويُطعم الأبله شطائر جُبن كانت ملفوفة بجريدة .

جلست الفتاة هادئة قرب الواجهة وبيدها حمَّالة صحون ، كانت تتسلم النقود وتعيد الباقى ، تبتسم وتهز رأسها ، وهى تضغط على مكنة النقود ، تجفف القنانى بقطعة قماش بعد أن تخرجها من الماء الساخن .

كل شىء تفعله يبدو يسيرًا ، وبدون جهد ، وإن ألحَّ عليها بعض «الزبائن » أحياناً ، لقد تزاحموا حول المنضدة . صبّت حليباً ساخناً ، شرابَ

كاكاو باردًا وشراب كاكاو ساخناً ، تركبت البخار يتصاعد من مكنة القهوة، يمر على وجهها ، التقطت بملقاط من خشب قطَعَ مخلّلٍ من مكنة القهوة ، يمر على وجهها ، التقطت بملقاط من خشب قِطَعَ مخلّلٍ من «برطمان» زجاجى قاتم ـ وفجأة فرغ الكوخ « الكشك » . وظل شاب واحد بدين ممتلىء الوجه أمام المنضدة ، يحمل قطعة مخلّل فى إحدى يديه ، وقطعة ضلع باردة فى الأخرى ، . وبسرعة أفرغ كلتا يديه . أولع سيجارة ، وببطء أخرج بعض النقود من جيب بدلته الجديدة التى لم تتغضّن إلاّ قليلاً . عرفُت واثقاً أن وراءه يوماً من الراحة ، وأدركت أن الأحد بدأ توًّا فى المدينة، وهنا تذكرت كم كان صعباً اقتراضٌ نقودٍ يوم الأحد .

بعدها خرج شطائر الشاب ، تاركاً العجوز الملتحى مرتجفاً يضع فى فم الأبله قطعاً من شطائر الجبن ، وبينما كان بصوتٍ خفيف يقلد أصوات الطفل « زوزو ـ زازا ـ زَوْزَوْ » وإن كانت بربرة العجوز لا يملأها ذلك الإيقاع الوحشى المؤثر . استقرت عيناى على الأبله وهو يمضغ قِطَعَ خُبزه . وانحنت الفتاة على جدار الكوخ تراقبهما . كانت تشرب حليباً ساخناً ببطء من قدح فخارى كبير ، وتقضم ملء فمها شريحة خبز جافة . كل شىء هادىء الآن وآمنٌ . وأحسست أنا بانفعال يتصاعد فــىَّ .

ناديتُ بشىء من الحزم :

ـ رجاءً . . قائمة الحساب » ونهضت .

شعرت بشىء شبيه بالحيرة حينما رمقنى العجوز المعوّق بنظرة باردة فاحصة . الأبله هو الآخر التفت إلىَّ ، لكن نظرته الواسعة الزرقاء انحرفت وتجاوزتنى . فى ذلك الصمت قالت الفتاة :

ـ « يكفى هذا ياأبى ، أظن برنارد أخذ كفايته » .

وأخذتِ الورقة النقدية من يدى وأسقطتها فى صندوق سجائر تحت المنضدة : وببطء عدّت الباقى على زجاجة المنضدة . وحين دفعت بقطعة النقد على الزجاجة إليها ، أخذتها وهمهمت :

ـ « شكرًا » .

ورفعتِ القدحَ الفخاريَّ الكبير إلى شفتيها لتشرب منه بعض الحليب . كانت جميلة حتى فى رحابة النهار ، وترددت لحظة قبل أن أغادرها .

لقد بقيت هناك بضع ساعات جالساً فقط وأنتظر . أدرت ظهرى إلى ثلاثتهم ، وتوقفت ثم سحبت نفسى وأنا أتمتم :

ـ « مع السلامة » .

وخرجتُ عَجِلاً .

خارج الباب شابان ، كل منهما يرتدى قميصاً أبيض ، كانا يفتحان لافتة ويثبتانها على عمودين خشبيين . الأزهار متناثرة فى الشارع . انتظرت دقيقة حتى نُشرِت اللافتة تماماً ، واستطعت أن أقرأ الكتابة : حروف حُمر على قاعدة بيضاء :

مرحى لراعى كنيستنا !

أشعلت سيجارة ، واستدرت متثاقلاً نحو المدينة لأقترض نقودًا وأجد غرفة لقضاء الليل .



2

حين ذهبتُ إلى الحنفية لأملأ الدلو ، لم أطق رؤية وجهى فى المرآة . أنا امرأة يابسة ، جاءت لتعرف مرارة الحياة . لا يزال شعرى كثيفاً ، وآثار الشيب فى سالفى ، هذا الشيب الذى يعطى شعرى الجميل مظهرًا فضيًّا ، هو عامة الحزن من أجل طِفْلَىَّ اللذين أوصانى مَنِ اعترف أبى أمامه ، بأن علىَّ أن أصلى من أجلهما . هما فى عُمْر فرانز الآن ، وبدَءا يجلسان فى الفراش ليحاولا الكلام معى . لم يلعبا يوماً فى مروج مزهرة ، لكنى أراهما أحياناً فى مرعى مزهر ، فيختلط الحزن بشىء من الرضا ـ الرضا بأن هذين الطفلين فائضان عن حاجة الحياة ، مع ذلك رأيت أن لى بطفلين آخرين ، تصور ـ مخلوقين ينموان ، يتغيران سنة بعد سنة ، وتقريباً شهرًا بعد شهر وأنهما يمران بما مرَّ به الطفلان السابقان . يتراءى لعينىَّ الطفلان الآخران، هما واقفان فى المرآة وراء وجهى ، ويلوحان لى ، حكمة أدركتها دون أن آخذ بها . هذه الابتسامة التوّاقة فى عينى الطفلين اللذين يلوحان لى فى المرآة ، شفق فضى ـ أرى فى عينيهما صبرًا ـ صبرًا لا حدود له ، وأنا ، أنا لست امرأةً صبورًا ، وأرفض التخلى عن المعركة التى أخوضها ، والتى كانا ينصحاننى بألاّ أبدأها .

استغرق ملء الدلو وقتاً طويلاً ، وها قد بدأت قرقرة الامتلاء تعلو

وتعلو، بشيء من الإنذار ، إنها السرعة التى أسمع فيها امتلاء الميدان أخرى على عظام وجنتى البارزة قليلاً، هزلت كثيرا ، شحوب وجهى صار الآن اصفرارًا ، وأتساءل إن كان علىّ تغيير صبغ شفتىّ هذا المساء ، قد أستعملُ أحمر شفاه أكثر إشراقاً .

كم من آلاف المرات يجب أن تقوم يداى بهذه الحركات ! دونما نظر إلى الدلو ، كنت أسمعه قد امتلأ . أغلقت الحنفية وأمسكت يداى بسرعة قبضة الدلو . أحسست بعضَلات ذراعىّ تتوتر وأنا أنزل الدلو الثقيل متأرجحاً إلى الأرض .

وضعت أذنى على باب « جزء » البيت الذى اقتسمناه بقواطع من خشب، أنصت لأتأكد من أن فرانز لا يزال نائماً .

بعدها بدأت معركتى ، معركتى ضد القذارة . لا أدرى كيف أنقذ الأمل مما يميته ، أَجَّلْت الهجوم قليلاً ، مشطتُ شعرى بدون النظر إلى المرآة . نظفتُ صحون الإفطار ، وأشعلت نصف السيجارة المتروك على الدولاب بين كتاب الصلاة ودورق القهوة . استيقظ الجيران فى الغرفة المجاورة ، أستطيع سماع هسيس اشتعال الغاز بوضوح أسمع قهقهات الصباح الباكر، وتلك الأصوات الكريهة التى تتفجر فى بعض الأحاديث . ربما هو لا يزال فى فراشه ، تمتماته غير مفهومة ، أستطيع تمييز الكلمات حينما تبتعد .

« الأحد الماضى أردتُ أشترى بعد المطاطيات ... متى يدفعون لنا ؟ ... »

يبدو أنه راح يقرأ إعلانات السينما ، سيذهبون إلى « بار » . وبدأت آسف قليلاً على أن لى موعدًا مع فريد ، فستكون الغرفة المجاورة هادئة هذا

المساء . لكن « فريد » الآن فى طريقه ربما ليحصل على غرفة وبعض النقود، وقد فات الأوان لإلغاء موعدنا . وأنا استنفدت سجائرى .

لحظة حرّكتُ الدولاب، تدحرجت على من الحائط قطع من البلاستر الجصى ،قطع تهاوت بين أرجل الدولاب وانتشرت على الأرض ، يوم طباشيرى جاف وناعم ، يبدأ بالتفتّت . أحياناً ينزلق لوح كامل إلى أسفل وتتوالى فرقعته بسرعة ، وحين أحرك الدولاب يهوى بعاصفة مُحْمَدَة ،

فى حين تنبئنى سحابة طباشيرية بأن يوم معركة استثنائية قد طلع علىَّ فجره ، استقر الغبار على كل شىء فى الغرفة ، طحين ناعم لطيف يضطرنى لأن أمرّ على كل شىء أنظفه مرتين ، وأنه ليلتمّ تحت قدمى ، وأسمع عبر الجدار البسيط لذلك المسكن المجزّأ الطفل يسعل ، يحاول التخلص من ذلك الغبار المفزع فى حنجرته . تصاعد اليأس فى داخلى ، صار ألماً جسديًّا، حنجرتى أطبقت على غبارِ غضبٍ حاولت ابتلاعه . أخمدته ، لكنَّ مزيجاً من غبار ودموع وخيبة انزلق إلى معدتى ، لقد بدأت الآن المعركة فعلاً . وجهى يلتمّ من ألمٍ ، كنستُ النثار بعد أن فتحت النافذة ، بعدها مسحت بمنفضتى الغبار عن أوجه الأشياء . أخيرًا غطّست ممسحة الأرض فى الماء ، وما إنْ حاولت تنظيف أوول مساحة مربعّة وأغسل ممسحة الأرض حتى بدأت سحابة بيضاء تنتشر فى الماء . بعد المساحة المربعة الثالثة ، صار الماء كثيفاً ، وحين أفرغت الدلو ترسب تفل طباشيرى مقرف ، أزحته بيدى ، وغسلت الدلو ، كان علىّ أن أملأ الدلو مرة أخرى .

أنظر إلى وجهى فى المرآة ، عيناى لمحتا شيئاً ، أستطيع رؤيتهما ، طفلىَّ : ريجينا و روبرت . . تَوْأَم ولدتهما كى أتحمل فقط رؤيتهما يموتان . إنَّ يَدَىْ فريد هما اللتان قطعتا الحبل السرى وغليتا الأدوات ، واستقرتا على جبهتى

حين كنت أصرخ من الألم . لقد ترك المدفأة موقدةً ، لف سيجارتين لكلينا ، وكان هارباً من الخدمة ، وكنت أشعر بمزيد من الحُب له حين أدركتُ قَدْرَ كُرْهِهِ للقانون . رفعنى بذارعيه . . حملنى إلى السرداب ، وكان إلى جانبى حين وضعتهما لأول مرة على صدرى ، هنالك ، تحت فى السرداب البارد الذى لا يتغير هواؤه ، إلى جانب ضوء شمعة خافت « كليمنز » جالس على كرسيه الصغير ينظر فى كتاب مصور والقنابل تتفجر فوق بنايتنا .

تلك الأصداء الكبيرة تذكرنى الآن بمعركتى ضد القذارة والنثار المتهاوى، فما إن ذهبت مرة أخرى يتأرجح الدلو فى يدى نازلة إلى الأرض ، حتى رأيت الأمكنة التى غسلتها قد جفّت وكشفت عن طبقة طباشيرية بيضاء وبقع كريهة أعرف أنها لا تزاح . هذه اللاجدوى الباهتة تقتل انتباهاتى الحية ، تدمر قُواى ، والتشجيع الذى يمدنى به الماء النظيف فى الدلو الذى أحمله ، قد هبط الآن إلى حده الأدنى .

مرةً أخرى ، أخرى أحمل الدلو الفارغ لأضعه تحت ماء الحنفية ضعيف الجريان. وتقع أيضاً عيناى على المساحة البيضاء غير المضاءة فى خلفية المرآة، ورأى جَسَدىْ طفلى تغطيهما لسعات البعوض الوارمة ، مثخن جسداهما من عض القمل فيعترينى إيلام فى معدتى وأنا أفكر فى جيش الهوام المشحون إلى الحرب . . بلايين القمل والبعوض والقراد تتحرك حالما تندلع الحرب ، تتبع الأمر الصامت الذى يقول لها :

هنالك طعام يمكن الحصول عليه .

أوه . . إننى أدرى ! أدرى ولا أظننى يوماً سأنسى أننى كنتُ أدرى أن الموت يأتى إلى طفلىَّ من القمل ، فقد باعوا لنا علاجاً عديم الجدوى من

مصنع يديره ابن عم وزير الصحة ، فى حين حُظِرَ العلاج الجيد ، الفعّال .

أدرى ، ولا أظننى أنسى ، لأننى أراهما ، هناك فى المرآة ، أحمرين من الحشرات ، قبيحين ، محمومين وبيكيان ، جسداهما الصغيران متورمان من زرق الإبر اللامُجْدِيَة . وفتحت الحنفية بدون أن أرفع الدلو ، فاليوم هو الأحد ، وسوف أجد راحة نفسى ، فى هذه المعركة ضد القذارة التى هيجتها الحرب .

وأرى وجه فريد شائخاً جافًّا ، أتلفته حياة لا طائل وراءها ، ودائماً لا طائل وراءها . حياة ستظل لا طائل وراءها . فهى خلو من الحب ، لا تثير أية محبة فى وجه رجل استسلم فى سن مبكرة إلى اللامبالاة بإزاء أى شىء مما يجهد الناس للحصول عليه . أراه كثيرًا ، وأكثر من أى وقت ، وإن لم يعد يعيش معنا . ابتسم فى المرآة ، تدهشنى رؤية ابتسامتى أنا التى لا أعرف عنها شيئاً ، أصغى لقرقرة الماء فى الدلو ترتفع ، ترتفع أكثر . أخفق فى استعادة نظرتى من المرآة لأحيلها إلى وجهى . وجهى الحقيقى الذى أعرفه غير مبتسم . وراء وجهى أرى نساءً ـ نساءً صُفْرًا ينجزن غسيلهن جنب أنهار موحلة ، أسمع غناءهن ـ أرى نساءً سُودًا يحفرن فى أرض لفحتها الشمس ، أسمع قرع طبول لا معنى لها ، ولكنها آسِرة ، من رجال عاطلين أراهم فى خلفية المرآة . أرى نساءً سُمْرًا يطحنَّ حبوباً فى رحًى حجرية ، يحملن رُضَّعًا على ظهورهن على حين يقبع الرجال بغباء حول النار يدخنون غلايينهم ـ وإخواتى البيض فى حجرهن ، فى لندن ونيويورك وبرلين ، فى تلك الأزقة المظلمة ، فى شوارع باريس الخلفية ، وجوههن مألومة ، يصغين مرعوبات لصراخ مخمورين . وأرى بعيدًا فى المرآة ، أرى جيش الجحيم يتقدم ، تحرك غامض بلا نشيد للهوام ، إنه يتقدم حاملاً الموت لطفلَيَّ .

لكن الدلو قد امتلأ منذ حين ، ومع أنه الأحد ويجب أن أغتسل ، فأنا اليوم عليَّ أن أقاتل القذارة . منذ سنين وأنا أقاتل القذارة فى هذه الغرفة الصغيرة ، أنا أملأ الدلاء وأعصر الثياب ، أسكب الماء القذر فى البالوعة ، وافترض أنى سأكسب معركتى، فأرانى ثانية أقشع قدرًا من التلف الطباشيرى، وأزيح بقدر ما أضاف البناءون مبتهجين من ملاط على جدران هذه الغرفة قبل ستين سنة . كلما رحت أملأ الدلو تنظر عيناى فى المرآة ، وحين ترتدان من الخلف تقعان أمام هى يابستين بلا حياة ، تراقبان اللعبة اللامرئية ، ثم أرى على وجهى ابتسامة قد تكون سقطت من وجوه أطفالى على وجهى وبقيت عليه . أو هى فى جهى تعبير عن قرار قاس ، عن كراهة وقسوة يملاننى بالكبرياء أكثر ممن ينذراننى ، إنها قسوة وجهَ لا ينسى .

لكن اليوم هو الأحد ، وأنا ماضية لأكون مع فريد . الرضيع نائم .

وكليمنز خرج إلى الموكب مع كارلا ، ومن الفناء أستطيع سماع أصداء طقوس ثلاث كنائس يخترقها جميعاً غناء خشن لزنجى .

إن غناء ذلك الزنجى كان الشىء الوحيد الذى يلامس قلبى :

« ... وهو أبدًا لم يقل كلمة »

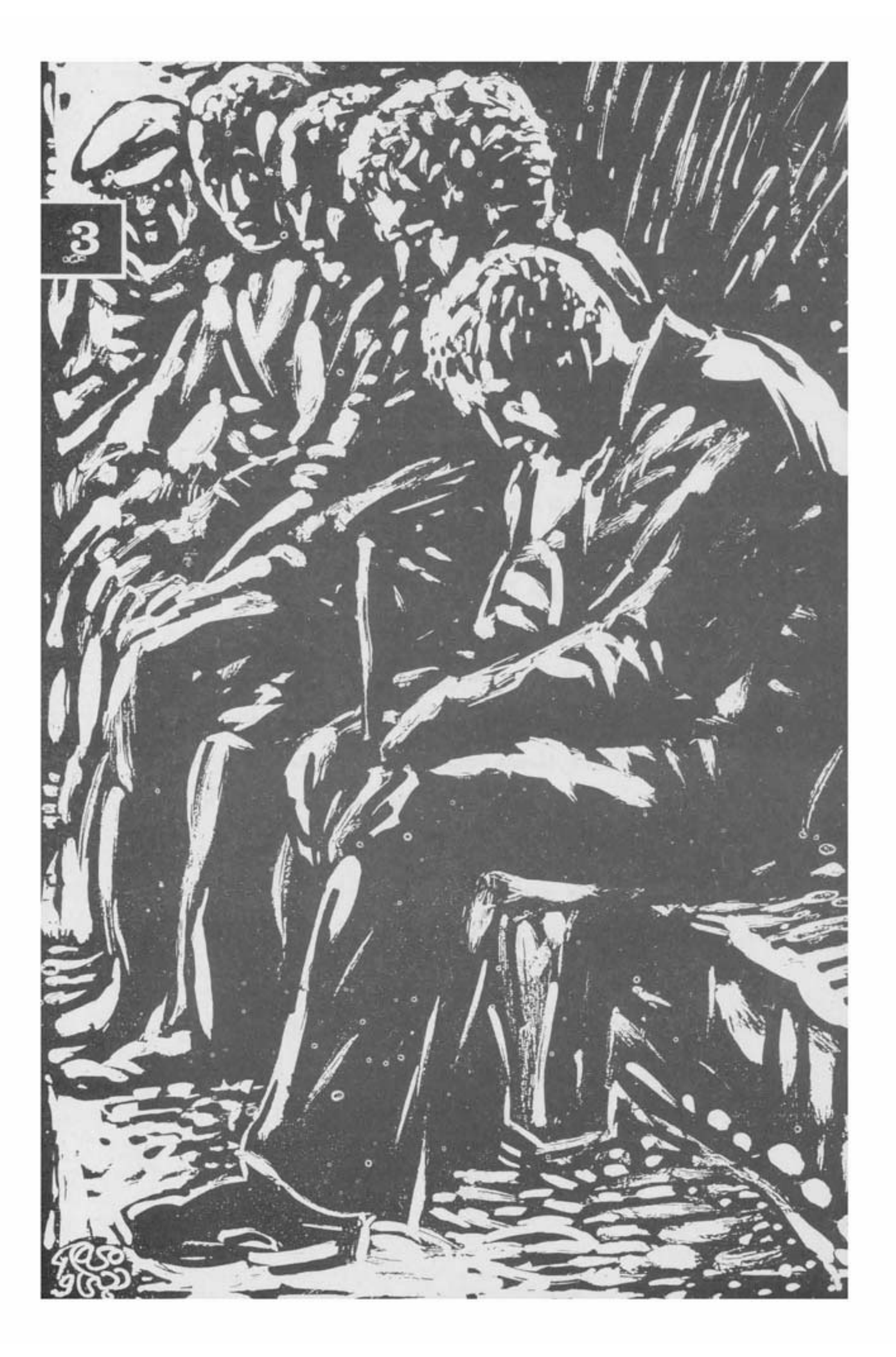
لعل فريدًا سيسكب بعض النقود وسنذهب عندئذ للرقص ، سأشترى قلمَ حمرة جديدًا ، أشتريه ديناً من سيدة مالكةٍ فى الطابق الأسفل . وسيكون لطيفاً إن أخذنى فريد للرقص . أستطيع أن أبقى هنا أسمع صراخ الزنجى الخشن الجميل ، أسمعه خلال اثنتين من صلوات الماء ، وأستطيع أن أحس بالكراهية تكبر فى قلبى للأصوات الأخرى التى تتقطر قوتها فى داخلى مثل تحلل بطىء :

« لقد سمروه على الصليب ، سمروه على الصليب » .

نعم هو الأحد ، غرفتنا ملأى برائحة « الروست » . إن هذه الرائحةِ تبكينى ، تبكينى على فرح الأطفال بها ، والذين نادرًا ما ينالون لحماً :

« ... لم يقل كلمة » يغنى الزنجى .

« ... ولم يقل كلمة » .


3

عدت إلى محطة القطار ، أخذت بعض القطع النقدية الصغيرة من محاسب « مطعم الأكلات الخفيفة » ، وقررت أن أسلك أسهل الطرق إلى الخارج ، فقد كان اليوم يوم أحد ، كنت شديدالتعب وشديدالتعاسة ، لا طاقة لى على الذهاب ورؤية كل أولئك الناس الذين أستطيع أن أفترض منهم نقودًا ، لذلك فكرت أن أتصل هاتفيًّا بالذين عندهم هواتف ، فى الهاتف أحاول أحيانا أن أشبع صوتى بتلك النغمة التى تؤكد الثقة بصاحبها ، والتى تتضح فى وجه المقابل وتضغط على سحَّاب فتح المحفظة . كانت مقصورة الهاتف فى المحطة خالية ، دخلت وأدرت أرقام هواتف عدة فنادق ، وأخرجت دفتر ملاحظاتى لأرى أرقام هواتف ناسٍ يمكن أن أطلب منهم مالاً ، كان فى جيبى كثير من القطع النقدية الصغيرة ، وترددت قليلاً ، تطلعت إلى ورقة جدول التعليمات المتهرئة ، على جدران المقصورة تعليمات استعمال الهاتف وعليها الكثير من الخربشة ، أسقطت أول قطعتين من النقود فى الفتحة .

كلما حاولت الاتصال بأحد ، ضغط على هَمٌّ طلب النقود ، حتى تحول ذلك إلى كابوس ، فلم آسف على أنى كنت مخمورًا . أدرت رقم الرجل الأكثر احتمالاً أن يقرضنى شيئاً ، لكن رفضه سيجعل كل شىء فى أسوأ

حال . فالأشد إحراجاً بعده سؤال الآخرين . وهكذا تركت القطعتين الأخريين تستقران فى جوف الجهاز ، ضغطت على الذراع مرة أخرى وانتظرت قليلا . كان العرق يتجمع على جبهتى ، مما جعل قميصى يلتصق على ظهر عنقى ، وأدركت فى ذلك الوقت كم عولت كثيرًا على اقتراض النقود، خارج مقصورة الهاتف ، رأيت ظل رجل بدا منتظراً ، كنت أوشك على ضغط الزر الآخر لأخرج نقودى مرة أخرى ، ففرغت المقصورة الثانية واختفى الظل الذى كان وراء باب مقصورتى . مازلت مترددًا . فوق رأسى ترعدالقطارات داخلة خارجة ، ومن بعيد أستطيع سماع صوت مذيع المحطة . مسحت العرق وقلت لنفسى :

لن أستطيع فى وقت قصير أن أنال النقود التى أحتاج إليها لأكون مع «كيت » .

كنت شديد الخجل وأنا أدعو الله ليَهَبَ لى أحدًا أطلب منها النقود بيسر . جمعت نفسى وأدرت الرقم مرة أخرى ، وأبعدت يدى اليسرى عن الذراع، فما عدت قادرًا على ضغطها مرة أخرى ، حين أدرت الرقم الأخير. مرّت لحظة صمت تبعها أزيز ، واستطعتُ تمييز مكتبة سيرجى، حيث يرن الهاتف الآن ، أستطيع رؤية كل كتبه ـ النقوش المثيرة على الجدران ، النوافذ الملطخة الزجاج تطلّ على القديس كاسيوس ، تذكرت اللافتة التى رأيتها قبل قليل :

« مرحى لراعـى كنيستنا »

وأدركت طبعاً أنه يوم الموكب ، وأن سيرجى ربما لا يكون فى البيت . كنت أنضح عرقاً ، أكثر غزارة من أى وقت مرَّ بى ، ربما أخفقت فى سماع صوت سيرجى أول مرة ، لأنه قال جَزِعاً :

ـ « هلو ، مَن المتكلم ؟ » .

ومن نغمة صوته ذابت كل شجاعتى ، وأكثرها تسرب عبر رأسى فى ثانية واحدة . لكنى ، إذا سالته مالاً فسيكون قادرًا عندئذ على التمييز بين مستخدمه وبينى أنا المقترض ، فقلت بأعلى ما يمكن :

ـ « إنه بوكنر » .

ومسحت العرق البادربيدى اليسرى وأصغيتُ بدقة لصوت سيرجى ، ولن أنسى ارتياحى حين سمعت صوته يتخذ نغمة ودية .

قال : « أوه ، هذا أنت ! لماذا تتكلم مضطرباً ؟ »

قلت : « كنت أخشى أن . . . . » .

ظل صامتاً ، وكنت أسمع رعد القطارات ، وصوت مذيع المحطة فوق رأسى ، وكنت أرى امرأة وراء باب المقصورة . تلمست منديلى .

كان قذرًا رطباً . صوت سيرجى صدمنى بين عينى حين قال :

ـ « حسن ، كم تريد ؟ » .

كنت أسمع خلال الهاتف أجراس كنيسة بيفانى الجميلة الباكية كأنما ربطوا رنينها الداوى بسماعة الهاتف . بصوت خفيض قلت :

ـ « خمسين » .

ـ « كم ؟ » .

ـ قلت : « خمسين »

ولا زلت مضطرباً من الضربة التى لم يقصدها ، لكن هكذا هى الأمور ،

حين يسمعنى شخص ، يرانى ويعرف فى الحال أنى سأطلب منه مالاً .

سألنى : « كم الساعة الآن ؟ »

وفتحت باب مقصورة الهاتف ، نظرت أولاً إلى وجه امرأة عجوز مكفهر كانت واقفة هناك هزت رأسها حين أخرجت رأسى ، ثم ـ فوق لافتة اتحاد الدوائيين ـ رأيت ساعة المحطة ، وأجبت فى السماعة :

ـ « السابعة والنصف » .

صمت سيرجى ثانية ، سمعت رنين جرس الكنيسة الناحب ، ثم قال :

ـ « تعالى حوالى العاشرة » .

خشيت من أن يقطع المكالمة فقلت عجلاً :

ـ « هلو ، سيدى ، هلو ؟ »

« نعم ، ماذا ؟ »

« أستطيع أن أعتمد . . . » .

« يمكنك . . وداعاً » .

وسمعته يضع السماعة ، وضعت سماعتى ، وفتحت باب المقصورة .

قررت أن أوفّر ثمن المكالمات وسرت متمهلاً فى المدينة أبحث عن غرفة . كان صعبًا العثور على غرفة بسبب الاحتفال الكبير ، فهنالك الكثير من الزوار فى المدينة ، ومجرى السياح الأجانب لم يتوقف . المؤتمر جلب أخيرًا مثقفين من جميع أنحاء البلاد . صارت المناسبة معروفة للجراحين وهواة الطوابع والمنظمات الخيرية ، فهم يجتمعون كل سنة فى ظل الكاتدرائية ، لقد

ملأوا الفنادق، رفعوا الأسعار ، وأسرفوا فى صرف حساباتهم الكبيرة ، والآن هم الدوائيون ، الذين يجتمعون .

يستعرضون فى كل مكان ، يحملون أعلاماً حُمْرًا صغيرة وشارات تنظيماتهم على صدور سترهم ، لا يبدو لبرد الصباح الباكر تأثير فى حالتهم الروحية . يتبادلون كلام الباعة البهيج فى السيارات وفى الترام ، ويندفعون إلى لقاءات جميعات وانتخابات هيئات ، ويبدو أنهم قرروا إشغال كل فندق من الفنادق متوسطة الأسعار ، ولأسبوع على الأقل ، كان هناك فعلاً الكثيرُ من الدوائيين ، وكثير من هؤلاء تصحبهم زوجاتهم لمناسبة نهاية الأسبوع ، مما شكل صعوبة فى الحصول على غُرف ذات سريرين ، كما أن التجمع أقام معرضاً . وهنالك لافتات تدعو الناس لزيارة هذا المعرض الفخم للمنتجات المهجّنة . . مجاميع من العقائديين يظهرون بين حين وآخر فى مركز المدينة بمسيرة تتجه إلى موقع التجمع ، قس محاط بمشاعل باروكية وهاجة ، ومنشدون بأرواب حُمْر ، ورجال ونساء فى أناقةيوم الأحد .

منتج معجون أسنان استأجر منطادًا ذا محرك يلقى بمظلات بيض . المظلات طفت ببطء باتجاه الأرض ، حاملةصناديق من معجون الأسنان فوق المدينة ، وعلى السّد كان مدفع ضخم يفجّر بالونات تحمل ماركات منافسة ، عجائب أكبر أعلنت ، وكان هناك كلام بأن « خدعة » إعلانية عن منتج بضائع مطاطية كبير خربتها الكنيسة .

حين بدأت الاتصال بسيرجى فى الساعة العاشرة لم أكن قد وجدت غرفة بعد ، وكان رأسى يئز بأعذار مالكات النزُل ، والأجوبة القاطعة للنوادل ذوى العيون الغائمة من سهر .

المنطاد ذو المحرّك اختفى فجأة ، والمدفع الذى كان يُطلق من فوق

السند، لم يعد يُسمعَ ، وحين سمعت ترانيم الأدعية تأتى من القسم الجنوبى للمدينة ، علمت بأن الاجتماع يوشك على البدء الآن .

العاملة بمتزل سيرجى استقبلتنى فى المكتبة . قبل أن أجلس ، دخل سيرجى عبر غرفة النوم ، ورأيت فى اللحظة نفسها نقودًا فى يده .

رأيت قطعة ورقية خضراء ، وواحدة زرقاء ، وفى الأخرى بعض قطع معدنية ، حدقت فى الأرض ، منتظرًا ظله يسقط علىَّ ، ثم رفعت بصرى ، وقد دفعه تعبير وجهى إلى القول :

ـ « تعال ، ليست الأمور بهذا السوء » .

لم أعترض عليه .

ـ قال : « ها هى ذى »

مددت يدى مبسوطة إليه ، وضع القطعتين الورقتين فى يدى اليمنى ، وكوم القطع المعدنية فوقها قائلاً :

ـ « خمسة وثلاثون ، هذا أقصى ما أستطيع ! »

قلت : « أه ، شكراً » .

نظرت إليه وحاولت أن أبتسم ، لكن نشيجاً لم أسيطر عليه انبثق منى كمن يتجشّأ . لاشك أن مابدا علىَّ حَيَّرهُ . نفض رداءَه بعناية . يداه مقلمتا الأظافر جيدًا ، وخداه الحليقان ، كل ذلك جعلنى أمام رثاثة شقتنا ، والبؤس الذى نتنفسه طيلة عشر سنوات مثل غبار أبيض لانحس به ولا نلمس له طعماً ـ ذلك اللامرئى ، الذى لا وصف له . لكننا نعرفه غبار التعاسة الأصيل الذى استقر فى رئتى ، فى قلبى ، فى دماغى ، ذلك الذى

تسلط على دمى وتركز فى جسدى ، ذلك الذى جعلنى الآن متقطع النفس ، أسعل قبل أن أستطيع انتشاق الهواء .

قلت بجهد : « حسن إذن ، وداعاً وشكرًا جزيلاً » .

ـ « تحياتى لزوجتك »

ـ « شكرًا » .

تصافحنا ، وسرتُ نحو الباب ، حينها التفت ، رأيته قد رفع يده مباركاً . ورأيته واقفاً قبل أن أغلق الباب : يذاه تتدليان واهنتين إلى جانبيه ، ووجهه فى حُمرة الشمندر . كانت باردة فى الخارج فقَلَبْتُ ياقة سترتى . سمعت توًّا صوت الصلوات ، أصوات « الترمبونات » وأصوات النساء يُغَنِّين ، وقد تلتهن وأخفت أصواتَهن أصواتُ كورس الذكور . هبّات الريح قربت الغناء أكثر ، سياقات موسيقية مزجتها ريح الخرائب بالغبار . كل مرة ترشق الريح الغبار على وجهى ، وتصدمنى عاطفية الغناء . لكن الغبار توقف فجأة ، وعلى بعد ياردات وجدتُ نفسى فى الشارع وحيدًا حيث اعتاد الموكب أن يمر. لم يكن هنالك الكثير من الناس على الماشى ، فتوقفت منتظرًا .

راعى الأبرشية، وقد تجلبت باللون الأحمر للشهداء ، سار وحيدًا بين حاملى القربان المقدس وفرقة المنشدين ـ وجوه المنشدين المتوردةبدت منتفخة وشبه بلهاء، كأنهم لا يزالون يصغون إلى الترتيل الذى توقفوا عنه .

راعى الأبرشية كان رشيقاً ، طويل القامة ، شعره الأبيض الكثيف خرج من تحت قبعته التى يلائم حجمها رأسه تماماً . لقد كان مُشْتَدًّا ، ويداه مَثْنِيَّتَيْن ، أستطيع القول إنه لم يكن يصلى ، وإن كانت يداه مثنيتين ، وعيناه

تنظران محدقتين إلى أمام . الصليب الذهبى على صدره يتأرجح تأرجحاً لطيفاً وعلى إيقاع مدى خطواته .

كانت للراعى مشية فخمة ، متمايلة ، وعند كل خطوة يحرك قدمه ذات الخف المراكشى الأحمر ، إنها مثل خُطَى نوع لطيف من الإوز . كان الراعى ضابطاً عسكريًّا . وجهه نورانى حسن التصوير ، يصلح كثيرًا لغلاف مجلة دينية .

أعضاء التجمع الكاتدرائى يتبعونه تاركين مسافة صغيرة تفصلهم عنه . من هؤلاء اثنان فقط حظيا بوجهين نيرين ، كل الآخرين كانوا صارمين جُهْماً، إمَّا شاحبون جدًّا أو شديدو الحمرة ، وعلى وجوههم تعبير سخط غير محدد السبب .

كانت « الظُّلَّةُ » الباروكية كثيرة الأحزمة يحملها أربعة رجال يرتدون ثياباً سوداء شبه رسمية ، ويسير تحت الظلة أسقف الأبرشية حاملاً وعاء القربان المقدس . تتعذر على رؤية مركز التجمع ، بسبب سعته ، ولقد ركعت ورسمت إشارة الصليب وانتابنى إحساس خاطف بأنى منافق ، حتى تذكرت أن الله كان بريئاً ، وليس رياءً أن أركع أمامه . وكل الناس على الأرصفة تقريباً ركعوا إلاَّ واحدًا طويل القامة ، يرتدى جاكتاً من المخمل المضلع ، وقبعه ظل واقفاً لم يحرك قبعته أو يخرج يديه من جيبه . أفرحنى أنه لم يدخن . جاره أخيراً رجل أبيض الشعر ، همس له بشىء ، وبهزة كتف رفع قبعته وحملها بيده أمامه ، لكنه لم يركع .

فجأة شعرت بأنى حزين جدًّا . وتابعت عيناى حاملى أوعية القربان المقدس وهم يبدأون الحركة فى الشارع الشاسع . كان هنالك الركوع

والاستقامة ونفض السراويل من الأتربة ، كل ذلك يتحرك مثل موجة .
بعد حاملى أوعية القرابين جاءت مجموعة من عشرين رجلاً ثياب سوداء . كانت الثياب كلها نظيفة ، حسنة الخياطة ، إلا بالنسبة لرجلين ، فلم تكن ثيابها ملائمة لهما ، علمت لحظتها أنهما عاملان . لابد أن يكون أمرًا حرجاً أن يسيرا بين رجال آخرين ثيابهم ملائمة لأصحابها تماماً ، فهذا يعنى أن أولئك يرتدون ثيابهم الخاصة، واضح أن العاملين قد استعارا ثوبيهما السوداوين ، فمعروف جدًّا أن لراعى الأبرشية وعى اجتماعى عال وقد أصرّ على أن يكون بعض العمال بين حاملى الظُّلّة .

مرت مجموعة من الرهبان، كان منظرهم مؤثرًا ، رداؤهم الكهنوتى الأسود فوق صدرياتهم «الكريم» ، بقع الشعر المحلوقة بدقة تعلو رؤوسهم المحنية كل ذلك كان مؤثراً جدًّا ، ولم يكن على الرهبان طى أيديهم، فقد كان يمكنهم إخفاؤها فى أكمامهم الطويلة . . تحركت المجموعة إلى الأمام ، الرؤوس المحنية فى حالة استغراق ، صامتة تماماً ، ليسوا مسرعين جدًّا، ليسوا بطاءً ، هم يمشون وفق اتساق روحى ، الياقات العريضة ، الأرواب الطويلة ، والتناسق الجميل بين الأسود والأبيض ، كل ذلك أضفى عليهم شيئاً هو الشباب والنباهة معاً ، ولابد أن المشهد جعلنى أتمنى أن أكون واحدًا بين صفوفهم ، لكنى أعرف بعضهم وأعلم أنهم فى ثياب القسس ليسوا أفضل من الآخرين .

الأكاديميون يصل عددهم إلى المائة ، بدوا نابهين جدًّا ، بعضهم فى الأقل يبدون كذلك . بعض الوجوه تحمل سحنة النباهة ، كان أكثرهم فى ثياب سوداء ، لكن بعضهم كان يرتدى ثياباً اعتيادية ، رمادية غامقة .

أعقبهم قسس من مختلف أبرشيات المدينة ، إلى جانبهم مشاعل باروكية كبيرة ، ورأيت حينها كم من الصعب على قس مدنى امتلاك شكل جيد فى تلك الأردية الكهنوتية الباروكية ، بعض القسس لم يكونوا محظوظين جدًّا إلى إلى حد امتلاك مظهر نورانى ، بعضهم كان ثقيلاً ويبدو غليظاً تماماً .

ومعظم الناس فى الشارع بَدَوْا فاقدى العافية ، متضايقين ، بل مُحْرجِينَ.

أفراد من جموع الطلبة يرتدون قبعات ملونة بهيجة ، وأولئك الذين يسيرون فى الوسط ، كل واحد يحمل علماً ملوناً بهيجاً يرتخى إلى أسفل حريريًّا ثقيلاً . كانت هناك سبعة أو ثمانية تشكيلات من الطلبة ، كل واحد يتكون من ثلاثة صفوف ، والمجموعة كلها تبدو ملونة مفرحة ، ومن أجمل ما رأيت ، وجوه الطلبة تبدو ساكنة جدًّا ، وكلهم يحدقون أماماً لايطرف لهم جفن ، ينظرون إلى هدف بعيدجدًّا ، وفاتن جدًّا ، ولا يبدو أى منهم عارفاً أنهم يبدون بذلك مضحكين ، أحدهم يرتدى قبعة زرقاء وحمراء وخضراء ـ ينضح وجهه عرقاً ، وإن لم يكن الجو حارًّا ، لكنه لا يبدو مضحكاً كثيرًا قدر ما يبدو فاقدًا سعادته . أتصور أن هناك شيئاً ، قاعة شرف مثلاً ، وأنه سيُطرد منها بسبب مواصلته نضح ذلك العرق الغزير خلال المسيرة ، وأن هذا قد يعنى نهاية مسار حياته ، إنه فعلاً يعطى انطباعاً عن رجل خسر فرصته فى الحياة ، وكل الآخرين الذين لا ينضحون عرقاً ، يبدون كأنهم لن يعطوه بعدفرصة أخرى .

مرت مجموعة كبيرة من أطفال المدارس ينشدون بسرعة شديدة وبشىء من عدم الانتظام ، وإن غناءهم كان يشبه إنشاد مدفع ، فالكلمات التى ينشدها رؤساء المجموعة يرددها الآخرون عالياً وراءهم ، بعد ثلاث ثوان ،

بضعة معلمين شباب فى ثياب سوداء ، جديدة ورَجُلاً دينٍ كل واحدٍ منهما يرتدى مَدْرَعةً ذات نطاق ، كانوا يركضون فى محاولة لحفظ التزامن فى الإنشاد وهم يهزون أذرعهم محاولين تنظيم السرعة والإشارة إلى قواعد الهارمونى لأولئك البعيدين عنهم ، ولم يكن لكل ذلك جدوى . فجأة دار رأسى ، فلم أعد أرى الناس فى المسيرة ولا المراقبين . فالقطاع الذى أنا فيه قد انكمش كما لو أنه قد ضُغِطَ ، وخلال ضباب كان يتحول رماديًّا ، رأيتهما هما فقط ، طفلىَّ ، كليمنت وكلارا ، الولد شاحب جدًّا فى بدلته الزرقاء يحمل مقابل صرته الشارة الخضراء لعضو الكنيسة اللأول ، ويحمل شمعة . وجهه العزيز ، الوجه الطفولى الوديع ، كان شاحباً وابنتى ، التى تحمل لون شعرى الأسود ، واستدارة وجهى وتكوينها الرقيق ، كانت تبتسم قليلاً ، وإنْ كنت بعيدًا عنهما ، فقد رأيتهما بوضوح تام ، رأيت ذلك الجزء من حياتى ، مثل جزء من حياة رجل غريب مات ودفنت حياته معه . وفى طفلى وهما يسيران قدماً بهدوء حاملين شموعهما عبر حقل الرؤية الضيق المتاح لى - رأيت ما كنت أظن دائماً أنى أعرفه ، إننا فقراء .

كان يحملنى مد الجموع التى تتالت فى أعقاب الموكب ، والتى قررت حضور المراسم الأخيرة فى الكاتدرائية .

فكرت لحظة فى الإفلات إلى الجانب الآخر . لكنى كنتُ متعباً لا أتبين طريقى ، تركت نفسى يجرفها المدّ ببطء إلى الخارج ، كان الناس مقرفين ، أنفر منهم ، وقدر ما أتذكر كنت دائماً أضدّ عن العقاب الجسدى ويؤلمنى أن يُضْرَب إنسان أمامى ، وأمنع ذلك متى ما كانت لى القدرة على منعه ، حتى بين أسرى الحرب . سبب لى ذلك كثيرًا من المتاعب والمخاطر ، فما كنت أستطيع احتمال رؤية الأسرى يجلدون ، لكن لم أكن أستطيع فعل شىء

بإزاء ما أشمئز منه ، حتى إذا هممت أن أفعل شيئاً ، ولم أكن أستطيع احتمال بقائى صامتاً أراقب إنساناً يُضْرَب أو يُقسَى عليه . وكنت أتدخل ، لا لأنى أشعر بالرثاء له ، أو بالحب له فى الأقل ، ولكن ببساطة ، لأنى لا أحتمل ذلك ، لكنى خلال الأشهر الأخيرة صرت غالباً ما أحس برغبة لتوجيه ضربة لأحد ما فى وجهه ، حتى صرت أضرب أطفالى ، إذ تثيرنى ضوضاؤهم بعد عودتى متعباً من العمل . صرت أضربهم بقوة ، وأدرك أنهم يعانون الظلم من خلالى ، لكنى كنت أفقد السيطرة على نفسى .

دائماً ما تسيطر علىَّ رغبة مفاجئة فى ضرب أحدٍ ما فى وجهه : المرأة الناحلة التى تسير الآن إلى جانبى فى الزحام ، هى قريبة جدًّا منى ، حتى لأشم عطرها الحامض المبتذل . وجهها ملموم القسمات من كراهة ، وتنهر زوجها الذى يتقدمنا ، وإنه ليشبهها هيئة ، ضيق الكتفين ، يرتدى قبعة خضراء من لباد :

هَيَّا عَجِّلى ، التحقى بى ، سنتأخر عن اللقاء ! »

شققت طريقى بعيدًا إلى اليمين ، واستطعت أن أخلص نفسى من المجرى ، توقفت أمام واجهة مخزن ، وتركت مجرى الناس يجتازنى . تحسست النقود التى فى جيبى ، حسبت الأوراق النقدية وقطع النقود المعدنيةبدون أن أخرجها من جيبى ، وتأكدت من عدم فقدان شىء منها .

رغبت فى كوب من القهوة لكن تذكرت أن علىَّ أن أحرص على النقود .

فجأة خلا الشارع ، فلم أعد أرى الآن إلاَّ القذارة : الأزهار المسحوقة ، التراب المخلوط بالجص ، واللافتة المعلقة منحرفة بين أعمدةالترام . بالأسود والأبيض ، كتبوا عليها السطور الأول من الترنيمة :

الثناء عليك أيها الرب ،

أمنا المقدسة ، بارِكى نذورنا .

وبعض اللافتات تحمل رموزًا : حملان ، وكئوسًا ، سعفات نخيل ، قلوباً ومراسى سفن .

أشعلت سيجارة ومشيتُ باتجاه الطرف الشمالى للمدينة . من بعد كانت تصلنى أناشيد الموكب ، لا تزال تُسمع ، لكن بعد دقائق عَمَّ الهدوء ، فعلمت أن المواكب وصل إلى الكاتدرائية ، التى تخلو عادة صباح الأحد . وجدت نفسى بين مجموعة من المتعلمين الشباب الذين بدأوا يناقشون فيلماً . كانوا يرتدون معاطف مطريةوقبعات وقد شكوا مجموعة حول فتاة جميلة ذات بلوزة خضراء براقةوبنطلون قصير مما يرتديه الجنود الأمريكان :

« . . . عبارة مؤثرة . . . »

« . . . ولكن الوسيلة . . . »

« . . . كافكا . . . »

لم أستطع إبعاد طفلَىَّ عن ذهنى . فكأنى أراهما وعيناى مُطبقتان . طفلاِى ، الولد ذو الثلاث عشرة سنة ، والفتاة ذات الحادية عشرة . مخلوقان شاحبان ، مقدّر عليهما أن يمرا تحت طاحونة العذاب الكبير . إنهما يحبان الغناء ، لكنى كنت أمنعهما عنه فى البيت .

روحاهما العاليتان تجاوزتا قدرة أعصابى ، علت ضوضاؤهما فانهلتُ عليهما بالضرب ، أنا ، ذلك الشخص الذى ما كان قادرًا يوماً على احتمال مشهد عقوبة جسدية ، ضربتهما على وجهيهما ، على ظهريهما ، لأنى أردتهما هادِئَيْنِ ، أردت سلاماً وهدوءًا فى الأمسيات حين أعود من العمل .

صوت الإنشاد يعلو فى الكاتدرائية ، الريح تأتى إلىَّ بأمواج من الموسيقى الدينية ، وأنا أمشى مجتازاً محطة القطار . رأيت مجموعة رجال فى ثياب بيضٍ ينقلون اللافتات ذات الرموز الدينية من أعمدة الأعلام ، ويعلقون مكانها أخرى جديدة تقول :

« اتحاد الدوائيين الألمان ، زوروا المعرض ! » .

« نماذج كثيرة مجاناً »

« أين أكون بغير دوائىٍّ يهتم بأمرى ؟ » .

مبطئاً بدون انتباه توجهتُ إلى كنيسة أحزان مريم السبعة ، اجتزت الباب الرئيسى وبدون أن أرفع بصرى انتهيت إلى محل الأكلات الخفيفة ، حيث تناولت إفطارى . كأن خطواتى كانت محسوبة ذلك الصباح ، كأنَّ إيقاعاً سريًّا كان يتحكم فى عضلات ساقى ، أجبرنى على التوقف والنظر إلى أعلى، فإذا بى عنده ـ نظرت إلى اليمين خلال فتحة فى الستارة ، فرأيت الطبق وشرائح اللحم ، رأيت بوسترات السجاير الخضراء الكبيرة . وصلت إلى الباب ، فتحتها ، دخلت ، أنا فى الداخل تماماً ، وأدركت أنها غير موجودة هناك ، الأبلة غير موجود أيضاً . فى الزاوية ، جلس مصلح الترام ، يرشف حساده . وإلى المائدة المجاورة له ، جلس سيد وسيدة أمامهما علبتا شطائر ورقيتان وكوبان من القهوة ، ووراء المائدة كان المحارب القديم المعوق . نهض ونظر إلىَّ ، بدا أنه عرفنى : زاويتا فمه ترتعشان قليلاً . مصلح الترام والزوجان نظروا إلىَّ أيضًا . قال لى المحارب المعوق :

ـ « ما الذى أستطيع أن أقدمه لك ؟ » .

همهمت :

ـ « سجائر . خمس ـ العلبة الحمراء » .

وجهدت لأعثر على قطعة النقود فى جيبى ، وضعتها بعناية على المائدة الزجاجية . أخرج المحارب السجائر وناولنى إياها ، قلت :

ـ « شكراً » .

وانتظرت .

نظرت متريثاً حوالىَّ . لا يزالون يحدقون بى . . مصلح الترام يحمل ملعقته إلى وسط المسافة بين فمه والصحن ـ أستطيع رؤية قطرات الحساء الصفراء تتساقط من ملعقته . . الزوجان توقفا عن مضغ الأكل ، الزوج وفمه مفتوح ، والزوجة وفمها مطبق ، ثم نظرت إلى المحارب ، كان يبتسم ، ومن تحت بشرة وجهه الداكنة غير الحليقة استحضرت وجهها .

كانت الغرفة هادئة جدًّا ، وفى الصمت سألنى :

« هل تبحث عن أحد ؟ »

هززت رأسى ، التفت باتجاه الباب ، تريثت لحظة وأحسست بعيون الآخرين على ظهرى قبل أن أغادر . كلن الشارع لا يزال خالياً حين خطوت خارجاً إليه .

جاء مخمورًا يترنح آتياً من النفق المظلم المؤدى إلى ما وراء محطة القطار. كانت مشيته المتمايلة الخرقاء فى اتجاهى ، وحين اقترب رأيت علم الدوائيين الصغير على طية سترته . تهاوى أمامى ، قطع زر سترتى وقاء البيرة الحامضة فى وجهى ، تمتم :

ـ « أين أكون من غير دوائى يهتم بأمرى ؟ » .

أجبته بلطف :

ـ « لا مكان لى بدون دوائى ، أنا بلا مكان » .

فقال باحتقار :

ـ « هكذا أنت إذن . فاغرب عن وجهى »

ومضى يترنح .

مشيت متئدًا فى النفق ، كان كل شىء خارجَ المحطة هادئًا . الأرج المر ـ الحلو لحبات الكوكا الأرضية ، ورائحة الكرامل تنتشر فى جو المنطقة كلها ، مصنع شكولاتة كبير يحتل ثلاثة قطاعات من المدينة ويعطى لهذا القسم من المدينة منظرًا كئيباً لا علاقة له بمنتجاته الشهية ، هنا يعيش الفقراء ، الفنادق القليلة فى هذه المنطقة رخيصة ، ومكتب السياحة يتجنب إرسال الزوار إلى هذه المنطقة لكى لا تثيرهم شدة فقرها ، الشوارع الضيقة ممتلئة بروائح طبخ قطع « الروست » الكبيرة . أطفال يقفون وفى أفواههم مصاصاتهم ، وكنت ألمح من خلال النوافذ رجالاً مطويى الأكمام يلعبون الورق ، وعلى حائط مبنى مهدم مسودٌ من نار ، رأيت علامة سوداء كبيرة تمثل يدًا سوداء تشير ، وتحت اليد السوداء كانت هذه الكلمات :

البـــيت الهـــولندى

غرف ، طبخ منزلى ، رقص أيام الأحد .

تابعت اتجاه اليد السوداء ، وجدت يدًا سوداء أخرى فى زاوية اللوحة :

ب ، هـ ، عبر الشارع

وحين رفعت بصرى ونظرت إلى المبنى المقابل ، إلى الطابق الأحمر الملطخ

بدخان مصنع الشكولاتة الأسود، عرفت أن الدوائيين لم يتغلغلوا إلى هذا الطرف من المدينة .

يدهشني بدون شك ما يسيطر عليَّ من شعور كلما سمعت صوت فريد في الهاتف : صوته خشن ، مجهد إلى حد ما ، وله تأثير يجعله مثل صوت غريب يقصد إثارتي ، هكذا سمعته يتكلم خلال الحرب ـ من أوديسا ، من سيباستبول ، من حانات لا عدد لها حين اعتاد السكر . وكم خفق قلبي وأنا أرفع سماعة الهاتف وأسمعه عبر الخط يضغط على زر « الدفع » وتسقط قطع النقود ليكمل الاتصال ، همهمة التبادل الصامت ، مثلما يتكلم : سعاله ، الرقة التي في صوته كلها تتسرب إليَّ من الهاتف .

حين انحدرت إلى الطابق الأسفل كانت صاحبة النُّزلِ جالسة في الزاوية المعتادة من أريكتها ، مُحاطَة بالأثاث الرث ، كان مكتبها مغطى بكارتونات الصابون ، وبصناديق موانع الحمل ، وصناديق خشب صغيرة تحفظ فيها مواد تجميل غالية الأثمان . كانت الغرفة مفعمة برائحة شعر النساء الذي اكتوى من حرارة أجهزةالتصفيف ، تتسرب من « الخانات » المنفردة في واجهة الغرفة العليا ، ورائحة فظيعة حادة ، لكل ذلك الشعر المحروق يوم السبت . كانت السيدة « ردود » شعثاء ، غير ممشطة الشعر ، أمامها رواية استعارتها من مكتبة ، مفتوحة لا تقرأ فيها طالما هي مشغولة بمراقبتي وقد رفعت سماعة الهاتف إلى أذني ، بعدها ، ودون أن تنظر إلى طريقها وصلتْ إلى الزاوية خلف الأريكة ، تناولت قنينة الشنابز وملأت قدحها دون أن تبعد عينيها المتعبتين عني .

قلت : « هلو ، فريد » .

قال : « كيت ، حصلت على غرفة وبعض النقود ، متى تأتين ؟ » .

ـ « فى الخامسة ، أريدأن أصنع كيكة للأطفال . هل سنذهب للرقص؟» .

ـ « بالتأكيد، إذا رغبت فيه ، هنالك حفلة رقص فى الفندق » .

ـ « فى البيت الهولندى »

ـ « أين ذلك ؟» .

ـ « شمال المحطة ـ تسيرين فى شارع المحطة ، ثم تنعطفين وسترين علامةً ، يدًا سوداء تشير . اتبعى الإصبع المؤشر . . كيف الأولاد ؟ »

ـ « بخير » .

« اشتريت لهم بعض الشكولاتة ، وسنشترى لهم بعض البالونات ، وأود أن أصرف شيئاً لينالوا شيئاًمن الآيس كريم أيضاً ، سأعطيك شيئاً من النقود لهم ، أخبريهم أننى آسف على ضربى لهم . كنت مخطئاً » .

« لا أقدر أن أقول لهم ذلك ، يا فريد » .

ـ « لِمَ لا ؟ »

ـ « لأنهم سيبكون » .

ـ « فليبكوا ، يجب أن يعرفوا بأنى آسف ، ذلك شىء مهم جدًّا بالنسبة لى ، أرجوك لا تنسى » .

لم أعرف حينها بماذا أجيبه . لاحظتُ صاحبة النُّزلِ تملأ قدحها الثانى وعلى وجهها ملامح الخبيرة ، ترفع الكأس إلى شفتيها ، تترك الشنابز يتدحرج ببطء على لسانها ، ورأيت تعبير امتعاض بسيط فى وجهها حينما يجتاز الشنابز بلعومها .

قال فريد : « كيت ؟ » .

ـ « نعم ؟ »

ـ « أخبرى الأولاد بكل شىء ،رجاءً لا تنسى ،وأخبريهم عن الشكولاتة، والبالونات ، والآيس كريم .

عدينى بذلك .

قلت : « لا أستطيع ، هم اليوم سعداء جدًّا ، فقد سُمِحَ لهم بأن يستعرضون فى الموكب . لا أريد أن أذكرهم بالضرب ، سأخبرهم فيما بعد، فى وقت ما نتحدث فيه عنك . »

ـ « هل تتكلمون عنى ؟ » .

ـ « نعم ، هم يسألوننى أين أنت ، وأقول لهم إنك مريض » .

ـ « مريض ؟ » .

ـ « نعم أنت مريض » .

ظل صامتاً ، واستطعتُ أن أسمع نَفَسَه فى سماعة الهاتف .

قامت صاحبة النُّزل وهزت رأسها بعزم .

« قد تكونين محقة ، قد أكون مريضاً فعلاً . إذن ، أراك فى الخامسة . الإشارة باليد السوداء فى منعطف شارع المحطة . لدىَّ ما يكفى من النقود ، وسنذهب للرقص . . وداعاً يا حبيبتى » .

ـ « وداعاً » .

وببطء أنزلت سماعة الهاتف إلى مكانها ، ورأيت صاحبة المنزل تضع قدحاً آخر على المنضدة، وتقول لى :

ـ « تعالى يا فتاتى ، تناولى شراباً » .

تسنَّى لى أشعر بالجرأة ، أفضيتُ لها بشكواى من أحوال غرفتنا ، لكنها كانت كلما شكوتَ تصدّنى ، تسكب لى شراباً وتترك لحكمة عينيها المتعبتين أن تؤثرا فىَّ ، أكثر من ذلك ، هى تعرف كيف تقنعنى بأن إصلاح الغرفة يكلف أكثر من إيجار ثلاث سنوات لها . إنها هى التى علمتنى شرب الشنابز. أولاً وجدت البراندى موجعاً ، وطلبت الليكور .

قالت : « ليكور ؟ مَنْ على الأرض يشرب ليكور ؟ »

من ذلك الوقت عرفت أنها على حق : فهذا النوع من البراندى جيد .

« هَلُمِّى ، الآن ، أيتها الفتاة ، اشربى » .

جلست قبالتها ، نظرتْ إلىَّ بتحدٍ لسكّير ، واجتازت نظرتى أنا كل وجهها لتقع على صناديق كارتون ممزقة عليها هذه الكلمات :

« بضاعة . . انظر إلى علامةالصقر التجارية »

قالت : « هذه لك » .

ورفعت قدحى ، قلت :

« أنت أيضاً . . »

وتركتُ البراندى اللاذع يجرى فىَّ ، وفى تلك اللحظة فهمت ، فهمت الرجال السكيّرين ، فهمت فريدًا ، وكل الآخرين الذين يدمنون الشرب .

وهى تملأ قدحاً آخر بسرعة ، فاجأتنى :

ـ « أيتها الطفلة المسكينة ، لا تأتى إلى هذا المكان ثانية لتبثى الشكوى .

فلا علاج للفقر . ابعثى الأولاد إلىَّ هذا اليوم ، يمكنهم أن يلعبوا هنا . هل أنت ذاهبة ؟ » .

قلت : « نعم أنا ذاهبة ، لكنى طلبت من رجل شاب أن يظل مع الأطفال » .

ـ « طول الليل ؟ » .

ـ « نعم ، طول الليل » . ألمٌ واهن تصاعد إلى وجهها ، فاتسع مثل إسفنجة صفراء ، لدقيقة ، والتمَّ مرة أخرى :

« أوه ، فهمت ، خذى لهم إذن بعض الصناديق الفارغة » .

قلت : « شكراً » .

كان زوجها سمسار أملاك ، ترك ثلاث بنايات ومحلَّ تجميل شعر ، ومجموعة صناديق ملأى :

ـ « يمكنك أَخْذُ صندوق آخر » .

ـ « أوه ، لا ، شكرًا » .

ما إن لامست يداها الراعشتان القنينة حتى تشبثت بها ، ثم امتلأت حركاتها برقة أخافتنى ، أعادت ملء قدحى ، قلت :

ـ « أرجوك ، لا أريد مزيدًا » .

قالت : « أذن سأشربه أنا » .

ونظرت إلىَّ بحدة مضيقةً عينيها ، وسألتنى :

«أحبلى أنتِ يا صغيرتى ؟ »

فزعت ، فأنا أحياناً أفكر بأنى حامل فعلاً ، لكننى غير متأكدة حتى الآن . وهززت رأسى .

« مسكينة أيتها الطفلة ، سيكون ذلك مزعجاً لك ، طفل آخر . . » .

قلت بدون تأكد : « لست أدرى » .

« يجب أن تغيرى لون صبغ شفتيك » .

وأعطتنى قلم حمرة آخر ذا لون حاد ، نهضت يتموج جسدها الثقيل داخل رداء ملون ، شقت طريقها بين كرسى وأريكة ومكتبة :

« تَعالى معى » .

تبعتها فى المخزن : رائحة الشعر الذى ألحَّ عليه الكيُّو« السبرى » المعطر يَعْلَقُ فى الجو ثقيلاً مثل سحابة وفى الغرفة مسدلة الستائر ، نصف المضاءة، استطعت أن أرى ماكينات تجعيد الشعر بارزة ، والمجفّفات ، لنيكلها لمعٌ واهن فى الضوء الرصاصى لعصر يوم الأحد .

« تعالى ، أدخلى ! »

وراحت تبحث فى درج مملوء بَلفائف شعرٍ ، تتناثر حواليها أقلام حمرة وعلب تجميل ملونة .

التقطتْ قلمَ حمرة وناولتنى إياه قائلة :

ـ « جرِّبى هذا » .

أدرت الغطاء المعدنى لذلك القلم ، فرأيت الأحمر الغامق ، وقد برز ملتفاً مثل دودة صلبة ، سألتها :

ـ « الغامق ؟ » .

ـ « نعم هذا الغامق ، هيَّا ضعى بعضاً منه .

المرايا هنا مختلفة تماماً ، تمنعك من رؤية ما فى الخلف ، هى تحمل وجهك إلى أمام تماماً وقريباً من وجه المرآة ، تجعله أكثر جمالاً مما هو عليه ـ فتحتَ شفتىَّ ، انحنيت إلى أمام ، وبعناية أمررت عليهما الأحمر الغامق ، لكن عينىَّ ما اعتادتا مثل هذى المرايا ، كانت عيناى تتسعان ، ونظرتى المحدّقة تحاول الانزلاق عابرة وجهى . لكنى نظرى فى هذه المرآة يغادر سطح المرآة إلى الأبد ، يرتد إلى نفسى ووجهى ، شعرت بدوار ، وارتعشت قليلاً ، إذ أحسست بيد صاحبة المحل على كتفى ورأيت وجهها المخمور وشعرها الأشعث ورائى ، فى المرآة همست لى :

« اجعلى نفسك حلوة لحبيبك ، يا حمامتى الصغيرة ، اجعلى نفسك حلوة له، لكن لا تدعيه يحبلك ، ذلك هو الشىء الصحيح يا صغيرتى ، أليس كذلك ؟ ، ذلك هو المَنّجى » .

خطوت إلى وراء مبتعدة من المرآة ، وأَدَرْتُ قلم الحمرة لأدخله فى أنبوبته، وقلت :

ـ « نعم ذلك هو الشىء الصحيح . لكنى لا أملك أية نقود لهذا القلم؟» .

ـ « أوه لا تبالى ، يمكن الانتظار ـ يمكنك الدفع فيما بعد » .

ـ « نعم فيما بعد » .

أجبتها ومازلت أنظر فى المرآة ، أنزلق فيها كما أنزلق فوق جليد ؛ غطيت عينىَّ بيدىَّ ، وأخيرًا خطوت إلى وراء ، وضَعَتْ بعض صناديق الكارتون

الفارغة على ذراعى الممدودة ، وضَعَتْ قلم الحمرة فى جيب صدريتى وفتحت لى الباب .

قلت لها : « شكرًا ، مع السلامة » .

قالت : « مع السلامة » .

لا أفهم كيف يثور فريد بسبب ضجيج الأولاد ؟ إنهم هادئون ، خاصة ، حين أقف بجوار الأريكة أو المنضدة ، أنصت لهم ، أجدهم ساكتين غالباً ، حتى أنهم ألتفت فجأة لأتاكد من أنهم لا يزالون هناك ، هم يبنون دورًا من صناديق الكارتون ، يتهامسون معاً ، وحين التفت يفزعهم الخوف فى عينى ويدفعهم للسؤال :

« ما الأمر يا أمنا ؟ ما الأمر ؟ » .

فأجيبهم : « لا شىء ، لا شىء » .

وأستدير عنهم لأدحرج عجينتى ، أخشى من تركهم وحدهم بعد ذلك ، اعتدت أن أتركهم وحدهم عصرًا فقط ، مع فريد مرة واحدة قبل كل ليل .

الرضيع نائم ، وأريد أن أغادر قبل أن يستقيظ .

فى الغرفة المجاورة أنين مرعب ، المغازلات والضربات المخيفة التى تصحب مضاجعتهم ، هدأت الآن . إنهما نائمان نومة قبل الذهاب إلى السينما ، بدأت أننا يجب أن نشترى مذياعاً ، لأدفع بصوته هذا الأنين الذى يصدر عنها الآن ، صيحات الكلام العالية غير الاعتيادية التى بدأت حال بدأ ذلك الفعل الشنيع ، هى التى ملأتنى بالقرف ـ بالرعب ، بالرعب وحده ـ تلك الأحاديث غير الاعتيادية شقت طريقها إلى الخارج وتلاشت

فيه . أسأل نفسى إنْ كان الأولاد لم يبدأوا بعد فى فهم ما يجرى . على أية حال كانوا يسمعون ذلك ، وملامح تشبه تلك الحيوانات المرتجفة التى تتحسس الموت . سأحاول ارسالهم إلى الشارع إن أمكن ذلك . لكن أوقات العصر المبكرة فى أيام الأحد مثقلة عادة بالكآبة التى تكسف حتى الأطفال .
وجنتاى بدأتا تتقدان حين سماعى ذلك الشؤم وبدأ الصمت الممتد من حولى يتشقق ، حاولت أن أغنى حين سماعى ذلك الشؤم ، وبدأ الصمت الممتد من حولى يتشقق، حاولت أن أغنى حين بدأت الأصوات الأولى ، لكن ابتدأ التعذيب واستمرت الضربات المتقطعة على السرير ، وأصوات المضجع، والصرخات التى تشبه تلك التى يطلقها لاعبو الأكروبات وهم يتأرجحون تحت القبّة الكبيرة ويغيرون أراجيحهم وسط الهواء . لكن صوتى تشقّق ، وبحثت سُدًى عن نغمات بقيت فى رأسى ، فما استعدت واحدةً منها . مرت لحظات ، لحظات لا نهاية لها ، فى الكآبة الرصاصية لما بعد ظهر الأحد . سمعتهما يشعلان سيجارتين ، وامتلأ الصمت الذى أعقب ذلك بالاشمئزاز . ألقيت العجينة التى كانت فى يدى على المنضدة ، دحرجتها إلى وراء وإلى أمام ، مُحْدِثَةً قَدْر ما أستطيع من ضوضاء ، ألقيت العجينة ثانية ورحت أفكر بملايين من أجيال الفقراء الذين عاشوا دون أن يمتلكوا حتى غرفة يتضاجعون فيها ـ ودحرجت العجينة ، طويت حافاتها ، وضغطت الفاكهة فى العجين .

كانت الغرفة مظلمة فى آخر الممر الطويل نظرت إلى النافذة ، وقعت عيناى على حجارة الحائط الداكنة ، حمراء ، مزينة بتصميم بُنّىٍّ غامق كان فى الأصل أصفر ومن طابق مرصوف بصياغة ـ المفتاح الإغريقى . أنظرُ متجاوزة الحائط الذى يحجب حقل رؤيتى ، فتقع عيناى على رصيفى

المحطة الفارغين الآن . كانت هناك امرأة تجلس على مصطبة وتحمل طفلاً ، والفتاة ـ من الكشك لطيف الشراب ـ وقفت خارج الباب تتململ بمئزرتها البيضاء ، تحركها أعلى وأسفل فخذيها . كانت الكاتدرائية وراء المحطة ، والأعلام مثبّتة عليها . أحسست بالإحباط من مشهد الناس المزدحمين حول المذبح الذى يلى المحطة الخالية أخجلنى صمتُ الزحام خارج الكاتدرائية . ثم رأيت راعى الأبرشية فى ردائه الأحمر يقف قرب المذبح ، وفى اللحظة نفسها سمعت صوته ينطلق واضحاً وعالياً من مكبرات الصوت عبر المحطة الخالية .

غالباً ماكنت أسمع راعى الأبرشية ، وتثقل روحى تراتيله ـ أنا لا أعرف ما هو أسوأ من غرفة النوم ، لكن الآن بعد سماع صوت راعى الأبرشية يأتى عبر مكبرات الصوت ، وقعت على الصفة التى كنت أبحث عنها طيل هذا الوقت . لقد عرفت الآن أنها صفة بسيطة ، وأنها كانت على طرف لسانى ودائماً ما تنزلق عنه . إن الراعى يستخدم فى لهجته تلك الظلال التى تجعل صوته شعبيًّا ، وإن لم يكن راعى الأبرشية شعبيًّا . مفردات تراتيله مستمدّة دائماً من قوائم كلمات الافتتاح فى الكتب الدينية ، تلك التى افتقدت حيويتها خلال الأربعين سنة الماضية ، كلمات صارت كليشهات ، أنصاف حقائق . الحقيقة لاتُضجر ، لكنى راعى الأبرشية له القدرة على جعلها مضجرة .

« فليكن السيد ، إلهنا فى حياتنا اليومية ـ نشيد له برجاً فى قلوبنا ... و» .

أصغيت دقائق لهذا الصوت الذى يأتى عبر بالرصيف الخالى ، وأنا أرى فى الوقت نفسه ذلك الشكل ذا الرداء الأحمر يقف هناك إلى جانب مكبر الصوت الذى يتكلم بصوت تتضخم اللهجة فيه لأقصى اختلافها ، وفجأة

جاءتنى الكلمة ، الكلمة التى بقيت طويلاً أبحث عنها ، وهى بسيطة جدًّا، إلى حَدٍّ أنها لا تخطر لى على بال ، تلك هى : إن الرعى كان «غبيًّا» .
عاد بصرى إلى ما فوق المحطة ، حيث لا تزال الفتاة تتململ من صدريتها البيضاء والمرأة على المصطبة تطعم رضيعها من القنينة . جالت نظرتى على صياغة المفتاح الإغريقى ذى اللون البنىِّ الغامق فوق حجارة الحائط ، واجتازت إطار النافذة الكابية ، عائدة إلى غرفتى . أغلقت بعدها النافذة من فوق السرير وبدأت أدخن .

لم أعد الآن أسمع شيئاً . لا صوت بعد فى المبنى ، جدران غرفتى مغطاة بورق مظلل بالأحمر ، لكن الرسوم الخضر التى تشبه أشكال القلوب قد تلاشت ، فهى الآن تغطى ورق الحائط مثل خربشات بقلم الرصاص ممحوة، وانتظامات غير متوقعة ، والثابتة الخفيفة من أشياء الغرفة بشعة ، مثل كل الثوابت : قدح بشكل بيضة مملوء بتعرقّات رخامية ، فيه مصباح قوة خمسة عشر وَاطًا . وخزانة الملابس الضيقة لَوَّنَها الصَّدَأ . واضح أنها لم تُستعمل ، ولاهى معرضة لذلك . الناس الذين يشغلون هذه الغرفة ليسوا من النوع الذين يفتحون حقائبهم ، إن كانت لهم أية حقائب ، هكذا الأمر. ليس من جاكيتات يعلقونها على مشاجب الملابس ، ولا قمصان ترصف بعيدًا ، والمشجبان اللذان أراهما فى الخزانة المفتوحة كانا ضعيفين ، وزنُ سترتى كاف لكسرهما ، فهنا يمكن أن تعلق سترتك على كرسى ، ترمى سروالك عليه دون اهتمام بطيّه ، هذا إذا ما خلعته أصلاً ـ وانظر إلى أدنى : هذه الأنثى شاحبة ، وربما محمرةّ الخدين ، ثيابها مرمية على الكرسى الآخر. الخزانة لا ضرورة لها ، فوجودها رمزى ، مثل المشاجب التى لم يستعملها أحد . المغسلة ليست أكثر من منضدة مطبخ اعتيادية يغطسُ فيها حوض

غسيل ، وإن كان حوض الغسيل هذا لم يغطس . كان مطليًا ، وفى أماكن منه كسور . صحن الصابون من الصينى الرخيص عليه إعلان عن مصنع إسفنج .

لابد أن قدح فرش الأسنان قد انكسر ، وما استُبْدِل بغيره . ليس من واحد على أية حال . ولابد من أحد قد شعر بضرورة توفير صور للجدران ، وهل أكثر ملائمة من صور مطبوعة للموناليزا ، والتى بدت كما لو كانت يوماً ملحقاً فى مجلة شعبية .

الأَسِرَّةُ جديدة لا تزال تضوع برائحة الخشب الجديد، وهى خفيضة قاتمة اللون . شرشف الفراش القطنى لم يُرِحْنى . نمت طيلة الوقت الذى مَرَّ بكامل ثيابى ، أنتظر زوجتى التى قد تجلب معها شرشفنا الخاص . كانت البطانيات من صوف ، ذات لون أخضر مزرق ، مستهلكة لحد ما ، والرسوم التى عليها ـ وهى دببة تلعب كرة ـ قد تحوّلت بشرًا يلعبون كرة ، لا تُمَيّزُ بعدُ وجوه الدببة هى تشبه الآن كاريكاتيرًا لرياضيين برقاب ثيران ، تقذف فقاعات صابون إلى وراء وإلى أمام . دَقَّ الجرسُ : الثانية عشرة .

نهضتُ لآتى بصحن الصابونة من المغسلة ، وبدأت أدخّن . بدا مزعجاً أنى لا أستَطيع الكلام عن حالى لأحد ، لا أستطيع شرح الموقف الحقيقى لأحد ، لكننى محتاج للنقود . محتاج للغرفة لأنام مع زوجتى فحسب . نحن نعيش فى مدينة واحدة ، لكننا منذ شهرين نلتقى لقاءات متقطعة فى غرف الفنادق . أحيانا ، حين يكون الجو دافئاً نلتقى فى الحدائق ، فى ممرات البنايات المدمرة ، فى قلب المدينة ، وحيثما نكون آمنين لا يكتشفنا أحد . شقتنا جد صغيرة ، هذا كل ما فى الأمر . إضافة إلى ذلك ، الحائط الذى

يفصلنا عن جيراننا خفيف جدًّا . وشقة أوسع تقتضى مالاً ، تحتاج إلى ما يُعرف بالعزم ، ونحن لا نملك عزماً ولا مالاً.

حتى زوجتى ليست لها طاقة على شىء .

آخر مرة نمنا معاً كانت فى حديقة عامَّة فى الضواحى ، كان ذلك مساء وكانت تصل إلى أنوفنا من الحقول رائحة جزّ الكرّات ، وعلى الأفق تقذف المداخن كتلاً من دخانٍ فى السماء المحمرّة . هبطت الظلمة علينا سريعاً ، وصارت السماء الحمراء قرمزية ، ثم سوداء ولم نعد نرى ضربات الفرشاة الجريئة للمداخن نافثات السواد ـ شذى الكرات صار أقوى ، صار ممتزجاً بحدّة البصل . بعيدًا وراء تجويف رملى ، تتقد أضواء ، وقريباً ، فى الطريق إلينا ، رجل على دراجة : شعاع ضوءه يرتعش على طول الطريق كثير المطبّات يقطع الضوء مثلثاً مظلماً فى السماء مفتوحاً من جهته اليسرى . كان هنالك صرير ليراعٍ سائبةٍ .

ضربات واقية الطين تتلاشى بعيدًا بإيقاع يكاد يكون منتظماً. لو بقيت أنظر لرأيت ، بعيدًا فى الممر ، جدارًا أكثر عتمة من ظلمة السماء . ومن وراء الجدار تأتى وقوقات إوز، وصوت امرأة متعب تدعوهن لإطعامهن .

كل ما كنت أراه من كيت على الأرض المعتمة وجهها الأبيض والارتعاش الأزرق الغريب لعينيها حين تفتحهما . كان ذراعاها أبيضين أيضاً وعاريين . بكت بمرارة ، وحين قبلتها ذقت طعم دموعها . شعرت حينها بدوار ، كانت قبة السماء تميد بى قليلاً إلى الأمام وإلى الوراء . وراحت كيت تبكى بمرارة أكثر ، لم أشهدها كذلك من قبل .

نفضنا الأوساخ عن ثيابنا ، وعلى مهل سرنا إلى موقف الرقم (٩) . ومن

بُعْدٍ سمعنا الترام يستدير على العقدة الكهربائية ، رأينا الشرارات تنطلق من السلك فوقها .

قالت : « بدأَتْ تبرد ؟ » .

قلت : « نعم » .

« أين ستنام الليلة ؟ » .

« فى المجّمعات السكنية » .

وانحدرنا فى زقاق دمرته المعارك يوصلنا إلى الترام .

جلسنا فى حانة . طَلَبَ كُلٌّ مِنَّا شيئاً من البراندى ، وضعنا قطعة نقد فى « مكنة ـ البنبول » ، ولاحظنا كرات صغيرة تتهاوى فى الحوض الخشبى ، ونأخذها واحدة بعد أخرى . إنها تتدحرج حول النوابض الحديدية لترتطم بموصلات معدنية ، فتصدر أزيزاً زجاجيًّا ناعما . كيت وصاحبة الحانة كانتا تراقباننى ، وحين مضيت فى اللعب ، ويدى على شعر كيت ، شبكت صاحبة الحانة ذراعيها وأضاءت وجهها الثقيل ابتسامة ارتياح .

مضيت فى اللعب ، وكيت تتابعنى ، دخل رجل فى الحانة ، انزلق إلى مقعد من مقاعد البار ، وضع محفظته على مقعد وراءه ، وطلب شنابز . كان وجه الرجل ملطَّخاً ، ويداه بُنِّيتين ، والضوء الأزرق فى عينيه بدا أخف مما هو عليه . نظر إلى يدى التى ما زالت على شعر كيت ، ثم إلَىَّ ، وطلب كأسَ شنابز آخر . بعد ذلك بقليل وقف إلى جانبى وراح يلعب بالمكنة الأخرى ، والتى بدت بدائية جدًّا تشبه مكنة محاسب : كرة . شق ، سطح معزول بلون محمرٍّ يظهر ثلاثة أعداد كبيرة فى صف احد . وضع الرجل قطعة

نقد ، سحب العتلة ، ارتجّت الكرات فى الأعلى وضجّت ـ ثم ، وفى فترات ـ جاءت ثلاث قرقعات وظهرت الأرقام ٦ , ٤ , ١ على ذلك السطح .

قال الرجل : « لا شىء » .

وأسقط قطعة نقد أخرى ، تسارعت الأقراص ، ضربت ومرت ، ضرَبتْ ضربات أخرى ـ لحظة صمت ، وفجأة جاءت قطع النقود تتصادم خارجة من فوهة المكنة . قال الرجل :

ـ « أربعة » .

وابتسم إلىَّ وقال :

ـ « هذا أفضل » .

نظرتُ إلى كيت ، أخذتها ويدى فى شعرها ، فقالت :

ـ « يجب أن أذهب » .

فى الخارج كان الترام يستدير حول المنحنى ، يصرُّ حول عقدة الأسلاك ، فدفعت ثمن كأسى البراندى وأخذت كيت إلى موقف الحافلة . قبلتها ، وقد دخلت ، ووقعت هى يدها على خدى ، ولوّحت لى بيدها حتى لم أعد أراها .

حين عدتُ إلى الحانة كان الرجل ذو الوجه الأسود لا يزال واقفاً إلى جانب العتلة . طلبت براندى وأشعِلت سيجارة ، ورحت أراقبه . فكرت : بإمكانى تمييز الإيقاع حين تبدأ الأقراص تدور ، شعرت بالقلق حين جاء صوت التوقّف قبل أوانه ، حسب تقديرى ، واستطعت أن أسمع الرجل يربرب :

« لا شىء ـ لا شىء ـ اثنان ـ لاشىء ـ لاشىء » .

لم يكن وجه صاحبة الحانة مبتسماً حتى خرج الرجل من الحانة لا عناً ، فتغيرتْ بعده . وبدأت أسحب العتلة . لا أنسى أبدًا لحظة ضغطت العتلة إلى أسفل لأول مرة ، فدارت الأقراص بسرعة بدت خيالية ـ وكيف كانت ثلاث قرقعات فى فترات مختلفة ، أصغيت بعدها لضجيج تساقط النقود :

لم يخرج شىء ! .

بقيت هناك نصف ساعة تقريباً أشرب شنابز ، وأحرّك العتلة ، أصغى إلى الدوران الجنونى للأقراص والقرقعة اليابسة . وحين غادرت الحانة لم أكن أملك فلساً فى جيبى . فكان علىَّ أن أقطع كل الطريق مشياً إلى شارع «أختر» حيث المجمّعات السكنية ، ثلاثة أرباع الساعة أقطعها الأقدام تقريباً .

منذ ذلك الوقت صرتُ أقصد الحانات التى أجد فيها ذاك النوع من المكنات ، أصغى إلى إيقاع الأقراص الساحر ، أنتظر القرقعات ، وأتلقّى صدمة كلما توقفت الأقراص ولم يخرج شىء .

إيقاع لقاءاتنا هو الذى لم نكتشفه بعد . المفاجآت تتحكم فى درجته . يمكن أن يحدث لقاؤنا فى المساء ، قبل أن أبدأ البحث عن مكانٍ أقضى فيه الليل ، غالباً ما أذهب إلى بنايتنا وأدعو كيت لتنزل لى ـ أقرع الجرس فى الممر المؤدى إلى الشقّة بحيث لا يعرف الأولاد أنى قريب منهم . الشىء الغريب أنهم بدأوا يحبوننى و يفتقدوننى ، و يتحدثون عنى ، بالرغم من أنى كنت أُصْدَمُ بذلك المظهر الغريب الذى يلوح على وجهى إذا ما ألقيتُ نظرةً على

نفسى فى المرآة : شعر غير حليق ووجه شاحب ، سابح فى العرق . يداى تغطيا أذنى لكى لا أسمع صراخ الولد الذى انهلتُ عليه ضرباً لأنه كان يغنى . .

مرة اكتشفتنى كارلا وكليمنز ، عصر يوم سبت ، وقد كنت أنتظر كيت فى الأسفل ، فى مدخل البناية . فزعتُ لرؤية وجهيهما يتوقدان عند رؤيتى . اندفعا إلىَّ ، تعَلَّقَا بى ، تساءلا إنْ كنتُ على مايرام ، وصعدت معهما إلى أعلى . ولكن ما إنْ دخلت غرفتنا حتى تسلّط علىَّ الرعب مرة أخرى ـ رائحة الفقر المفزعة ـ حتى ابتسامة رضيعنا ، الذى بدا يعرفنى ، وسرور زوجتى : ما كان لأى منهما قوة على إزاحة الهياج الكريه الذى تصاعد فىَّ حالما بدأ الأطفال يرقصون ويغنون . غادرتهم قبل أن يفلت منى ما لا أستطيع ردَّه .

لكن غالباً ، ومتى ما كنت جالساً فى البار تلوح أوجههم حلوة بين أقداح البيرة والقنانى التى أمامى ، كما لم تفارقنى حتى الآن صُوَرهم هذا الصباح وهم فى المسيرة . .

قفزت من السرير عند بدء إشارات ترتيلة الختام خارج الكاتدرائية . فتحت النافذة ورأيت الشكل الأحمر لراعى الأبرشية يمشى خلال الجموع .

فى النافذة أدنى منى ، رأيتُ شعرًا أسود لامرأة على ثوبها بعض قشور ، بدا رأسها وكأنه كان نائماً على النافذة . التفتت إلىَّ فجأة ، فكان وجه صاحبة البيت ، فكان الوجه الزيتى النحيف ، نادت :

« إذا أردت أن تأكل فالأفضل أن تعجّل » .

وأنا أنزل السلم ، بدأت مدفعية شركة معاجين الأسنان بإطلاق قذائفها على السَّدِّ مرة أخرى .

نضجت « الكيكة» جيدًا ، وأنا أُخرجها من الفرن فاحت رائحة النضج الحلوة فى الغرفة . كان الأطفال كلهم مبتسمين . أرسلت « كليمنز » لجلب بعض « الكريم » ملأت أنبوبة منه ، لأُسرَّ الأطفالَ ، ورحت أرسمُ عليها خصلاً ودوائر . الرسوم ارتفعت قليلاً فوق وجه الكيكة الأرجوانى المزرق رأيتهم يلتقطون بقايا الكريم من الإناء ، وكنت مسرورة لرؤية كليمنز وهو يتهيب أن يلتقط . . وحين ظل منه ملء ملقعة أعطاء للرضيع الذى جلس فى مقعدة العالى يبتسم لى وأنا أغسل يدى وأضع على شفتى حمرةً جديدة .

ـ « هل ستبتعدين طويلاً ؟ » .

ـ « نعم حتى صباح الغد » .

ـ « هل سيعود أبونا بسرعة »

ـ « نعم » .

التنورة والقميص معلّقان على جانب دولاب المطبخ ـ وسمعت الشاب الذى سيرعى الأطفال يصل . هو يستوفى ماركاً واحدًا عن كل ساعة ، ولكن من الرابعة بعد الظهر حتى السابعة فى الصباح ، يعنى خمس عشرة ساعة ، أى خمسة عشرة ماركاً ومفهوم أنه يحصل على وجباته ، وفى المساء حين يبدأ واجباته الحقيقية ، يجد سجائر إلى جانب المذياع ، استعرت المذياع من عائلة هوبفز .

بدا « بلرمان و مولعاً بالأطفال ، وهم على أية حال يحبونه . وكلما تركتهم معه حدثونى عن بعض اللعب التى يلعبها معهم ، والقصص التى يرويها لهم . لقد زكّاه لى القس ، وأعلمتُه بوضوح ، بأسباب تركى الأطفال ، قَطَّب قليلاً بدون ارتباك ، إذ رأى فمى مطليًّا بحمرةالشفاه .

ارتديتُ قميصى ، وشددتُ شعرى ، ودخلت الغرفة .

« بلرمان» أتى بفتاة معه ، فتاة لطيفة شقراء حملت الرضيع فى الحال بين ذراعيها ، تدورّ له « خشّاشة . بأصبعيها ، فصار يتسلى بها . قدّم لى «بلرمان » الفتاة ، لكنى لم ألتقط اسمها . ابتسامتها ، رقّتها اللامتناهية نحو الطفل ، كانا يتسمان بشىء من الاحتراف ، وقد أخبرتنى عيناها أنها تعتبرنى غير صالحة لأكون أمًّا .

كان لبلرمان شعر أسود جعد ، وبشرة دهنية شاحبة ، وأنفه دائماً متغضن .

سألتِنى الفتاة : « أيمكن أن نخرج مع الأطفال ؟ »

ورأيت عينى كليمنز الراجيتين وهزة رأس كارلا فرضيت . رحت أنظر داخل الدرج بحثاً عن بعض النقود والشيكولاته ، لكن الفتاة رفضت ذلك . قالت :

« أرجوك ، إن سمحت ، أود أن أدفع أنا ثمن الشيكولاتة و. . » .

« طبعاً . كما تودين » .

وأرجعت النقود إلى الدرج ، وشعرت بالتعاسة أمام هذه الشخصية اللامعة للنسوية اليافعة .

قال بلرمان : « يمكنك أن تثقى بكولى ، فهى مجنونة بالأطفال » .

نظرت إلى كل واحد من أطفالى على التوالى : كليمنز ، كارلا ، والرضيع ، وأحسست بعينى امتلأتا بالدموع .

أشار لى كليمنز برأسه وقال :

« الأمر على ما يرام يا أمى ، لاشىء يحدث ، لن نقترب من الماء » .

قلت للفتاة : « أرجوك ، لا تقربوا من الماء » .

قال بلرمان : « طبعاً لا ! » وضحكا معاً .

ساعدنى بلرمان على ارتداء جاكتتى ، التقطت حقيبتى ، قبّلت الأطفال، وباركتهم . شعرت بعدم أهميتى .

توقفت لحظة وراء الباب ، سمعتهم يضحكون فى الداخل ، وببطء هبطت على السلم .

كانت الساعة الثالثة والنصف ، ولا تزال الشوارع خالية . كان بعض الأطفال يلعبون « الهوب سكوتش» ، تطلعوا إلى أعلى حين سمعوا خطواتى تصل إليهم ، كان كل شىء هادئاً فى الشارع الذى يسكن فيه مئات الناس. هدوء ، إلاَّ من خطواتى . من أقصى الشارع سمعت ضربات بيانو خافتة ، ومن وراء ستارة لا تكاد تتحرك ، رأيت امرأة عجوزًا بوجه شاحب تحمل لقيطاً بديناً بين ذراعيها . ومع أنا نعيش هنا منذ ثمانى سنين، فلم أشعر بدوار / كما أشعر الآن ، حين أنظر إلى أعلى ، فالجدران الرمادية التى أصلحت رقَعًا رُقعٌ ، تبدو مائلة إلى أمام ومن قسمها العلوى ، ومن شريط السماء الرمادى الضيّق كان يأتى إلىَّ جارياً صوت « البيانو» الأصوات حبيسة ، والميلودى تكشف عن أنامل شاحبة لفتاة بحثت ولم تجد . مشيت أسرع ، تعجلت أكثر لأتجاوز نظرات الأطفال التى بدت تحمل تهديدًا .

ماكان على فريد أن يتركنى وحيدة ، ومع أنى أتطلّع لملاقاته ، فقد أحزننى أننى أترك الأطفال لأكون معه . متى ما سألته عن مكان سكنه ، يتخلص من السؤال ، وهذه المجمعات السكنية التى يقول إنه يسكن فيها

طيلة الشهر الماضى ، فيها ناس لا أعرفهم ، وهو لم يعطنى عنوانه نلتقى أحياناً فى المساء ، فى مقهى لقاءً قصيرًا لنصف ساعة ، تُعنى صاحبة البيت خلال ذلك الوقت بالأطفال ، نتعانق على عجل فى موقف الترام ، وحين أصعد إلى الحافلة يظل فريد واقفاً يلوح لى هناك . تمرُّ ليالٍ علىَّ وأنا مطروحة على الأريكة أبكى وكل ما حولى فى صمت . أستمع إلى تنفس الأطفال ، الرضيع يفز غير مرتاح بسبب ظهور أسنان له . كنت أدعو وأصغى إلى صوت الزمن الأجوف فى الخارج يقرقع فى جريانه من حولى كنت فى الثالثة والعشرين حين تزوجنا ـ مرت خمس عشرة سنة على ذلك ، سنوات تدحرجت واختفت بدون أن أنتبه إليها . وكل الذى أريد الآن هو أن أرى وجوه أطفالى ، مدركة أن كل سنة تضاف إلى حياتهم مأخوذة من حياتى .

فى ميدان « توخوف » ركبت حافلةً ورحت أتطلع للشوارع الصامتة ، لم أر إلَّا بضعة أشخاص واقفين عند كشك السجائر . نزلت فى شارع «بنكام»، ودخلت فى رواق كنيسة الأحزان السبعة لأسأل عن وقت قداس المساء .

كان الرواق مظلماً ، بحثت فى حقيبتى عن علبة كبريت بين سجائر منفرطة ، وقلم حمرة واحتياجات مغاسل ، حتى وجدت أخيرًا علبة الكبريت ، وأشعلت عودًا . قفزت : فهناك فى الجانب الآخر من منطقة الضوء شخص مّا واقف فى مشكاة مظلمة شخص لم يتحرك . أردت أن أصيح بشىء يشبه الترحيب أهلاً ، لكن صوتى التمَّ من خوفٍ، وخذلنى خفقُ قلبى . لم يتحرك الشكل ، كان يحمل شيئاً فى يديه ، يبدو فى الظلام مثل عصا رميت عود الثقاب المشتعل وأشعلت آخر . وحتى حين أدركت أنه تمثال ، لم يهدأ خفق قلبى . اقتربت منه خطوة ، وفى الضوء رأيت ملاكاً

حجريًّا خصل شعره تتدلّى ويحمل فى يده زنبقة . انحنيت عليه حتى كان حنكى يلامس صدر التمثال . نظرت طويلاً فى وجه الملاك . طبقة كثيفة من الغبار تغطى وجهه وشعره . وحتى فتحتا العينين العمياوين كانتا مملوءتين بقشور سود . بعناية نفخت عليه ، وأزحت ما تراكم فوقه من غبار مخلّصة ذلك الكائن اللطيف منه . وفجأة رأيت أن تلك الابتسامة مصنوعة من جصٍّ ، وأن تلك الابتسامة الساحرة قد مسحها النفخ مع الغبار . ومع ذلك بقيت أنفخ الغبار عن الخصل الجميلة ، عن صدره ، وعن الرداء المتدلى . وباهتمام زممت شفتيّ ودنوت أكثر أنظف الزنبقة . كان فرحى يزداد بازدياد وضوح الألوان المعفَّرة ومعها الآلم الجامد للمعبودات التجارية .

استدرتُ مُتَرَيِّثَةً ، وتقدمت أبعد داخل الرواق لأرى إعلانات الكنيسة .

أشعلت عود ثقابٍ آخر ، لاحت وراء اللوحة حمرة معتمة لمصباح دائم الاشتعال . فزعت وأنا أجلس أمام لوحة الإعلانات السوداء : فقد جاءنى هذه المرة شخص من الخلف . التفت ، وتنفست الصعداء إذ رأيت وجه القس الفلاحى الشاحب ، وقف قبالتى ، بدت عيناه حزينتين . انطفأ عود الثقاب ، وسألنى فى الظلام :

« هل تبحثين عن شىء ؟ »

قلت : « قداس ، أين يُقام القداس فى المساء ؟ » .

قال : « القداس المقدس ، فى الكاتدرائية ، فى الخامسة » .

رأيت شعره ، أشقر مرسلاً ، عيناه شعّتا بكدر ، سمعت الترام فى الخارج يستدير على المنعطف ، سمعت سيارات تتصايح ، وفجأة قلت فى الظلام :

« أريد أن أعترف » .

دُهِشْتُ من نفسى ، لكنى استرحت أيضاً . وقال القس ، كأنه كان ينتظر ذلك :

« تعالى معى »

قلت : « كلا ، هنا من فضلك »

قال بودٍّ : « غير ممكن هنا ، فالموعظة ستبدأ بعد خمس عشرة دقيقة ، وقد يجىء الناس . كرسى الاعتراف فى الداخل . » .

شعرت بنبض فى الظلام . ممر تيّارات باردة ، اقتربت من الملاك الجصى ، المصباح الثالث البعيد واضح فى المشهد أمامى علَىَّ أن أخبر القس بكل شىء ، أن أهمس فى أذنه فى الظلام ، وأن أسمع الغفران همساً ، ولكن بدلاً من ذلك تبعته طائعة فى الفناء . الحماسة التى اتقدت فىَّ لحظةً ، تسربّت ونحن سائران بين قطع الجص المتساقطة من المبنى ، جص وكِسَرٌ من حجارة رملية تتساقط من حائط الكنيسة باتجاه البيت الرمادى الصغير الذى يقع ملاصقاً لحائط موقف الترام ، حيث صوت طَرْق المعادن يخترق سكون عصر يوم الأحد .

حين فتحت الباب ، تطلعت فى وجه مدبرة المنزل المندهش الفظ ، والتى نظرتْ إلَىَّ بارتياب .

كانت القاعة مظلمة ، وقال لى القس :

« انتظرى لحظة من فضلك . »

لا أستطيع أن أرى شيئاً حول الزاوية ، لا من هذا المكان ولا من ذاك .

وصلت طقطقة الصحون ، فجأة ميّزت الرائحة الكريهة المُمْرضة تَثْقلُ فى القاعة ، واضح أنها استقرت فى الخيش الرطب الذى يغلف الجدار . بخار اللفت الدافىء فاح من الزاوية التى لابد من وقع المطبخ وراءها . أخيرًا جاء الضوء من بابٍ للقاعة ، وتمكنت من تمييز ظل القس فى الشعاع الباهت .

نادانى : « إلى هنا »

وصلت غير متيقنة . بدت الغرفة مرعبة : وراء ستارة حمراء فى الزاوية ، يبدو سرير ، أستطيع القول أنى استطعتُ أن أشمّه . رفوف كتب مختلفة الأحجام ، بعضها محنىٌّ . وهى مُسْنَدَة إلى الحائط . بالقرب منها وحول منضدة كبيرة مجموعة من كراسى قديمة ثمينة ،كلها مغلّفة مقاعدها بالقطيفة السوداء . فوق المنضدة كتب ، عُلَبُ تبغٍ ، سجائر ، أوراق ، كيس خرز ومجموعة من صحف . وقف القس وراء المنضدة ، دعانى إلى الأمام وهو يدفع نحوى كرسيًّا مُسَمَّرَة على ذراعٍ منه ستارة مشبكة من حديد، عند زوايا المنضدة .

أحببت وجهَهُ ، فأنا أراه كله فى الضوء .

قال : « يجب أن أعتذر » .

نظر إلى الباب وأشار برأسه .

« نحن ناس قرويون ، ولا أستطيع إقناعها بألاّ تخلِّلَ رءوس اللفت . إنها أكثر كلفة من شرائها مطبوخة جاهزة . لو حسبت الوقود والأوساخ والرائحة والعمل ، لكنى لا أستطيع أن أُريها كل ذلك ، اجلسى » .

دفع الكرسى وستارته الحديد قريباً من المنضدة ، جلس عليه ودعانى . سرت حول المنضدة وجلست إلى جانبه ، أقابله من خلال الستارة .

وضع القس شالاً على كتفيه ، ثنى ذراعيه على المنضدة ، وبدت الطريقة التى يخفى فيها صورة وجهه بيده المثنية مدروسة واحترافية .

كانت بعض المربّعات فى الشبكة الحديد مكسورة ، وحين بدأت أهمس : « باسم الرب ، الابن والروح القدس . . . » نظر إلى ساعته ، فوق رسغه ، تابعت نظرته ، كانت الرابعة وثلاث دقائق ـ بدأت الكلام ، همست بكل مخاوفى ، بكل ألمى ، كل حياتى ، فى أذنه ، بحت بخوفى من الرغبات ، خوفى من تلقى العشاء الربانى ، وباضطراب زواجنا . أخبرته بأن زوجى تركنى ، وأنى ألتقى به بين وقت وآخر فقط كى أنام معه ـ وحين ترددت بضع ثوانٍ ألقى نظرة على ساعته ، وكل مرة أتابع فيها نظرته أرى كم بطيئاً يتحرك عقرب الساعة . رفع بصره ، رأيت عينيه ، نقط النيكوتين الصفر على أصابعه ؛ ثم خفض عينيه ثانية ، وقال :

« استمرّى »

قالها برقّة آلمتنى ، كان ألماً يشبه ما تحدثه يد متمرّسة تخرج الصديد من الجرح .

ومضيت أهمس فى أذنه ، أخبرته بكل شىء عن الزمن الذى سبق السنتين الأخيرتين ، حين كنا نشرب معاً ، فريد وأنا ـ عن موت طفلىَّ ، عن أطفالى الأحياء ، عما نضطر لسماعة من غرفة عائلة هوبفز المجاورة لغرفتنا ، وعمَّا يسمعه آل هوبفز منا . وترددت مرة أخرى . كانت الساعة الرابعة وست دقائق . رفع أجفانه مرة أخرى ، قائلاً بلطف :

« استمرى »

وأهمس له أسرع من قبل ، أخبرته عن كراهتى للقسس الذين يعيشون فى

دور كبيرة ولهم وجوه مثل تلك التى فى إعلانات كريم الوجوه، عن السيدة فرانك ، عن خوائنا ووساختنا ، وأخيرًا أخبرته بأنى قد أكون حاملاً مرة أخرى . وحين توقفت هذه المرة ، لم ينظر إلى ساعته ، رفع جفنيه لنصف ثانية أطول من قبل .

وسألنى : « هل ذلك كل شىء ؟ » .

وقلت له : « نعم » .

ونظر إلى ساعته ، التى كانت أمام عينى تماماً بعد أن أبعد يديه من جهه وشبكهما على حافة المنضدة : إنها الساعة الرابعة وإحدى عشرة دقيقة ، ونظرت بدون قصد فى أعماق كُمِّه السائب ، فرأيت من كم قميصه المطوى ذراعه الفلاحى الذكورى المشعر ، وفكرت لماذا لا يحلّ أكمامه ؟

تحسرّ ، وضع يديه فوق وجهه مرة أخرى وهمهم :

ـ « هل تصلين ؟ »

فأجبته : « نعم »

أخبرته أنى أحياناً أنام الليل كله على أريكتى الرثّة ، أقرأ الأدعية التى أتذكرها ، وأنى غالبًا ما أوقد شمعة ـ بدون أن أوقظ الأطفال ، وأقرأ من كتاب الصلاة تلك الأدعية التى لا أحفظها عن ظهر قلب .

لم يسأل أسئلة أخرى ، كنت صامتة أنا أيضاً ، ونظر إلى الساعة على رسغه : إنها الرابعة وأربع عشرة دقيقة ، وكنت أسمع فى الخارج الطَرْقَ فى موقف الترام وغناء مدبرة المنزل : ترا لا لا ... فى المطبخ وطرقعة القطار فى المحطة .

أخيرًا رفع يديه عن وجهه ، شبكهما فوق ركبتيه ، وقال بدون أن ينظر إلىَّ :

« تنالُك فى هذا العالم محنة : تقبَّليها برضاً طيّب ، فأنا تغلبتُ على العالم هل أدركت ما يعنيه هذا القول ؟ »

وبدون أن ينتظر منى جواباً ، أكمل :

« أدخلك فى الباب الضيّقة : فباب التهلكة واسعة وطريقها رحيب :

والكثيرون هم الذين يدخلونها ، وضيقة هى الباب : عسيرة تلك التى تؤدى إلى الحياة ، وقليلون أولئك الذين يجدونها »

صمت مرة أخرى ، وضع يديه فوق وجهه ثانية : وهمهم بين أصابعه :

« ضيقةٌ ـ أضيق طريق نعرفها هى التى على حافة السكين ، ويبدو لى أنك تسيرين عليها ... » .

وفجأة رفع يديه ، ونظر إلىَّ خلال فتحة الستارة الحديد لحظة ، وفزعت من القسوة التى لاحت فى عينيه ، عينيه اللتين كانتا من قبل جد حنونتين :

« آمرك ، آمرك أن تسمعى القداس المقدس من قسيسك الذى تكرهينه كثيرًا جدًّا ، أن تتلقى العشاء الربانى من يديه ، حين ... » .

وهنا نظر إلىَّ مرة أخرى وأكمل :

« حين تنتهين من تلقى الغفران . » .

صمت أيضاً ، بدا يفكر ، فى حين كنت أنا أحاول فى ذهنى أن أردِّدَ الصلوات ، كل الحسرات التى أعرفها ، كنت أسمع هسيس مشاعل

اللحام فى الخارج ، فى موقف الترامات ، وفجأة بدأ قرع أجراس كنيسته : إنها الرابعة وخمس عشرة دقيقة .

قال فجأةً :

« لا أدرى إن كنت أستطيع منحكِ الغفران ، يجب أن تنتظرى . باسم الرب ... » .

وفقدت عيناه قسوتهما .

« كيف تستطيعين حمل هذا القدر من الكراهية ؟ »

أبدى إشارة يأس ، والتفت إلىّ :

« أستطيع أن أباركك ـ ولكن عليك أن تعذريننى ، فأنا أريد أن أعطى الأمر مزيدًا من التفكير ، ربما أناقشه مع أخ ، مع قسٍّ آخر . هل يمكن العودة هذا المساء ـ آه ، لا ـ أنت ستقابلين زوجك . يجب أن تأملى بعودة زوجك لك . » .

خيّبنى جدًّا عدم غفرانه لى .

قلت له : « أرجوك امنحى الغفران » .

ابتسم ثم رفع يده قليلاً ، وقال : « أتمنى أن أقدر على ذلك ، فأنت تتوقين للغفران كثيرًا ، لكن لى فى الحقيقة شكوكاً . ألا تشعرين الآن بمزيدٍ من الكراهية ؟ »

قلت متعجلة : كَلاَّ كَلاَّ ، إنه فقط أحزننى » .

بدا متردِّدًا ، ولم أعرف ما أفعله ، ربما إنْ ألححتُ عليه استجاب . لكنى أردت أن أنال غفراناً حقيقيًّا ، لا بإقناعٍ منى .

قال لى وابتسم ثانية :

« بشرطٍ ، يمكن أ غفر لكِ بشرطٍ ـ لدىَّ شكوك ـ ولكن بشرطٍ ، إن أنا امتلكتُ الحق فعلاً ، ربما . . » .

لوّح بيديه أمام وجهى نافد الصبر : »

« بكراهيتك أنتِ تحكمين ـ ولكن نحن يجب ألاَّ نحكم ، يجب ألاَّ نكره، كلا » .

وهز رأسه بحزم ، ثم أمسك وجهه بكفيه المجوفين على حافة المنضدة ، صلّى ، ونهض فجأة ، وغفر لى . رسمت علامة الصليب ، ونهضت . وفق إلى جانب المنضَدة ، عيناه مسلّطتان علىَّ ، وفجأة شعرت بالأسى عليه ، حتى قبل أن يتكلم . . :

« أستطيع فقط »

ومسح الكلمات بإشارة :

« هل تعتقدين أننى لا أشعر بها ـ بهذه الكراهية ـ أنا القس ؟ أنا أشعر بها هنا » . ضرب غفّارته السوداء ، على موضع القلب تماماً ، هذه الكراهية للمتفوقين علىَّ أحياناً ، هنا » .

وأشار إلى النافذة ، فى قداسات الكنيسة التى أقوم بها تحت إشراف قُسس زائرين ، يأتون من الجوار ، قرب الفنادق ، رجال مُلَمَّعو المظاهر فى طريقهم إلى مؤتمر ، يأتون من مؤتمر ، يدمدمون عن القذارة ، عن قلة التشديد على القداسات ، قداسات العشر دقائق ، قداسات الثلاث عشرة دقيقة ، العشرين ، والمعدل قداسات الخمس والعشرين دقيقة التى تُقام هنا ، خمس مرات ، وعشر مرات ، وغالباً خمس عشرة مرة فى اليوم .

لا فكرة لديك عن عدد القسس الذين يسافرون من حولنا ، إنهم يعودون من المراكز الصحية ، وهم فى طريقهم من هناك ، ومن مؤتمرات ومنتجعات، هنالك الكثير منها . خمسة عشرة قداساً تقام بأقل من خمسة عابدين يشاركون فى كل هذا العدد من القداسات فى هذا المكان ، حيث كل الأشرطة المسجلة تالفة ، حيث يتراوح أخلاط القادمين منهم بين خمسة عشر إلى خمس ، لكِ بعد هذا أن تُقدّرى لهذا أنا أكرههم ، هؤلاء القسس المساكين الذين يخلفون عطور حمامات الفنادق الباذخة وراءهم هنا ، فى غرفة ملابسى المهملة .

استدار من النافذة ليواجهنى مرةً أخرى ، سلّمنى دفتراً وقلماً من المنضدة، كتبت عنوانى وعدّلت قبّعتى . كانت هنالك عدّة ضربات عالية على الباب . صاح :

« أعرف ، أعرف . الموعظة . إنى آتٍ ! »

صافحنى ونحن نفترق ، نظر إلىَّ متحسرًا ، وصحبنى إلى الباب .

سرت متّئِدةً اجتاز رواق الكنيسة باتجاه المجاز السفلى ـ امرأتان ورجل يتجهون إلى الموعظة فى الكنيسة ، ومن الكنيسة ، عبر الشارع عُلِّقَتْ لافتة تقول حروفها الحمر :

أين تكون دون دوائىٍّ يهتم بك ؟

عاليةً فِى المساء انزلقت سحابة سوداء ، اجتازت الشمس وكشفت حافتها الأخيرة عن قرصها ، فالشمس الآن كلها معلقة . واصلت سيرى . مرّ بى صبى صغير يحمل فى يده كتاباً للصلاة ، بعده خلا الشارع . كان

على الجانبين خطا من الأكواخ وبيوت من حجارة ، وكنت أسمع خلف الواجهات المحروفة ضجيجاً يصل إلىَّ من موقف الحافلة .

أوقفنى الشَّذَى الدافئ المفاجئ للخبز الذى نضج ، نظرت إلى اليمين خلال باب مفتوح لكوخ خشبى تتصاعد متخلّصة منه لفائف بخار أبيض : كان هنالك طفلٌ يجلس على عتبة دار فى الشمس ينظر شزًرا إلى السماء ، وعلى وجهه تعبير البلاهة الهادئ ، أجفانه محمرة ، وعيناه تبدوان مرتحلتين فى الشمس ، شعرت بغصة من تعاطفى وحنوى عليه .

كان الطفل يحمل فى يده كعكة محلاة ، وفمه ملطخ كله بالسكر ، وحين يعضها تنبثق مربى الكعكة وتسيل على بلوزته فى الداخل فتاة صغيرة محنيّة على قدر ، كان لها وجه لطيف ، وبشرة رقيقة . ومع أن شعرها مُغَطًّى بشالٍ فإنها شقراء حتماً . كانت تُخرِجُ كعكاتها من الزيت المغلى وتضعها فوق المشواة . فجأة نظرت إلى أعلى ، التقت عيوننا وابتسمت بوجهى . كان لابتسامتها تأثير السحر فىَّ ، رددت لها الابتسام ، وبقينا كذلك بضع ثوان ، دونما حركة ، وإذ لم يكن سواها . فقد رأيت نفسى أنظر إليها من مسافة قصوى ، رأيتنا ، نحن الاثنين ، نقف هناك ، تبتسم واحدتنا للأخرى مثل أختين . وخفضتُ بصرى إذ تذكرت أنى لا أملك نقودًا فأشترى واحدة من كعكاتها المقليات بالدهن ، والتى أثارت رائحتها معدتى . نظرت إلى أدنى ، إلى قسمَىْ رأس الأبله وتمنيت لو أن معى نقودًا . لا يمكن أبدًا أن تظل معى نقود بعد أن التقى بفريد ، فهو لا يستطيع مقاومة رؤية النقود ، وغالباً ما يقنعنى بصرفها على الشراب . واجهنى مشهد عنق الأبله الغليظ ، فُتات السكر المتناثر على وجهه وتصاعدً فىَّ مثل حُمرة الخجل وأنا أتأمّل شفتيه المنفرجتين .

حين رفعت عينى مرة أخرى كانت الفتاة قد دفعت الجفنة جانباً ، وكانت قد بدأت بحل ربطة شعرها ، نفضتها ، وتلامع شعرها فى ضوءالشمس : ومرة أخرى لم أرها فحسب ، ولكن أيضاً رأيت نفسى من مكانٍ عالٍ : الشارع مملوء بالأنقاض ، رواق الكنيسة ، اللافتة ، وأنا وواقفة فى مدخل هذا الكوخ : ناشفة وحزينة ، لكن مبتسمة .

مشيت متأنية ، مررت بالأبله فى الكوخ . فى الزاوية طفلان يجلسان إلى مائدة ، وإلى جانب الأريكة عجوز غير حليق ، يقرأ صحيفة . أنزل الصحيفة ونظر إلىَّ .

الفتاة الواقفة بجوار مكنة القهوة نظرت إلى المرآة ورتَّبَتْ شعرها ؛ رأيتها صغيرة جدًّا ، بيضاء ، لها يدا طفلة ، ولآن أراها فى المرآة وإلى جوارها وَجْهٌ فتى ينظر إلىَّ ، ينظر إلى فمى النحيل المزموم قليلاً ، بطلائه الرفيع ، القرمزى الممسوح . والابتسامة على وجهى وإنْ صدرت عنى ، لكنها ارتسمت خلافاً لإرادتى ، فبدت ابتسامة كاذبة ، والآن ، فجأة لاح رأسان يتبادلان المكان ، أخذتْ رأسى ، وأخذتُ رأسها ، ورأيتنى فتاةً صغيرةً تقف أمام المرآة ، أُرتّبُ شعرى ، رأيتنى ، تلك الطفلة ، يافعةً متفتحة فى الليل لرجل تحبه ، والذى سيضخُ الحياة والموت فيها ، تاركاً على وجهها آثار ما يُسمّى بـ الحب ، حتى يصير وجهها يشبه وجهى الآن : هزيلاً ممصوصاً من مرارة الحياة .

لكنها الآن تستدير ، تخفى وجهى فى المرآة ، وخطوتُ إلى اليمين مستسلمةً لسحرها .

قلت : « مساء الخير » .

قالت : « مساء الخير ، هل تريدين كعكاتٍ ؟ » .

قلت : « كلا ، شكرًا » .

ـ « لِمَ لا ، أليست طيّبة رائحتُها ؟ » .

ـ « هى كذلك » .

قلت واضطربت أمام فكرة الرجل المجهول الذى سوف تمنحه نفسها ، «نعم رائحتها حقيقةً طيبة ، لكنى لم أجلب نقودى » .

عند كلمةً « نقود » نهض الرجل الذى بجوار الأريكة ، جاء إلَّى من وراء المنضدة ووقف إلى جانب الفتاة ، وقال :

« نقود ؟ ولكنك يمكن أن تدفعى فيها بعد . أنت ترين كعكاتٍ ، ألا تريدين ؟ » .

قلت : « نعم » .

قالت الفتاة : « أوه ، اجلسى » .

رجعت خطوات إلى وراء وجلست إلى جانب الأطفال ، نادت الفتاة :

ـ « قهوة أيضاً ؟ .

ـ « نعم ، من فضلك . »

وضع الرجل ثلاث كعكات على صحنى وجلبها إلىَّ .

انتظر إلى جوارى قلت :

« شكرًا ، ولكنك لا تعرفنى ؟ »

ابتسم إلىَّ ، أنزل يديه من وراء ظهره ووضعهما بهدوء فوق بطنه ، وهمهم :

« أوه ، لا تهتمى » .

أشرت برأسى إلى الأبله الذى يجلس على العتبة :

« ابنك؟ »

قال بصوت خفيض : « هو ابنى ، وتلك ابنتى » .

نظر إلى الفتاة وراء المنضدة ، التي كانت تحرك عتلة مكنة القهوة .

قال الرجل العجوز : « ولدى لا يفهم ، لا يفهم لغة البشر ، ولا لغة الحيوان ، لا يستطيع لفظ كلمة واحدة غير دزو ـ دزا ـ ززاى ـ ونحن » .

وهنا انبسط لسانه الذى كان يجهد لتشكيل تلك الأصوات ، فى فمه مرة أخرى .

« ونحن نقلده ، بضعف ، بخشونة ، نحن نلفظ تزو ـ تزا ـ تزاى . نحن غير أكفاء » .

قال ذلك بخفوت ثم رفع صوته قليلاً منادياً :

« برنارد » .

فأدار الأبله رأسه ببلادة ، ثم تركه يهطل إلى أمام مرة ثانية مثل بندول ، ونهض العجوز ، أخذ الولد برفق من يده وقاده إلى المنضدة جلس بجانبى على الكرسى ، رفع الولد إلى حضنه ، وسألنى برقّة «أم أنه خيّبك ، قولى ذلك . »

قلت : « كلا لم يخيّبنى » .

وأتت ابنته بالقهوة ، وضعت الكوب أمامى ، وجلست إلى جانب أبيها : « يجب أنّ تقولى إن هو ضايقك ، لا نهتم ، أكثر الناس يشعرون بالقرف منه » .

كان الطفل بديناً . ملطَّخاً كله ، نظرته فارغة ، يرطن بأصواته : دزو ـ دزا ـ دزاى . نظرت إليه مليًّا ، رفعتُ رأسى ثانية ، وقت :

« كلا هو لم يقرفنى ـ هو كالطفل » .

رفعت كوب القهوة إلى شفتى ، رشفتُ بعضاً منه قضمت الكعكة المقليّة المحلاة ، وقلت :

« يا عزيزتى قهوتك جيدة ! » .

« حقاً ؟ » ردت على الفتاة باندهاش . « قال لى رجل هذا صباح اليوم ـ لا أحد عده مثلها » .

« إنها جيدة فعلاً » .

قلتُ ذلك وشربت أكثر ، وأخذت قَضمْةً أخرى من الكعكة . مالت الفتاة على ظهرى كرسى والدها ، نظرت إلىَّ ، ثم ورائى ، وقالت :

« أحاول أحياناً أن أتصور كيف يجرّب الأشياء ، كيف يعيش ـ هو عادةً مسالم جدًّا ، سعيد جدًّا ـ ربما بالنسبة له ، الهواء ماء ، ماء أخضر ، لأنه يجد من الصعب الخوض فيه ـ ماء أخضر يتحول بعض الأحيان إلى بنى ، مُوشىً بأشرطة سود ، مثل شىء قديم . يصرخ أحياناً ، إذا ما كانت حوله ضوضاء معينة ، أو سمع صرير الحافلات أو صافرات المرسلات الحادة . هذا مزعج » ويصرخ إن داهمه مثل ذلك .

قلت : « أوه ، هو يصرخ ؟ » .

قالت : « نعم » .

وردَّتْ نظرتَها إلىَّ متطلعة فىَّ دون ابتسام .

« هو يصرخ غالباً ، وتنهمر دموعه على بقايا الطعام حول فمه . والشىء الوحيد الذى يحب أكله هو الطعام الحلو والحليب والخبز - أى شىء ليس حلوًّا ، غير الحليب والخبز - يتقيؤه ثانية . أوه ، أنا آسفة . لقد قرفت... » .

قلت : « كلا ، أخبرينى عنه . »

نظرتْ ورائى مرة أخرى ، وضعت يدها فوق رأس الأبله . وكما تزعجه تلك الأصوات ، يتعذر عليه تحريك وجهه أو جسمه ضد تيار الهواء . لعل أذنه مملوءة دائماً بإيقاعات لطيفة لأورغنات ، أو بسياقات موسيقية هو وحده يسمعها - لعله يسمع عاصفة تسفّ أوراق شجرٍ خفىٍّ - أوتار كمان ، أوتار غليظة مثل أذرع تضج - أو أنَّ أزيزًا بعيدًا يدعوه ، أزيز مدمّر .

أصغى العجوز إلى سحرها ، وهو يحتضن بيديه جسم الأبله تاركاً المربى والسكر يتساقطان على أكمامه . شربت مزيدًا من الهوة ، نلت قَضْمةً من الكعكة الثانية وسألت الفتاة بصوت خفيض :

- « كيف تعرفين ؟ » .

نظرت إلىَّ وابتسمت قائلة :

- « أنا لا أعرف أى شىء - لكن ، لعل فيه شيئاً لا نعرفه نحن ، أحول أن أتخيله - فهو أحياناً يصرخ فجأة ويأتى راكضاً إلىَّ ، فأترك دموعه تهمى على صدريتى - يحدث هذا تماماً - ولمدة نصف ثانية فقط - تخترقه مثل طعنة

رعب حركة الناس ، فى الطريقة التى نراهم فيها ، السيارة ، القطارات ، كل أنواع الضوضاء . بعدها يستمر فى الصراخ وقتاً طويلاً » .

نهض الأطفال الجالسون فى الركن ، دفعوا صحونهم ، ساروا بمحاذاتنا ، عندها صاحت فتاة صغيرة وقحة ترتدى قبعة خضراء :

« يقول والدى سجّله على الحساب . »

« نعم ، وهو كذلك . » أجاب العجوز وابتسم وراءهم .

سألت بلطف :

« هذه زوجتك ، وهل أمه ميتة ؟ » .

قال الرجل :

« نعم إنها ميتة ـ نثرتها قنبلة أشلاءً فى الشارع ، قذفت الرضيع من ذراعها ، سقط على حزمة قشٍّ وعُثِرَ عليه يصرخ . »

سألت الفتاة :

«هل كان أعنى من الولادة . . ؟ »

قالت الفتاة

« من الولادة ، كان دائماً كذلك كل شىء يمر به بَليل لا صوت له إلاَّ أصواتنا ، فهى وحدها التى يسمع : أورغنات الكنيسة ، صرير الترامات وتراتيل الرهبان . لكن لماذا لا تأكلين ـ أوه قرفتِ . »

التقطت الكعكة ، هززت رأسى ، وسألت :

ـ تقولين إنه يستطيع سماع الرهبان ؟ »

فقالت برقّة وعيناها علىَّ :

« نعم لابد من أنه قادر على سماعهم حين يقدمون تراتيلهم هنا ـ فوجهه يتغير ـ فى كل وقت لى صدمة ـ وجهه يضيق ، يبدو قاسياً وهو يصغى ، أعرف أنه يسمعهم ، هو يصغى ، يصير مختلفاً تماماً . هو يسمع ألحان الصلوات ويصرخ حين يتوقف الرهبان . مندهشة أنت ! » .

قالت لى ذلك وابتسمت : « استمرى فى أكلك ! » .

رفعت الكعكة مرة أخرى ، أخذت قَضمْةً ملء فمى ، أحسست بالمربى تذوب فى فمى ، قلت

« لابد من أنك تمضين به كثيرًا إلى ميدان بلدونر » .

قالت : « أوه ، نعم ، غالباً ما أصطحبه إلى هناك ، وإن كانت الصدمة دائماً تنتظرنى منه ، . هل تريدين مزيدًا من القهوة ؟ » .

قلت : « كلا ، شكرًا ، يجب أن أمضى » .

نظرت إليها مترددة وللأبله ، ثم قلت :

ـ « أود أن أراه يوماً » .

سألتنى : « فى الكنيسة ؟ مع الرهبان؟ » .

قلت : «نعم » .

ـ « أوه ، لِمَ لا تمرّين بنا دائماً ، كم مؤسف أن تتركينا ـ ستعودين ، أليس كذلك ؟ » .

قلت : « سأعود ، ينبغى علىَّ أن أدفع ما أنا مَدِينة به » .

« لا ، ليس من أجل هذا أرجوك ، عودى إلينا » .

وهزّ العجوز رأسه مؤيدًا كلماتها .

أكملت قهوتى ، نهضت ونفضت الفُتاتَ قلت :

ـ « سأعود . لطيف هذا المكان » .

فسألت الفتاة : « اليوم ؟ »

« ليس اليوم ، ولكن قريباً ، لعل صباح الغد ـ وفى الأكثر سأذهب معك لأستمع إلى الرهبان » .

قالت : «نعم » .

ومدّت لى يدها ، أخذتها بيدى لحظة ، تلك اليد الرقيقة البيضاء النحيلة جدًّا ، تطلعت فى وجهها الفتىّ ، ابتسمتُ وأشرت برأسى للعجوز ، قلت بمحبة للأبله الذى كان يفتُتُ كعكة بين أصابعه :

« برنارد » .

لكنه لم يسمعنى ، حتى لم يبدُ أنه يرانى ، فقد أطبق أجفانه تماماً ، تلك الأجفان المحمرة ملتهبة الأطراف .

استدرت مغادرةً المكان وسرت باتجاه الممر السفلىّ الذى يؤدى إلى شارع المحطة .

حين نزلت السلّم ، كانت الصحون قد رفِعَتْ عن الموائد ، وكانت لا تزال هناك رائحة اللحم البارد والسَلَطة حلوى البودنج . جلست فى زاوية ورحت أراقب شابين يلعبان فى مكنات التسلية ، وأسمع ذلك الأزيز الذى تطلقه كرات النيكل فى ارتطاماتها الجانبية . أثارتنى دوامة الأقراص فى شق المكنة ووقفاتها المتقطعة . مسح النادل الموائد بمنديله ، السيدة ، صاحبة المحل رفعت بطاقة صفراء كبيرة مكتوب عليها :

رقص هذه الليلة . الدخول مجاناً .

إلى المائدة التى تجاورنى ، جلس رجل عجوز فى سترة « لودن » وقبّعة من لباد خضراء ، وغليونه يدخّن فى المنفضة . احتفظ الرجل بقبعته على رأسه وهو يخلط اللحم الغنى بالفلفل .

سألنى النادل : « ماذا تحب ؟»

صعدت نظرى عليه إلى وجهه الأليف :

« ما عندكم ؟ »

قال : « لحم ، شرائح لحم، بطاطا ، سلطة ، سجق وشوربة تبدأ بها إن شئت » .

« سأتناول لحماً ، وأبدأ بـ شوربة وشنابز »

قال النادل : « كما تحب يا سيدى . »

كان الطعام ساخناً وشهيًّا ، وأدركت أنى ضائع ، طلبت شيئاً من الخبز وغمست الخبز بالصلصة . طلبت شنابز آخر . لا يزال الشابان هناك . شعر أحدهما قافّ من مفرقه .

دفعت ، انتظرت دقائق أخرى ، لكن المكنة لا تزال مشغولة . نظرت عن قرب إلى وجه النادل ثانية : ذلك الوجه الشاحب ، ذلك الشعر الخفيف الأبيض تقريباً : الشعر ـ حتماً رأيتهما فى مكان ما .

حين طلبت عند المنضدة سجائر ، نظرت إلىّ صاحبة المحل وسألتنى :

ـ « هل ستقضى الليلة هنا ؟» .

قلت : « نعم » .

« هل تتفضل بالدفع مقدماً ، إنه فقط ـ وعبسَتْ ـ إنا بهذه الطريقة نشعر باطمئنان أكثر ، فقربنا الشديد من المحطة ، لا نعرف اللغة . . »

قلت : « حسناً » . وأخرجت نقودى .

قالت « ثمانية ماركات من فضلك ، وبللّتْ قلمها لتكتب لى إيصالاً.

« هل تتوقع أحدًا ؟ » سألتنى وهى تناولنى الورقة .

ـ « نعم ، زوجتى » .

ـ « هذا حسن » .

قالت لى وسلمتنى السجائر ، وتركت لها ماركاً وغادرت إلى أعلى .

اضطجعت على الفراش وقتاً طويلاً ، أفكر وأدخّن ، دونما شىء يدور حوله تفكيرى ، حتى تذكرت بأننى كنت أريد تحديد : أين رأيت وجه النادل ، أنا لا أنسى وجهاً ، كل الوجوه تتبعنى ، وأعرفها حالما تقابلنى . إنها تتسكع هناك فى اللاوعى ، بخاصة أولئك الذين رأيتهم مرة واحدة ، وباختصار شديد ، هى تسيح فى ذهنى مثل سمك رمادى غير واضح يتسلل بين الأعشاب فى بركة موحلة . أحياناً تخرج وجوهها إلى أعلى السطح، لكنها تخرج كاملة حين أراها مرة أخرى . دونما هوادة أحاول الاصطياد من ذلك السرب فى البحيرة ، سحبت الخيط ، فكان هو ، النادل: الجندى الذى نام جوارى دقيقةً فى مستشفى الميدان ، تذكرت أنى رأيت القمل يزحف من الضمادات حول رأسه ، لقد انغمست فى الدم المتخثر والطازج ؛ قمل يزحف مكشوفاً فوق رقبته ، فى الصديد وكان شعر أبيض تقريباً فوق وجه ذلك الإنسان فاقد الوعى ، ومخلوقات جريئة تتسلق أذنيه ، تنزلق ، تهبط على كتفيه ، وتختفى ثانية فى الياقة . . وجه ضيّق

يتعذّب رأيته على مسافة ألفى ميل من هذا المكان ـ ذلك هو الشخص الذى يقدم لى الآن .

فرحت إذ عرفت مكان النادل الأولى ، انقلبت على جنبى ، أخرجت نقودى من جيبى وعددتها فوق الوسادة . لا يزال عندى ثمانون ماركاً وثمانى فينيكات .

بعدها نزلت ثانية إلى البار . كان الشابان لا يزالا واقفين عند المكنات . يبدو جيب أحدهما مليئاً بقطع النقود ، لقد هطل ثقيلاً ، ويده اليمنى تتلمس طريقها خلال النقود . الشخص الأخر الذى تبقّى هو الرجل ذو قبعة اللباد الخضراء ، بقى يشرب بيرة ويقرأ الجريدة . تناولت شنابز . عيناى إلى وجه صاحبة المحل الأملس ، وقد كانت جالسة على مقعد تتصفح مجلة .

صعدت فوق مرةً أخرى . اضطجعت على السرير ، دخنت ، وفكرت فى « كيت» وألاولاد ، فكرت فى الحرب وفى الطِّفلين اللذين أكد لنا القسس أنهما فى الجنة ، أنا أفكر فى هؤلاء الأطفال كل يوم ، لكننى اليوم فكرت فيهم مدة أطول . لاأحد ممن يعرفوننى ، ولا حتى كيت ، يصدقون كم أفكر فيهم . إنهم يعتبروننى شخصاً مهزوزًا يغير عمله كل ثلاث سنوات مذ استنفد النقود التى ورثها من أبيه على الخمر ، شخص بالرغم من تقدمه فى السن لا يسعى لاستقرار ، غير مهتم بعائلته ، ولكنما وقع على مال أضاعه فى سُكْره .

لكنى فى الواقع ما كنت أشرب إلاَّ نادرًا ، حتى ولا كل شهر ، ولا يحدث أن أكون مخمورًا حتى كل ثلاثة أشهر بشكل منتظم . وأتساءل

أحياناً : ماذا يتصور الناس عملى خلال كل الأيام التى لا أشرب فيها ، وهى تسعة وعشرون من ثلاثين ؟ أنا أسعى كثيرًا . أحاول كسب المال . أحمل بعضاً من الكتب التى قرأتها فى المدرسة وأبيعها إلى الطلبة المجدين فى الصفوف الخامسة . أتسكّع فى المدينة ، عادةً ، خارجها فى الأطراف ، وأزور المقابر حين تكون مفتوحة ، أتمشى بين الأشجار المشذّبه باعتناء ، ومنابت الأزهار المنتظمة ، أقرأ الشواهد ، الأسماء ، أتشبّع برائحة المقبرة ، وأشعر بقلبى يخفق من الحقيقة الثابتة ، حقيقة أنى أيضاً ، سأرقد هناك . مرّ زمن اعتدنا أن نسافر فيه كثيرًا ، فى تلك الأيام التى كنا فيها لا نزال نمتلك نقودًا ـ لكنى فعلت فى المدن الغريبة مثل هذا الذى أفعله هنا ، حيث قررت البقاء : أنام على أسرةّ الفنادق ، أدخْن أو أسير على غير هدى بين وقت وآخر أدخل كنيسة ، أو أمضى مشياً إلى الضواحى البعيدة حيث تكون المقابر . أشرب فى حانات رخيصة ، أكوّن صداقات فى الليل مع غرباء أعرف أنى لن ألتقى بهم مرة أخرى .

حتى حينما كنت طفلاً ، كنت أحب الذهاب إلى المقابر ، أُشبع رغبةً لا يعتبرونها مناسبةً لولد صغير . لكن تلك الأسماء ، وأصص الأزهار تلك حرف وُرائحة هناك ، تقول لى إنى أيضاً سأموت : تلك الحقيقة التى ما شككت بها قط أحياناً ، فى تلك الصفوف التى أجتازها ببطء ، والتى لا نهاية لها ، أجد أسماء ناسٍ أعرفهم .

طفلاً ، خبرت حقيقة الموت . ماتت والدتى وأنا فى السابعة ، وباهتمام شديد راقبت كل شىء أجرَوْه لها : جاء القس ، مسحها بالزيت ، باركها ـ كانت ممددة لا تتحرك . تسلّموا الأزهار ، جاء الأقربون ، بكوا ، وصلوا إلى جانب سريرها ـ كانت ممددة لا تتحرك . راقبت كل شىء بفضول .

ولأنى أنا الذى فُجِعتُ فى أُمِّى ، لم يمنعونّى من مراقبة الرجال فى « بيت الموتى » . غسلوا أمى ، ألبسوها رداءً أبيض ، وزّعوا الأزهار حول النعش ، سمُروا غطاء النعش . حملوا النعش فى سيارة ـ وكانت الشقة خالية ، ليس فيها أمى . دون أن أخبر أبى ، ذهبت إلى المقبرة . ركبت السيارة (١٢) ـ آه لن أنسى ـ ذهبت إلى ميدان توكوف ، ومنه ركبت الحافلة رقم (١٠) ، ركبتهاإلى نهاية الخط البعيد .

كانت تلك المرة الأولى التى أدخل فيها مقبرة ، سألت الرجل ذا القبّعة الخضراء عند البوابة : أين أمى ؟

كان له وجه منفوخ أحمر ، تفوح منه رائحة الخمر ، أخذنى من يدى ، وسار بى عبر القبور إلى مبنى الإدارة . كان طيباً جدًّا معى ، سألنى عن اسمى ، أدخلنى غرفة ، وطلب أن أنتظر . انتظرت . سرت بين المقاعد حول منضدة بلون بنىٍّ فاتح ، تطلعت إلى الصُّوَر على الجدار ، وانتظرت : إحدى الصور كانت امرأة نحيلة سوداء جالسة فوق جزيرة ، تنتظر . وقفت على أطراف أصابعى ، وحاولت قراءة ما كان مكتوباً تحتها ، وجهدت لأميّز: نانا . صورة أخرى أظهرت رجلاً عجوزًا ملتحياً ، يكشّر حاملاً علبة بيرة ذات غطاء باذخ الزخرفة مفتوح باتجاه وجهه . لم أستطع قراءة ما تحت الصورة ، ذهبت إلى الباب ، لكنّ كان البابَ مغلقاً . فبدأت أبكى حتى سمعت وقع خُطًى فى الممر : إنه والدى قد وصل : كنت غالباً أسمع خُطاه خلال ممرّ طويل . فأشفق والدى علىّ . مع الرجل البدين ذى القبعة الخضراء الذى تفوح منه رائحة الخمر ، مضينا عبر المقابر إلى معرض الجثث . رأيتهم هناك واقفين ، ونقوش عليها أسماء وأرقام . قادنا الرجل ذو

القبعة الخضراء إلى نعش ، ورفع والدى رقعة باصبعه ، وقرأ : اليزابث بوكنر ١٨ ، ٤ ، ٤ ب : ظ مخطط ٧/ ل .

وسألنى عن تاريخها ، قلت : لا أدرى . فقال السادس عشر . لن تُدفن أمك حتى بعد غد .

أردت الاطمئنان عليه ، ألاّ يحدث شىء للنعش الذى ربما لا نراه ، وبكى والدى ، وعدنى ، وتبعته . فى الشقة الكئيبة ، ساعدته على تنظيف المخزن الكبير القديم ، وأخرجنا كل الأشياء التى اشترتها أمى خلال سنواتها من باعتها المتجولين : مجموعة من نصول المقصّات الصدئة ، صابون ، مسحوق مبيد للحشرات . مطاط تالف ، وعدة علب من دبابيس الأمان .

بكى أبى .

وبعد يومين فعلاً رأيت النعش تماماً كما كان . حملوه على عربة معلقةٌ عليها أكاليل وأزهار ، تبعنا النعش سائرين وراء القس ، مساعد الكاهن . إلى حفرة طينية فى المخطط (رقم ٧) ورأيت النعش يُباركُ ، ويُنزّل ، ويُرشّ عليه الماء المقدس ، ويُنثَرُ عليه التراب . وأصغيت لصلاة القس ، وهو يتكلم عن التراب والنشور .

وقفنا خلف المقبرة وقتاً طويلاً ، أبى وأنا ، فقد أصررتُ على أن أرى : أَلْقَى حفّارو القبور كثيّرا من التراب على أعلى القبر ، ثم رصقوه ، وبمساحيهم جعلوا منه رابيةً صغيرة ، ألقوا الأكاليل فوقها وأخيرًا غرس أحدهم فى التراب صليباً أبيض صغيرًا ، منقوشة عليه حروف سود ، تمكنت من قراءتها :

« إليزابث بوكنر »

حتى وأنا طفل أدركت معنى كون الإنسان ميتاً : يعى أنه اختفى ، دُفِنَ فى الأرض ، وأنه ينتظر النشور . وفهمت ، انتبهت بدقة إلى أن جميع الناس يجب أن يموتوا ، والكثير ممن أعرفهم ماتوا ، وأن أحدًا لم يمنعنى من حضور دفنهم .

ربما فكرت فى الموت كثيرًا ، وأولئك الذين يعتبروننى سكّيرًا مخطئون . فكلما أجهدت نفسى فى شىء ، بدا غيرَ مجدٍ ، ومملاً ، وبعيدًا عنى .

ومنذ غادرت كيت والأطفال بدأت أعاود الذهاب إلى المقابر مرة بعد أخرى ، وأحاول أن أكون هناك مبكرًا حتى أشارك فى مراسم الدفن ؛ فأنا أتابع نعوش ناسٍ لا أعرفهم ، أصغى إلى تراتيل الدفن ، وأردّد الشعائر التى يهمهم بها القس فوق القبر ، أرمى تراباً فى الحُفَر ، أصل بجانب النعوش ، إذا امتلكتُ نقوّدا ، أشترى زهورًا أولاً ، وأنثرها زهرات منفردات فوق التراب. الذى سيُهال فوق النعش . أمشى مارًّا بالأقارب الباكين ، وأُدعى فى مناسبات إلى الدار ، فأجلس إلى مائدة مع غرباء تماماً . أشرب بيرة ، وآكل بطاطا وسلطة وسجقاً ، أسمح لنسوة باكيات بأن يملأن صحنى بسندويتشات كبيرة ، أدخن سجائر ، أشرب شنابز ، وأصغى لتاريخ ناس لا أعرف عنهم شيئاً ، غير رؤيتى لنعوشهم . ويُروننى صورًا فوتوغرافية لهم قبل أسبوع تَبِعْتُ نعش فتاة شابة ، وجلست بعد ذلك فى غرفةٍ فى ركن ، فى مطعم من طراز عتيق وبجانب أبيها ، الذى أخذنى إلى معجب سرًّا بابنته . أرانى صورًا لها ، صوراً لمخلوقة جميلة حقًّا : شعرها يرفرف فى الهواء ، كانت جالسة فوق دراجة بخارية خفيضةفى مدخل شارع مشجر .

أخبرنى والدها : « لقد كانت طفلة ، لا تعرف شيئاً عن الحب » .

نثرت زهوراً فوق نعشها ، ورأيت دموعاً فى عينى والدها وهو ينزل سيجارة للحظة إلى منفضة فخارية ذات لونٍ رمادى ، لكى يمسح عينيه .

لم أهتم بكل تلك المشاغل التى مارستها ، لم أستطع توفير الجدّ المطلوب لشاغل حقيقى . قبل الحرب عملت زمناً طويلاً فى مكتب لإنتاج مواد صيدلية حتى أدركنى السأم ، وانتقلت من ذلك العمل إلى التصوير الفوتوغرافى الذى تعبت منه أيضاً . ثم قررت العمل فى مكتبة ، وإن كنت لا أجد متعة فى القراءة ، وفى المكتبة التقيت بـ « كيت» التى تهوى الكتب .

بقيت هناك أن « كيت » كانت هناك ، لكننا قبل أن يمضى وقت طويل تزوجنا ، وكان عليها أن تغادر حين حملت لأول مرة ، . وجاءت الحرب أيضاً ، وولد طفلنا الأول كليمنز ، واستُدعيت إلى الخدمة .

لم أشأ التفكير فى الحرب ، نهضت من فراشى وهبطت على السلم ثانية إلى البار : كانت الساعة الرابعة ، تناوت شنابز ، ذهبت إلى المكنات . لم يكن حولها أحد ، لك ما إن أسقطت فيها قطعة نقد واحدة وضغطت على العتلة ، حتى أدركت أنى كنت متعباً . عُدْتُ إلى الغرفة ، اضطجعت على فراشى مرة أخرى ، دخّنت ، فكّرت فى « كيت » حتى سمعت الأجراس تُقْرَع فى كنيسة الأحزان السبعة ...


4

لم أجد صعوبة فى رؤية إشارة اليد السوداء ، فتابعت طريقى ، وسرت وفى أتجاه الإصبع المؤشّرة . كان الشارع رماديًا وخالياً ، وأنا ماضية فى سيرى ، واجهتنى فجأة كتلة بشرية تجرى من بناية ضيّقة ، ورأيت صالة سينما تفرغ من ناسها . فى المنعطف كانت إشارة أخرى ، يد سوداء مصبوغة والإصبع فيها محنية تشير : صرت أمام الدار الهولندية ، صدمتنى قذارتها . !عبرت الشارع ببطء ، توقّفت عند المدخل المصبوغ بالأحمر صبغاً رخيصاً ، دفعت فاتحةً الباب وسرت فى داخل المطعم . كان ثلاثة رجال واقفين عند المنضدة . نظروا إلىَّ وأنا أدخل ، انقطع حديثهم نظروا إلى صاحبة المحل ، ورفعت هذه نظرها من المجلة ونظرت إلىَّ . انتقلت عيناها من وجهى إلى قبّعتى ، بعدها إلى الحقيبة .

التى كنت أحملها ، انحنت قليلاً إلى أمام تتفحص حذائى وساقىَّ ، ثم نظرت فى وجهى ، حدّقت طويلاً فى شفتىّ ، كما لو كانت تحاول معرفة اسم قلم الحمرة الذى استعملته . مرة ثانية مالت إلى الأمام ، نظرت متشكّكة إلى ساقىّ ، وسألتنى بوهن :

ـ « نعم ؟ »

أزاحت يديها عن عجيزتها ، ووضعتهما على المائدة المعدنية ، ثم شبكتهما فوق بطنها ، واتخذ وجهها التحيل الأبيض تعبيراً غالمضاً .

قلت : « زوجى يتوقع مجيئى » .

استدار الرجال عنى واستأنفوا حديثهم ، وقبل أن أعطيها اسمى ، قالت صاحبة المحل :

« رقم أحد عشر ، الطالب الثانى » .

وأشارت إلى الباب وراء المائدة . اندفع أحد الرجال نحو الباب وأبقاه مفتوحًا لى . , كان شاحباً ويبدو سكراناً : شفتاه ترتعشان ، وبياض عينيه محتقن دماً . خفض عينيه حين نظرت إليه ، قلت له :

ـ « شكرا »

سمعتُ خلال فتحة الباب وأنا أصعد السلالم صوتاً يقول :

« هى ليست من خارج البلدة » .

كان لـ « فُرْغة السلّم » جدران خضر ، ووراء زجاجها يمكن أن يرى المرء ظل جدار أسود ، وعلى الطابق الثانى ، فى ممرّ صغير لغرفة الطعام العامة يتوقّد مصباح مكشوف .

طرقت على الباب (رقم ١١) ، وإذ لم يأت ردّ من الداخل ، فتحته ودخلت . كان فريد مضطجعاً غافياً . بدأ هشًّا ، طفلاً تقريباً ، ينام فى فراشه . ربما لا تصدّق أن ابن الثامنة عشرة ذاك ، قد أظهرت الحياة على وجهه كل هذا التعب . حين ينام ، تنفرج شفتاه قليلاً ، يتهدّل شعره الأسود على جبينه ويبدو وجهه كما لو كان فاقد الوعى ، إنه ينام عميقاً ،

وأنا صاعدت على السلم إليه كنت غاضبة منه ، إذ اضطرنى لأن أواجه النظرات مثل بَغِيٍّ .

لكنى الآن وصلتُ سريره ، وبحذر سحبتُ الكرسى ، وفتحت حقيبتى اليدوية ، وأخرجت سجائرى .

دخّنت وأنا جالسة إلى جانب سريره ، أبعدت عينى عنه ، حين بدأ ينتبه، تطلعت إلى ورق الجدران الأخضر ورسوم القلوب عليه . نظرت إلى الأثاث الرث ، ونفخت دخان سيجارتى خلال فُرجة النافذة المفتوحة . عدت إلى الماضى ، وأدركت ألاّ شىء تغيّر كثيرًا منذ تزوجنا .

ابتدأ زواجنا فى تلك الأيام فى غرفة مؤثثة ، هى فى أيام القبح كانت رديئة نسبةً إلى غرفة الفندق هذه . وما إن انتقلنا إلى شقة مناسبة حتى اندلعت الحرب ما زلت أفكر فيها كما لو لم يحدث شىء : ثلاث غرف ومطبخ وحمام وغرفة لكليمنز على ورق جدرانها رسوم كارتون (ماكس ـ ومورتز) وإن كان لايزال صغيرًا لا يميز الصور . بمرور الزمن نما وكبر ، فصار يدرك ويميزّ ، تلك الغرفة التى على ورق جدرانها رسوم كارتون (ماكس وموتز) لم تعد موجودة ، ومازلت أرى فريدًا واقفاً هناك ، يداه فى جيبى بنطلون سترته الرمادية يحدق فى كوم الحجارة أمامه وذؤابة من دخان تتصاعد منها . بدا فريد لايرى شيئاً ، لا يشعر بشىء ، غير قادر على أن يفهم أننا لم نعد نمتلك أى شرشف ، أى قطعة أثاث ، أى شىء ـ نظر إلىَّ وعلى وجهه تعبير رجل لم يعد يملك شيئاً . أبعد السيجارة من شفتيه ، وضعها بين شفتىَّ أخذتُ منها نفسًا عميقًا . وفى أول انفجرت بضحك هستيرى .

فتحت النافذة على سعتها ورميتُ عقب السيجارة فى ساحة المبنى .

أكوام نقاليات ترتفع إلى جانب مستنقع اكتسى صفرةً بفعل رماد الفحم الحجرى ، سقطت سيجارتى فيه ، وسمعت هسيسها . قطار يرتج فى المحطة . سمعت صوت منيع المحطة يرتفع بدون أن أفهم كلماته .

استيقظ فريد حين بدأت أجراس الكاتدرائية تقرع ، قَرْعُها جعل زجاج النافذة يتحرك ، يهتز ، وتتلقى هذا الاهتزاز ستارة معدنية فوق قاعدة النافذة ، ورقص الستارة بدوره ينتج سقسقات جانبية .

نظر إلىّ فريد بدون أن يتحرك وبدون أن يقول كلمة ، تحسر . وعرفت أنه بدأ ببطء يبتعد عن النوم .

قلت : « فريد » .

قال : « نعم » .

وسحبنى إليه وقبّلنى .

ظل يدنينى إليه حتى تعانقنا . نظر أحدنا للآخر ، وإذ أخذ رأسى بين يديه مبعدًا إياه كأنما يتفحص وجهى ، ما كان منى إلاَّ أن أبتسم .

قلت : « لنذهب إلى القداس ، أم أنك كنت . . ؟ .

قال : « كلا منذ دقيقتين . وصلتُ إليه وقتَ التبريك تماماً .

ـ إذن دعنا نذهب .

كان راقدًا بدون أن يخلع حذائية على السرير . واضح أنه نام دون أن يسحب الغطاء عليه ، وكنت أراه بردانا ً. صبّ ماءً فى المغسلة ، فرك وجهه بيدين مبللتين ، غسله ، جفّف نفسه ، ورفع سترته من الكرسى .

نزلنا على السلم يدًا بيد . الرجال الثلاثة ما زالوا واقفين عند المائدة .

يتحدث بعضهم لبعض دون أن ينظُروا إلينا . سلم فريد مفتاح الغرفة لصاحبة المنزل التى علّقته على لوحٍ وسألت :

« هل ستغادرون المكان لمدة طويلة ؟ »

قال فريد : « ساعة . »

حين وصلنا إلى الكاتدرائية كانت الصلاة قد انتهت ، وكنا تماماً فى وقت مسير موكب التقدمة إلى غلفة الكهنة : بدوا مثل شبوط أبيض يسبح ببطء فى ماء رمادى باهت . راهب مُتْعَب أدى الصلاة فى مذبح جانبى ، قالها متعجلاً ، ورفع كتفيه نافد الصبر وهو يتحرّك إلى الجهة اليسرى من المذبح ليأخذ الإنجيل . لم يكن مساعد الكاهن حاضرًا مع كتاب القدّاس . سحابات من البخور عبرت المذبح الرئيسى . ناس كثيرون يسيرون حول المجموعة التى تحضر القداس . كان أكثرهم رجلاً يحملون أعلاماً حمراء صغيرة فوق طيّات صدور ثيابهم . فى « التكريس » فزع البعض من رنين الجرس وتوقفوا . لكن أكثرهم واصلوا سيرهم ، متطلعين إلى الفسيفساء والنوافذ ، متجهين إلى المذابح .

نظرت إلى الساعة المعلقة عالياً على الجدار بجانب الأورغن ، وهى تعطى إشارات لطيفة كل خمس عشرة دقيقة . وإذ سرنا إلى الباب بعد انتهاء التبريك لا حظتُ أنَ القداس استغرق تسع عشرة دقيقة بالضبط . كان فريد ينتظرنى فى الرواق ، ذهبت إلى مذبح العذراء المباركة ، وتلوت «السلام لمريم » .

دعوت ألاّ أكون حاملاً ، مع أن خائفة من أن أصلى لذلك . كانت هناك شموع كثيرة تشتعل أمام العذراء وفى جانب حاملة شموع حديدية

كبيرة ، وضُعِتَ حزمة كاملة من شموع صُفْر . علُقَت جوارها بطاقة مُوَقَّع عليها :

« مقدمة من الدوائيين الكاثوليك »

فرع اتحاد الدوائيين الألمان .

استدرتُ إلى فريد ، وخرجنا . الشمس مشرقة فى الخارج ، الساعة الخامسة وعشرون دقيقة . كنت جائعة . أخذت ذراع فريد ، وإذ نحن نسير نازلين بخطوات واسعة ، سمعته يحرّك القطع النقدية فى جيبه .

سألنى : « هل تحبين أن نأكل فى مطعم ؟ » .

قلت : « كلا ، فى محل أكلات خفيفة . أحب أن آكل فى محلات الأكلات الخفيفة » .

قال : « إذن فلنذهب » .

واستدرنا إلى زقاق بلوشر .

بمرور السنوات دِيسَتْ أكوام النفايات فصارت تلالاً كروية صغيرة نَمَتْ عليها الأعشاب غزيرةً كثيفة ، وامتدت شجيرات خضر ـ رمادية بلمعان محمرّ تعكسه أعشاب « السنفية » المتباعدة بأزهارها الأرجوانية . كان هنا نصب تذكارى للجنرال بلوشر . وهو تمثال برونزى ضخم شديد ينظر إلى السماء بغضب ـ بقى هذا التمثال مطروحاً هنا ، فى القناة حتى سُرِقَ .

وراء بوابة حديدية أكوام قمامة لم تترك غير ممرّ ضيّق شُق عبر الخرائب . وحين أوصلنى إلى شارع « مومسن » ، حيث لا تزال بضع بنايات قائمة ، بدأت أسمع من بعد ـ وعبر النفايات ـ موسيقى المعرض . أوقفتُ فريدًا ،

وحين توقفنا صرت أسمع تلك الموسيقى بوضوح أكثر : ذلك الضجيج المجنون لآلة « الكاليوب» الموسيقية .

قلت : « فريد ، هل يحدث شىء فى المدينة ؟ » .

قال : « نعم ، بسبب الدوائيين ، هل تريدين أن نذهب ؟ أنمضى إلى هناك ؟ »

ـ « أوه ، نعم » .

أجبته وأسرعنا ، اخترقنا الناس عبر شارع « فيلدا » وحين انعطفنا ثانية وجدنا أنفسنا فجأة وسط صخب وروائح المعرض . أصوات الأورغنات اليدوية ، رائحة الحم الحادة ممزوج برائحة الفطائر ثقيلة الزيت ، والمقلية كثيرًا . هسيس أصوات المتجولين العالى والمرح ملأت نفسى بالإثارة ، وشعرت بقلبى يخفق بشدة ـ تلك الروائح ، تلك الضوضاء ، كل ذلك الاضطراب ، ذلك كله يشكل الآن تآلفاً سريًّا .

قلت : « فريد ، أعْطِنى بعض النقود . »

اخرج قطع النقود مِنْ جيبه ، سحب القطع الورقية من بين القطع النقدية طواها ، ووضعها بين أوراقه النقدية الرثّة . أهال كل القطع النقدية الصغيرة على راحتى ، بينها قطع فضيّة غليظة ، حسبتها بدقة وفريد يراقبنى مبتسماً .

قلت : « ستة ماركات وثمانون ، هذا كثير يا فريد »

ـ « احتفظى بها أرجوك » .

ورأيت وجهه الهزيل ، الرمادى المهموم ، رأيت السيجارة ذات البياض

الثلجى بين شفتيه الشاحبتين ، وعلمت أنى أحبه حقاً . هنالك عدة أسباب ، لكنَّ واحدًا من هذه أعرفه ، إن الذهاب بصحبته إلى المعرض مُرِيح .

قلت : « إذن ، سأدفع ثمن الوجبة . »

فأجاب : « أى شىء تقولين ؟ . » ..

أخذت ذراعه ، سحبته جانباً إلى كوخ اللحم ، واجهته مرسوم عليها راقصون هنكاريون ، أولأد فلاَّحون بقبعات مستديرة ، أيديهم على مؤخراتهم ، يتَقافزون حولَ الفتيات . أسندنا مرافقنا على المائدة ، فنهضت المرأة الجالسة على كرسى من النوع الذى يطوى ، إلى جانب قِدْر يتصاعد منه البخار ، وقدمَت إلينا مبتسمة .

كانت المرأة ممتلئة الجسد ، ذات شعر أسود ، يداها القويتان الجميلتان مزينتان بكثير من الخواتم الرخيصة ، وحول عنقها الأسمر المصفرّ شريط أسود من قطيفة عليه ميدالية .

قلت ، وفريد يدفع لها ماركين :

« اثنين من اللحم » .

تبادلنا الابتسام أنا وفريد ، فى حين مضت المرأة إلى الخلف ورفعت غطاء القدر .

قال فريد : « أنا اليوم تناولت اللحم» .

أجبته : « أوه ، آسفة »

« لا تبالى ، فأنا أحب اللحم » .

ووضع يده فوق ذراعى .

أوغلت المرأة مغرفتها عميقاً فى القدر ، ورفعتها مثقلةً باللحم ، ومن القدْر يتصاعد البخار الذى نَشرَ ضباباً على المرايا التى الحائط الخلفىّ .

أعطت كُلاًّ منا لفّة خبز ، ثم مسحت المرآة بقطعة قماش وقالت لى :

ـ « الآن يمكنك أن ترى كم جميلة أنت ! » .

نظرتُ فى المرآة غير المؤطرةَ ورأيتنى أبدو جميلة حقًّا . بعيدًا وراء وجهى فرقة ، رأيت فرقة رماية مضبّبة ، فرساناً يلهبون ظهور جيادهم ، وقد صُدِمْتُ حين وقعت عينى على وجه فريد ورائى فى المرآة وهو لا يستطيع تناول شىء ساخن ، الساخن يؤذى لثّته ، أرى الطريقة التى يقلّب فيها الطعام فى فمه حتى يبرد وتعبير الانزعاج الهادىء نفاد الصبر ، كل ذلك أعطى وجهه نوعاً من التخلّف الحضارى . إنه مشهد شيخوخة يفزعنى كلما بدا عليه . لكن المرآة تضبّبت مرةً أخرى والمرأة أدارت ببطء مغرفتها فى القدر.

وبدا لى أنها تعطى كمية أقل لك من أولئك الذين يقفون إلى جانبنا مِمَّا أعطتنا .

دفعنا صحوننا الفارغة ، شكرناها ، وغادرنا . أخذت بذراع فريد ثانية ، ومشينا على مهلٍ خلال الأزقة بين الأكشاك . قذفت علبة فارغة على دُمًى ذوات ابتسامات جامدة ، تهب عصيرها حين تأتى الضربة على رءوسها ، حين تقفز إلى وراء نحو كيس بنىٍّ ، حين تندفع آليًّا إلى الأمام مرة أخرى . بسعادة ارتضيتُ لنفسى أن يخدعنى صوت المنادى المدندن عند الباب ، فاشتريتُ منه تذكرة يانصيب ورحت أتابع عجلة الحظ ، عينى على الدمية

ـ الدب الأصفر الكبير ، والذى كنت آمل بكسبه ، الذى بقيت آمل بالحصول عليه منذ كنت طفلةً . مؤشِّر العجلة المهتز يشق طريقه بطيئاً خلال مسامير بالشريط ، توقف تماماً قبل الرقم الذى اخترت ، فلم أكسب الدب ، ولم أكسب شيئاً .

ألقيتُ نفسى على المقعد الضيق لحصان الفروسية المهتز ، ضغطت على قطعة ذات عشرين فينيكاً فى باطن الكف وتركت نفسى تنطلق فوق الحصان الدوّار ، وفوق السلاسل ترتفع الدائرة ببطء أعلى فأعلى دائرة حول آلة «الكاليوب» المخفية فى الجفان الخشبية لمحور اللعبة المركزى ، فأطلقت فجأة نغماتها المسعورة فى وجهى .

رأيت برج الكاتدرائية وراء الخرائب يطير من خلالى وأنا على الحصا ن، يبعد عنى خضرة العشب الكثيفة المُدلَهِمَّة ، رأيت أسطح الخيمة العليا وعليها بقع ماء المطر . وتضاعف أكثر ، أكثر دوران دوّامة فرقة الفرسان والتى كانت تسوط حصانى بعشرين فينيكاً . ألقيت نفسى فى حضن الشمس ، كلما لامسنى وهجها جلدنى شبه سوط . سمعت رنين السلسلة، صرخات النساء ، رأيت البخار ، دوامة غبار أرض المعرض تسللت فى تلك الرائحة الدهنية الزنخة ، حتى إذا هبطت من السلم الخشبى مرة أخرى غرقت بين ذراعى فريد وقلت :

« أوه ، فريد ! »

بعشرة فينيكات ، أمكننا أن نحظى برقصة على السطح الخشبى ، يحيط بنا فتيان دون العشرين من أعمارهم ، يحركون بحيوية أوراكهم ، ونحن كل منا أمسك بصاحبه قريباً منه ، ولكنا انغمرنا معاً ـ أنا وفريد ـ فى إيقاع

الرقص ، وجدت نفسى أنظر إلى الوجه البدين لعازف الترامبيت ، والذى كان نصف ياقته مخفياً تحت آلته الموسيقية ـ وكلما رفع رأسه غمز لى ، ونفخ نغمة حادة من « ترامبيته » ، الآلة التى بدت موجهةً إلىَّ .

راقبت فريدً يلعب « الروليت» بعشرة فينيكات ، أحسست بالتوتر الصامت للرجال الواقفين من حولنا لحظة يعطى مدير اللعبة العجلة وخزةً فتبدأ الكرة بالوثوب . السرعة التى ثبّتوا فيها أوتادهم ، وإلقاء فريد قطعة النقد على الرقعة الصحيحة ، يكشفان عن مهارة ، عن فهم متبادل لم أتوقعه . والكرة تتدحرج ، رأيت مدير اللعبة يرفع رأسه وتجول عيناه الباردتان بازدراء على أرض العرض . لم يخفض وجهه الصغير والجميل الصلب حتى بدأ الأزيز يخمد ، فالتقط الأوتاد ، أزلقها فى جيبه ، ودعا اللاعبين لأن يضعوا أوتادهم ، راقب أصابع الرجال الواقفين حوله ، أعطى العجلة وخزة احتقار ، زمّ شفتيه ، ونظر إلى ما حوله بضجر .

تكوّمت النقود أمام فريد مرتين ، وأخيرًا جمع النقود من المنضدة واتخذ طريقه إلىَّ .

جلسنا على سلالم الخيمة عرض ذات ستائر زُرْق . تابعنا الجموع الدائرة، ابتلعا غبارًا واستمعنا إلى موسيقى « الكاليوبات » المتنافرة النغمات ، وسمعنا صرخات « الفرسان » .

نظرت إلى الأرض المغطاة بالأقذار ، متناثرة عليها الأوراق وأعقاب السجائر والزهور الذابلة ، والتذاكر الممزّقة . وأنا واهنةً أرفع عينىَّ رأيت أطفالنا . كان بليرمان يمسك كليمنز من يده ، الفتاة كانت تمسك يد كارلا، والرضيع فى الحاملة بين بليرمان وصديقته . كانت فى أفواه الأطفال

مصاصات صفر كبيرة ، رأيتهم يضحكون ويتطلعون إلى ما حولهم ، رأيتهم يقفون عند فرقة الرماة ، اقترب بليرمان أكثر ، أخذ كليمنز مقبض الحاملة حينما رفع بليرمان بندقية . كليمنز نظر إلى المشهد من فوق كتف بليرمان . بدا الأطفال فرحين ، كانوا يضحكون حين علّق بليرمان وردة من ورق صفراء فى شعر فتاته . استداروا إلى اليمين ، رأيت بليرمان يعد بعض النقود فى راحة كليمنز ، رأيت شفتى ابنى تتحركان ، يعدّ لنفسه ، رأيته يرفع يده بابتسامة صغيرة ويشكر بليرمان .

ـ « دعنا نذهب » .

همستُ لفريد ، نهضت وسحبت ياقة سترته ،

ـ « أولادنا هنا » .

سألنى : « أين هم ؟ » .

ونظر أحدنا إلى الآخر.

« هم بيننا ، فى تلك الاثنتى عشرة بوصة من العراء ، بين عيوننا ، حيث الليلة الألف التى تطارحنا فيها الغرام . »

أبعد فريد سيجارته من فمه وسألنى بتردد :

« ما الذى سنفعله إذن ؟ » .

قلت : « لا أدرى » .

جَرَّنى مبتعدًا داخل زقاق ما بين خيمة العرض ودوَّارة حيوانات خشبية عاطلة مغطّاة جوانبها المحنيّة بالخيش . توقفنا ، ننظر بصمت إلى أوتاد الخيمة .

قال فريد : « تعالى ، ادخلى » .

وهو يرفع قطعة فاصلة من الخيمة ، جاعلاً منها فتحة بين صفحتين من الخيش ، تسلّل منها ، ثم ساعدنى لأدخل ، وجلسنا هناك فى الظلام ، فريد عى بجعة من خشب كبيرة ، وأنا إلى جانبه على حصانٍ هزّاز . وجه فريد الشاحب مقطوع نصفين بشريط من ضوء آتٍ من شقّ فى الخيش .

قال فريد : « ربما لن أتزوج أبدًا . » .

قلت له : « كلام فارغ ، لا تُسْمِعْنى ذلك . فهو ما يقوله كل الرجال » .

نظرت إليه ، وأضفت :

ـ « كم فى هذا من ترضيةٍ لى ـ لكن المرأة تنجح فى جعل الزواج ممكناً » .

ـ « نجحتِ أنتِ أكثر من معظم النساء » .

قال ذلك ورفع وجهه إلى رأس البجعة ووضع يده فوق ذراعى .

« خمس عشرة سنة منذ تزوجنا إلى الآن ، ونحن ... » .

قلت : « نعم ، زواج فخم » .

قال : « هائل ، هائل فعلاً » .

أبعد يده عن ذراعى ، وضع كلتا يديه على رأس البجعة كما أسند رأسه ونظر إلىَّ بتعبٍ :

« إننى على يقين من أنك والصغار أكثر سعادة بدونى » .

قلت : « ذلك ليس صحيحاً ، لو أنك فقط تعرف ... »

ـ « لو أعرف ماذا ؟ »

ـ « فريد ، كل يوم يسألنى الأطفال عنك عشر مرات ، وأنا كل ليلة تقريباً أبكى حين أخلد للنوم » .

ـ « أنتِ تبكين ؛ » .

قال ورفع وجهه مرة أخرى ، وراح ينظر إلىّ ، فأسِفْتُ إذ قلت له ذلك . « أقول ذلك ، لا لكى أخبرك ببكائى ، لكن لكى تعرف فقط كم أنت مخطىء »

سقط ضوء الشمس فجأة من خلال الشق فى الخيش ، وامتصه الفراغ الوسطى فى الخيمة كأنه مَرَّ خلال فلتر أخضر ، فكشف ضوؤه ، إذْ تسرّب أشكالاً دوارة ، خيولاً مكشرةً ، تنانين خضراء، بجعاً ، أمهارًا ، ورأيت عربة زفاف مبرقعة بقطيفة حمراء يسحبها حصانان أبيضان .

قلت لفريد : « تعالَ ، سنترتاح هناك أكثر » .

نزل من بجعته ، ساعدنى على تلك الحصان الهزّاز ، وجلسنا ، أَحَدُنَا إلى جانب الآخر على قطيفة العربة الناعمة . اختفت الشمس ثانية ، كنا محاطين بظلال الحيوانات الرمادية .

ـ « أنتِ تبكين ؟ » .

قال لى فريد ذلك ، ونظر إلىّ ، أوشك على وضع ذراعه حولى ، لكنه سحبها مرة ثانية .

ـ « هل تبكين لأنى هجرتك ؟ » .

قلت بصوت خافت : « بسبب ذلك ، لكن ليس بسبب ذلك وحده . تعلم أنى أكون أكثر سعادة حينما نكون معا . لكنى أيضاً أرى أنك لا تطيق

ذلك ـ كما أنك لا تكون هناك أحياناً . كنت خائفة منك ،أخاف من وجهك ، وأنت تضرب الأطفال ، أخاف من صوتك ، ولا أريدك أن تعود مثلما كنت ، ويعود كل شيء كما كان قبل أن تغادرنا . أفضل أن أرقد في فراشي وأبكي على أن أعرف أنك تضرب الأطفال ، لسبب واحد بسيط ، هو أننا لا نملك نقودًا . هذا هو سبب ضربك للأطفال ، أليس كذلك ؟ لأننا فقراء ؟ »

قال : نعم ، فقرنا جعلنى مريضاً » .

« نعم ؟ « قُلت له : « هذا هو سبب قولى لك : الأفضل أن تظل بعيدًا ـ إلاَّ إذا تغيّرت الأمور كلياً ـ دعنى أبكى . سنة أخرى وأصل أنا أيضاً إلى النقطة التى أنت فيها ، إلى ضرب الأطفال ، حيث سأكون مثل واحدة من تلكم النسوة البائسات اللواتى منظرهن وحده يفزعنى مثل طفل ، أولئك الخشنات التاعسات اللواتى يجرجرهن رعبُ الحياة الذى لا يرحم فى ممرات البنايات القذرة ، فهن إمَّا يضربن أطفالهن أو يتخمنهم بالسكريات ، وفى الليل يفرشن أنفسهن ليعانقهن سكارى مُحطَّمون ، يعودون إلى بيوتهم تفوح منهم رائحة السجق المقلى ، وقد يجلب أحدهم سيجارتين مدعوكتين ، يدخنانهما معاً ، يدخنان وأحدهما بجانب الآخر فى الظلام بعد انتهاء المضاجعة . أوه كم أحتقرهن ـ تلكم النسوة ـ سامحنى الله على ذلك ـ أعطنى يا فريد سيجارة أخرى » .

سحب العلبة بسرعة من جيبه وقدمها إلىَّ ، أخذ منها واحدة لنفسه ، وحين اشتعل عود الثقاب ، رأيت وجهه التاعس فى ذلك الأصيل المخضر حيث دوّارة الألعاب .

قال : « استمرى . أرجوك استمرى . . »

ـ « ربما أبكى لأنى حامل » .

ـ « أنتِ حامل ؟ »

« ربما تعرف كيف أكون حين أكون حاملاً . ما زلتُ غير مصدقة أنى حامل . لذا شعرت بالتعب من الخيول . أُصلى كل يوم وأدعو الله ألاّ أكون حاملاً . وإلاَّ ، هل تريد طفلاً آخر ؟ » .

بسرعة قال : « كلا ، كلا » .

قلت له : « لكن إن جاء فأنت أبوه ، أوه يا فريد ، ليس لطيفاً أن تسمع ذلك » .

وأسفت لأنى قلت له ذلك . فقد ظل يدخن ولم يقل شيئاً ، نظر إلىَّ ، وجلس متكئاً يدخن فى العربة . لم يقل غير :

« استمرى ، أرجوك استمرى ، أخبرينى بكل شىء » .

قلت : « أنا أبكى أيضاً بسبب أن الأطفال جد هادئين ، إنهم صامتون يافريد . معلوم أن عليهم الذهاب إلى المدرسة ، وهم يأخذون هذا الأمر بكل جد ـ إنه أمر يخيفنى ، كذلك الطريقة الأمينة التى يؤدون بها واجباتهم ـ تلك تخيفنى أيضاً . الحمقى الصغار يقلقون على امتحاناتهم ، يستعملون الكلمات نفسها التى استعملتها أنا حين كنت فى سنهم . إنها مخيفة جدًّا يافريد كذلك الفرح الذى يعلو وجوههم حين يشمّون رائحة الروست فى القدْر الصغير يغلى فوق الموقد ، والطريقة الهادئة التى يحزمون بها حقائبهم المدرسية كل صباح ، وكيف يضعونها على ظهورهم ، وسندويتشاتهم فى

أكياس غدائهم . وإذ يخرجون إلى المدرسة ، أدبُّ أنا غالباً فى الممر ، يافريد، أقف عند النافذة أتابعهم بعينىَّ طالما استطعت أن أراهم : ظهورهم الهزيلة محنية قليلاً من ثقل الكتب والدفاتر . هنالك يذهبون يمشى أحدهم إلى جانب الآخر حتى المنعطف ، فيستدير كليمنز مفترقاً عنهم » وأقدر أن أرى كارلا مدة أطول قليلاً وهى تتدحرج فى شارع «موتسارت» و الرمادى ، بمثل مشيتك ، يا فريد ، يداها فى جيبى سترتها ، ربما هى تفكر كثيرًا فى رسم الحياكة أو تأريخ وفاة شارلمان . أبكى لأن توقهم يذكرنى بتوق أطفال كنت أكرههم أيام كنت فى المدرسة ، أولئك الأطفال يشبهون كثيرًا الطفل يسوع فى صورة « العائلة المقدسة » . هم يلعبون إلى جانب منصة نجارة يوسف . مخلوقات بسيطة لطيفة مجعدة الشعر، فى الحادية عشرة أو العاشرة ، يسقطون قشارات الخشب الملتفة من بين أصابعهم ، قشارات الخشب تلك تشبه خصلات شعرهم » .

قال : « أطفالنا ، يشبهون الطفل يسوع فى صور العائلة المقدسة ؟ »

نظرت إليه وقلت : « كلا ، كلا ، لكن حين أراهم يسيرون فى الطريق تلك المشية ، فكأنهم يمتلكون بعضاً من ذلك التواضع الخالى من الأمل والحس والذى يجعلنى أذرف دموع الخوف والتحدى »

قال : « يا إلهى الطيب ـ ولكن هذا هراء ـ أظن أنكِ ببساطة تحسدينهم على طفولتهم » .

ـ « كلا ، كلا ، يا فريد ، أنا خائفة لأنى لا أستطيع حمايتهم من أى شىء لا من قسوة البشريةولا من قسوة السيدة فرانك ، هذه التى من أجل تسلمها الكامل لجسد المسيح كل صباح ، تندفع من مكتبها متى ما

استعمل أحد الأطفال المغاسل لتتثبّت من سلامتها ، وتبدأ بالتذمر فى الممر إذا ما قطرة ماء سقطت على ورق حائطها . أنا أخاف قطرات الماء ـ فكلما سمعت الأطفال يسحبون «السيفون» أتفجّر عرقاً ، لا أستطيع أن أقول لك ، فقد تعرف أنت ما يجعلنى حزينة جدًّا » .

ـ « ما يجعلك حزينة ، بكل بساطة ، هو أننا فقراء . ولا أستطيع فعل شىء يريحك . لا مفرّ . لا أعدك بأننا سنمتلك يوماً مالاً أكثر . أوه ، ستعجبين كم هو جميل العيش فى دار نظيفة ! أن نكون بلا أية هموم مالية ـ ستعجبين » .

قلت : « أنا فى الحقيقة أتذكر أن كل شىء كان نظيفاً فى بيت والدىّ ، وأن الإيجار كان يُدفع دائماً فى حينه . وبالنسبة للنقود ـ حسنا ، حتى نحن يا فريد ، أنت تذكر ... » .

« أنا تذكر » ، وتفجر منفعلاً : « ولكننى لا أحمل عواطف كثيرة للماضى . ذاكرتى مكونة من ثقوب ، ثقوب كبيرة ، يجمعها معاً نسيج رقيق ، رقيق جدًّا ، مثل خيوط ناعمة ، طبعاً أتذكر ، كانت لنا شقة يومًا مّا ، غرفة حمام خاصَّة ، وعندنا نقود ندفع منها لأى شىء نريد ، ما الذى كنت أفعله تلك الأيام ؟ » .

قلت : « فريد . أنت لا تتذكر ما كنت تفعله تلك الأيام ؟ » .

قال : « ذلك صحيح ، أنا لا أتذكر ... » .

وطوقنى بذراعه .

« كنت تعمل فى مصنع ورق الجدران » .

قال : « طبعاً ، وثيابى تفوح منها رائحة الصمغ ، وكنتُ آتى بنماذج تالفة من ذلك الورق ، نماذج باطلة ، لكليمنز وكان يمزقها فى سريره المعدنى . أتذكر ، لكن ذلك لم يستمر طويلاً » .

أجبته : « سنتين ، حتى جاءت الحرب » .

قال : « طبعًا بعدها جاءت الحرب ، ربما كان أفضل لكِ لو تزوجت رجلاً مقتدرا ، واحدًا من أولئك الأشخاص المجدّين ، مع درجة محترمة من الثقافة » .

قلت له : « . . تَوَقَّفْ عن هذا . . » .

كنتما تجلسان معاً فى المساء ، تقلبان كتباً لطيفة ، لتيسر لك ما تودين ، كانت غرف نوم الأطفال مؤثثة حسب آخر الموديلات ، نفرتيتى على الحائط ، ومذبح آيزنهايم على العوارض الخشبية ، وعبَّاد شمس فان جوخ ، طَبْعَةً من الدرجة الأولى فوق سرير الأبوين ، طبعاً إلى جانب مادونا بيورون ، ومسجل فى محفظة حمراء ، قوى وبديع ، أصحيح ؟ أوه ، كم يزعجنى دائماً ذلك الهراء ، تلك البيوت الأنيقة لا أدرى لماذا تزعجنى » .

وفجأة سألنى : « ما الذى تريدينه فعلاً ؟ »

نظرت إليه وأحسست لأول مرة ، ومنذ زواجنا أنه كان غاضباً .

قلت له : « لا أدرى مالذى أريده ؟ »

ورميت سيجارتى على الأرض الخشبية إلى جانب العربة ساحقةً إياها .

« لا أدرى ماذا أريد ؟ لكنى لم أقل شيئاً عن نفرتيتى ، لا شىء عن مذبح آيزنهايم ، مع أنى أحمل شعورًا ضدهما . لم أقل شيئاً عن رجال

مقتدرين ، لأنى أكره الرجال المقتدرين ، فشعور الاقتدار فيهم يُنْتِنُ حتى أنفاسهم . لكنى فى الحقيقة أردت أن أعرف ما الذى تهتم به جدّيًّا ، لا أرى شيئاً ، أى شىء مِمَّا يأخذه الرجال الآخرون بجد ، اسأل إن كانت لك أشياء تهتم بها أكثر من سواك . فأنت بلا حرفة مثلاً ، وكيل أدوية مرةً ، مصور ، ثم عملت فى مكتبة ، مؤسف أن تُرى فى مكتبة لأنك لا تعرف حتى كيف تمسك الكتاب بصورة صحيحة ، ثم فى مصنع ورق الجدران ، وعامل شحن فى سفينة ، صحيح ؟ وأما كونك عامل بدالةٍ ، فقد تعلمت ذلك فى أثناء الحرب » .

قال : « أوه ، كفِّى عن ذكر الحرب ، إنها تزعجنى» .

قلت : « حسناً ، كل حياتك ، كل حياتنا ، منذ كنت معك ، قضيناها على مقاعد مطاعم الأكلات الخفيفة ، فى أكواخ بيع اللحم فى حانات متواضعة ، فنادق الدرجة الخامسة ، فى ملاعب الأطفال ، وفى تلك الحفرة المغضنّة التى نسكن فيها منذ ثمانى سنوات ... » .

« أكمل : وفى الكنائس » .

قلت : « حسناً ، وفى الكنائس ، نعم » .

ـ ولا تنسى المقابر ! »

ـ « لستُ ناسية المقابر ، ولم أنسها حتى فى رحلاتنا ، هل أبديت شيئاً من الاهتمام فى الثقافة ؟ » .

ـ « الثقافة ، لو أخبرتنى ما هى تلك ، كَلاَّ أنا لا أهتم بها . أنا أهتم بالله ، بالمقابر ، بكِ ، بالمطاعم السريعة ، بملاعب الأطفال وفنادق الدرجة الخامسة » .

ـ « لا تنسَ الكحول » .

ـ « كلا ، لا أنسى الكحول . ألقى نفسى فى السينمات وعند مكنات البنبول » .

قلت : « وأطفالنا ؟» .

ـ « نعم ، الأطفال ، أنا أحبهم جدًّا جدًّا ، ربما أكثر مِمَّا تظنين ، أنا فعلاً أحبهم كثيرًا جدًّا ، لكنى الآن فى الرابعة والأربعين تقريباً ، ولا أستطيع أن أقول لك كم متعب فكرى بذلك » .

قال هذا ، ونظر إلَىَّ فجأة وسألنى : « هل تشعرين بالبرد ؟ أنغادر المكان؟ » .

قلت : « كلا ، كلا ، استمر أرجوك ، استمر . » .

قال : « أوه ما جدوى ذلك ؟ لنتوقف . لماذا الإزعاج ، دعينا بعيدًا عن الخصام ، أنت تعرفيننى ، وتعرفين أنى مفاوض ردىء . وفى سنّى . يكون قد فات أوان التغير . لا أحد يتغير أبدًا . الشىء الوحيد الذى يقع موقع الاستحسان منى هو أنى أحبك » .

فقلت : « نعم ، وليس كثيرًا عليك أن تكتب لبيتك عن ذلك » .

سألنى : « هل نمضى الآن ؟ » .

قلت : كلا ، دعنا نمكث هنا قليلاً ، أم أنت تشعر بالبرد ؟ » .

قال : « كلا . ولكنى أريد أن أرجع للفندق معك » .

قلت : « خلال دقيقة واحدة . لكن هناك أشياء قليلة أخرى يجب أن تخبرنى عنها . أم أنك لا تريد أن ... »

أجاب : « استمرى ، اسألى » .

أملتُ رأسى على صدره ، لم أقل شيئاً ، وبقينا نسمع أصوات «الكاليوب» صرخات راكبى الخيول الخشبية ، والصيحات الخشنة للمشرفين على الألعاب .

سألته : « فريد ، هل تأكل بصورة مُرْضيِةَ ؟ افتح فمك قليلاً » .

أدرتُ رأسى فتح هو فمه ، رأيت اللثّة الحمراء الملتهبة ، لمست أسنانه ، وأحسست كم هى رخوة

قلت : « منابت الأسنان ، خلال سنة يتحتم عليك وضع طقم صناعى» .

سألنى بقلق : « هل تعتقدين ذلك فعلاً ؟ » .

ربّت على شَعرى ، وأضاف :

ـ « نسينا الأطفال » .

وصمتنا مرة أخرى ، كنا نصغى إلى الضجيج الآتى من الخارج : وقلت :

ـ « سيكونون بخير ، لستُ قلقة على الصغار ، إنهم يتجولون مع هذين الشابين ، لن يحدث لهم شىء » .

همهمت وأنا أُدنى رأسى ليكون على صدره : « فريد ، أين تسكن بالضبط ؟ » .

ـ « فى المُجمّعات فى شارع ايشخر » .

« المُجمّعات ؟ لا أعرفها » .

سألنى : « ألا تعرفين المُجمّعات ؟ والناس الذين يعيشون فى الطابق الأسفل ، فى بناية الأب ، الناس الذين يمتلكون المخزن الدائم ؟ » .

ـ « آه تلك ، ذو الخصل الشقر ولا يدخّن ، هنالك تقيم ؟» .

« فى الشهر الماضى ، اعترضت طريقه فى بار ، وأوصلنى . كنت مخموّرا، فأوصلنى إلى بيته ومنذ ذلك الوقت بقيت معهم » .

ـ «أعندهم غرفة لك ؟ »

ـ لم يجب . بدأت خيمة العرض المجاورة لنا تُفْتَحُ الآن لبدء العمل . شخص بدأ يدق مثلثاً ، وصوت خشن فى مكّبر الصوت :

« تقدموا ! تقدموا ! شىء للأولاد ! »

سألته : « فريد ، ألم تسمعنى ؟ » .

ـ « سمعتك . المبانى فيها كثير من الغرف . ولهم فيها ثلاث عشرة غرفة . »

ـ « ثلاث عشرة غرفة ؟ » .

ـ « نعم ، « بلوك » العجوز يعمل مراقباً هناك ، والدار خالية لثلاثة أشهر، المبنى يعود لرجل إنجليزى يدعى « ستربر » على ما أظن . إنه جنرال أو عضو فى عصابة ، أو كلاهما ، وربما هو شىء آخر ، هذه كل معرفتى عنه ، هو بعيد منذ ثلاثة أشهر ، آل بلوك يهتمون بالدار ، يعتنون بالثيّل لكى يبدو فى أحسن حالٍ فى الشتاء . فى كل يوم يمضى بلوك العجوز فى الحديقة الكبيرة مع مجموعة من حوادل التسوية وماكينات الثيّل ، وكل ثلاثة أيام تصل بآلات من الأسمدة الصناعية . المبنى مكان بإذخ المحتويات ،

أخبرك : عدد الحمامات وأشياء ، أربعة ، على ما أعتقد ، وأحياناً يسمحون لى بأن أتمتع الحمَّام فى أحدها . وهنالك مكتبة تحتوى كتباً كثيرة ، كميات من الكتب ، إنها كتب جيدة ، كتب فخمة ، وغرفة رسم ، ثم هنالك غرفة للخلوة ، غرفة طعام ، غرفة للكلب ، غرفتا نوم فى الطابق الأعلى ، واحدة للنّهاب أو أى شىء آخر هو واحدة لزوجته ، وثلاث للضيوف .

قلت له : « توقف يا فريد ، توقف أرجوك . »

قال : « أوه ، كلا ، لن أتوقّف ، لم أخبرك عنها من قبل ، حبيبتى ، لأننى لا أريد إثارتك ، أنا فعلاً ، لا أريد ذلك . لكن الأفضل لك الآن تسمعيه منى . علىَّ أن أتكلم عن الدار ، حلمتُ بها ، سكرتُ لكى أنساها ، لكن حتى وأنا سكران لا أستطيع نسيانها . كم غرفة أخبرتك فيها؟ ثمانى أو تسع غرف ، لا أتذكر . وهنالك ثلاث عشرة غرفة ، لو تَرَيْنَ فقط غرفة الكلب ، إنها أكبر قليلاً من غرفتنا ، أكبر بقليل ، لا أريد الباطل ، ربما هى أوسع بعشر أقدام مربعة ، ليس أكثر أبداً ، فلنكن منصفين ، ليس أفضل من أن يكون الإنسان منصفاً . سنخط كلمة «إنصاف» على لافتتنا الرقيقة ، أليس كذلك يا عزيزة قلبى ؟ » .

ـ « أوه يافريد ، هل تقصد إثارتى ؟ »

ـ « أنا أثيرك ؟ إننى أحدثك عن الدار ، وهذا فعلاً ما قلتُ . بيت الكلب ، واسع تسعة هذه البوفيات فى بيوت صفوة المثقفين ، ومثلما هناك غرف حمام كاملة ، هنالك دشّات معزولة أيضاً ، لم أحصها : أريد أن أكون منصفاً ، أريد أن يأخذنى السكر وأنا على حق ، فأنا لا أحسب حجيرة الدش غرفة . إن ذلك ليس عدلاً ، ونحن نريد تحقيق العدالة إلى

جانب الحق فى شعارنا المتواضع . ليس هذا هو الأسوأ يا عزيزتى ـ لكن القلب خال ـ أوه كم هو مدهش ذلك الثيّل الممتد وراء تلك الفِلَلِ العظيمة، فقط لو يسمحون لطفلٍ بأن يلعب عليه ، أو حتى لكلب . يجب أن نزرع ثيلاً منبسطاً لكلابنا يا حبيبتى . لكن هذه الدار خالية . هذا الثيل لم يُسْتَعمل ، إذا سامحونى على استخدام هذه الكلمة فى هذا المجال . الأَسِرَّة خالية ، وفى أعلى البيت ثلاث غرف أخرى ، واحدة لمدبرة المنزل واحدة للطباخ واحدة للخادم ، الرجل ، والسيدة الطيّبة تشكو دائمةً من أن الفتاة الخادمة بحاجة إلى غرفة ، وأنها الآن تنام فى غرفة الضيوف . يجب أن تتذكرى هذا يا حبيبتى حينما نبنى دارنا ونعلّق عليها شعارنا فى العدالة الحق . »

قلت : « فريد لا أستطيع احتمال المزيد » .

« نعم ، تستطيعين ، لقد أنجبت خمسة أطفال ، وتستطيعين ، يجب أن أنهى كلامى . لا أستطيع التوقّف الآ ، يمكنك المغادرة إذا شئت ، ومع أنى لا أريد أن أظل معك ، الليلة ، لك إذا لم ترغبى بالإصغاء إلىَّ فيمكنك أن تغادرى المكان إنى أعيش منذ شهر فى هذه الدار ، وَعلىَّ ، ببساطة ، أن أحدثك عنها ، أحدثك أنت ، الشخص الذى يسرنى أن أبعده عن مثل هذا الحديث ، أردت أن أبعدكِ عنه يا عزيزة قلبى ، لكنك سألتنى ، ويجب الآن أن تسمعى كل الجواب .

السيدة الطيبة قامت فعلاً بنوع من محاولات الانتحار بسبب هذه الغرفة التى تحتاج إليها الخادمة . عليكِ أن تُقدرى مَدَى الحساسيّة التى وصلوا إليها ، وأى شخص حسّاس هى ، وأنواع المتاعب التى تعانيها ، لكنهم ارتحلوا الآن ، رحلوا لثلاثة أشهر ، هم عادة يمضون تسعة أشهر من كل

سنة بعيدًا عن بيتهم ، السلاّب العجوز ، أو أى إنسان يعيش هناك ، حدث أن كان أحد المهتمين الحقيقيين بـ دانتى من القلة الذين تبقّوا لنا ، أحد القلة الذين يمكن أن نأخذهم مأخذ الجد ، تماماً مثل راعى أبرشيتنا . هى حقيقة ، آمل باعتبارك مسيحيةً مثقّفة أن تكونى على علمٍ بها . تسعة أشهر فى السنة ، الدار خالية . خلال هذا الزمن يظل العجوز « بلوك » حارساً على الثيّل ، وهو الذى يرعاه ، مادام ليس فى الدار ما هو أكثر روعة من الثيل المرتّب . أرضية غرفة الكلب يجب ألا تكون مشمّعة ، وألاّ يسمح بدخول أطفال فى الدار » .

صوت خشن فى الغرفة المجاورة صاح :

ـ « اصعدوا ، هيا أيها القطيع اصعدوا ، لا شىء للأولاد ، مانويلا ، أحلى شىء صغير هذا الجانب من السماء ! » .

همست : « فريد لماذا لا يسمح للأطفال بدخول الدار ؟ » .

« لا يسمح للأطفال بدخول الدار ، لأن الزوجة لا تحبهم ، إنها تنفر من الأطفال ، وهى لديها حساسية لوجود أى منهم فيها ، تشمّ رائحتهم حتى بعد تسعة أشهر . سبق لبلوك وهو المحارب القديم المعوّق أن ترك مرة طفلين يلعبان على الثيلّ . تركهما الرجل فى السرداب ، وحين عادت الزوجة اكتشفت ذلك ، فاشتعلت غضباً . هذا هو سبب حذر « بلوك » الشديد . سألته مرةً أن كان ممكناً أن يزورنى أطفالى يوماً : فصار لونه أبيض مثل الورقة وقال : أنا مسموح لى أن أسكن معه على افتراض أنى أساعده على الاهتمام بالثيل ، ولأنى أعمل على جعل جهاز التدفئة فى هيئة جيدة . لى حجرة صغيرة فى الطابق الأرضى بعيدة عن الصالة ، هى فى الحقيقة غرفة حفظ

القبّعات والمعاطف . حينما أستيقظ فى الصباح ، تقع عيناى على لوحة ألمانية قديمة ، بألوان ناعمة قديمة : نزُل ، أو ما يشبه ذلك .

شعرت برغبة فى سرقة واحدة من هذه الصور ـ هناك الكثير منها فى المكتبة ـ لكنهم يراقبونها مراقبة دقيقة ، كما أنه ليس إنصافاً بالنسبة لبلوك . . »

« مانويلا ستغنى عن الحب ! » ، صاح صوت من الغرفة المجاورة :

ـ « حتى بلوك يعتقد بأن الزوجة امرأة سحاقية » .

ـ « أوه ، يافريد ، ألا تكفّ ، هل نذهب إلى الفندق ؟ » .

ـ « دقيقة أخرى فقط ، عليك أن تستمعى لى دقيقة أخرى ، بعدها سنمضى وستعرفين أين أعيش ، وكيف أعيش . أحياناً يُفَاجِئُنَا راعى الأبرشية فى الأماسى إنه الشخص الوحيد المسموح له بدخول الدار . كل أدب دانتى ملك يده . بلوك لديه أوامر بضمان راحته وتوفير التدفئة له ، وإسدال الستائر ، وقد رأيته أكثر من مرةٍ ، راعى الأبرشية هذا ، وفى وجهه متعة ناعمة ، وفى يده كتاب ، وإبريق شاى إلى جانبه ، مع دفتر ملاحظات وقلم . سائقه يجلس منتظراً فى الطابق الأسفل ، تحت معنا فى السرداب ، يدخن غليوناً ، ويخرج بين وقت وآخر يتفقّد السيارة . حين يتهيأ الراعى للرحيل يقرع الجرس ، فيقفز السائق على قدميه ، ويخرج بلوك أيضاً ، يسمح لنفسه بدعوته « رجلى الطيّب » ، فينفحه هذا بشىء . هذا كل ما عندى . نستطيع الآن أن نمضى إذا شئتِ . هل تريدين الذهاب؟» .

أشرتُ له برأسى غير قادرة على الكلام : غلبتنى دموعى . كنت مرهقة

جدًّا ، ولا تزال الشمس مشرقة فى الخارج ، بدا كل شيء قاله لى فريد زائفاً لأنى أحسست بالكراهية فى صوته . وفى الغرفة المجاورة صاح الصوت فى مكبرة الصوت :

ـ « أيها السادة ، فى الوقت المحدد لتروا مانويلا ، لتسمعوها ، الصغيرة العزيزة التى ستفطّر قلوبكم ! » .

سمعنا شخصاً يتسلّق إلى أرض الألعاب من الجهة الأخرى . نظر لى فريد : فُتِحَ باب فى العمود الوسطى وأُطبِقَتْ بقوة ، اشتعل ضوء ، وابتدأت « الكاليوب » عبر مكبرات الصوت فى أرض الألعاب . جرى الضوء إلى الداخل ، وكانت هناك يد تلفّ ستارة الخيش ، وفى العمود الأوسط فتحت نافذة ، نظر إلينا رجل شاحب طويل الوجه ، وقال :

ـ « هل تريدان ركوباً أيها الرعاع ؟ الركوب الأول مجاناً طبعاً » .

خلع قبعته ، فانهال شعر أشقر على جبهته ، حك رأسه ، وأعاد وضع قبعته ، ونظر إلىَّ بهدوء . كان وجهه حزيناً وإنْ كان يبتسم ، ثم نظر إلى فريد وقال :

« كلا ، كلا ، لا أظن زوجتك تحبها » .

قال فريد : « حقًّا ؟ » .

ـ « كلا ، لن تحبها » .

حاول أن يبتسم لكنه لم يفلح ، وهز كتفيه . نظر فريد إلىَّ . أغلق الرجل النافذة ، دار حول « الكاليوب » باتجاهنا ، ووقف إلى جانبنا : كان طويلاً كما أن سترته قصيرة جدًّا ، وذراعاه شديدا البياض . نظر إلىَّ نظرة فاحصة ، وقال :

ـ « إننى متأكد ، إن زوجتك لا تحبها . لكنى يمكن أن أنتظر إنْ شئتما أن ترتاحا مدة قصيرة أخرى » .

قلت : « أوه ، كلا ، لقد عزمنا على الرحيل » .

فى أثناء ذلك بدأت قطع الخيش تُطْوَى وكان بضعة أطفال يتسلقون ليركبوا الخيول ، وليصعدوا فوق البجع . نهضنا وخطونا نازلين . رفع الرجل قبعته ، ولوّح لنا بيده وصاح :

« حظًّا سعيدًا ، إذن حظًّا سعيدًا ! » .

رددت عليه : « شكرًا » .

لم يقل فريد كلمة . سرنا ببطء عبر أرض الألعاب ، بدون أن ننظر إلى الوراء . قرّب فريد ذراعى إليه أكثر ، وقادنى إلى شارع مومسن . سرنا على مهل فى أمكنة ملأى بكسر الحجارة ، واجتزنا الكاتدرائية باتجاه الفندق . لا يزال الهدوء يعم الشوارع حول المحطة ، ولا تزال الشمس مشرقة ، ضوؤُها يكشف الغبار الذى رقد فوق الحشائش النابتة بين الأنقاض .

وارتفع إيقاع خيول الألعاب فى داخلى ، وأخذت أشعر بالوهن . همستُ :

« فريد ، يجب أن أنام أو أجلس .

رأيت قلقَهُ ، أحاطنى بذراعه ، وقادنى داخل بناية مهّدمة ، جدرانها مسودّة من حريق ، جدران عالية أحاطت بنا « مختبر أشعة إكس إلى اليسار» عبارة تشير إلى مكا مًّا . قادنى فريد خلال بابٍ مفتوح أجلسنى على بقايا جدار . رحت أنظر إليه بوَهَنٍ وهو يخلع سترته . ثم أرقدنى وطوى سترته ليريح رأسى عليها .

أحسست بجسدى على شىء ناعم وبارد ، تلمّست طريقى إلى طرف المبنى ، تلمست القرميد ، وهمست :

« يجب ألاّ أمضى إلى الألعاب ، لكنى أحبها كثيرًا ، أحب الركوب عليها» .

« هل آتى لكِ بشىء ؟ » سألنى فريد برقة وأكمل : أُحْضِرُ لكِ بعض القهوة ، لسنا بعيدين عن المحطة »

قلت : « كلا ، حسبك أن تظل معى . أنا متأكدة من أنى سأتمكن من المشى إلى الفندق خلال دقائق . حسبك أن تظل معى ، يافريد » .

ـ « أجل » .

قال فريد ذلك ووضع يده على جبينى .

نظرتُ إلى الحائط الرمادى المخضرّ ، الملطخ بالطين الأحمر ، حيث يقبع تمثال محطّم ، ولوحة لم أستطع قراءتها . كنت لحظتها أستدير أولاً ببطء ، فى دائرة وقدماى هما المركز الثابت لدائرة يرسمها جسدى ، هو الآن أسرع أسرع . هى حالة تشبه ما فى السيرك قليلاً ، حيث الفتاة الجميلة يحملها من قدميها ويدوّرها مُجالدٌ قوى .

فى البداية كنت أميز الجدارَ المخضرّ ذا اللطخ الحمراء التى خلّفها التمثال عليه ، وفى الجهة الأخرى كان الضوء الأبيض موقدًا فى النافذة المفتوحة ، كان يعكس شظايا بيضاً وخُضْرًا أمام عينى ، لكن خطوط حدوده غمضت ، والألوان تداخلت فى بعضها ، والمزيج الشاحب من الأصفر والأبيض دار أمامى ، أو أنا أمامه ، لا أدرى أى الحالين ، حتى تسارعت الألوان فكونّت ومضاً لا لون له تقريباً . وإلى أن تباطأت الحركة .

فأدركت أنى لم أكن أتحرك ، وأن الحركة فى رأسى وحده ، رأسى يدور ، يهتز، وأحياناً يبدو واقعاً إلى جانب جسدى بدون أن أكون متصلةً به ، ثم هو عند قدمى ، واستمر ذلك لبضع دقائق ، انتَمى بعدها إلىَّ واتصل بأعلى رقبتى .

بدأ رأسى يتدحرج حول جسدى ، لكن ذلك لم يك حقيقيًا ، تلمّست حنكى بيدى ، لمسته الكرة العظيمة ، حتى فى اللحظات التى بدا فيها رأسى مطرحا عند قدمى ، كنت أشعر بحكى . لعل عينىَّ هما اللتان تتحركان ، لا أدرى ، الشىء الحقيقى الوحيد هو الدوار ، حموضة لاذعة صعدت إلى بلعومى، ثم انسحبت تصعد ببطء مرة ثانية . أطبقت عينىَّ ، ولا جدوى من ذلك . لا رأسى وحده استدار ، بل أحسست بصدرى وساقىَّ يرتبطان بتلك الدورات الحُمْقِ ، وشكّلت جميعاً دوائر بالية مجنونة جعلت الغثيان أكثر شدة .

لكنى حينما أبقيت عينىَّ مفتوحتين ، أستطيع القول : إن ذلك القسم من الجدار ظل فى مكانه ، وكما هو : قطعة من جدار مصبوغة بالأخضر ، حدودها دكناء اللون فى الأعلى . وبعض كلمات مَّا استطعتُ تمييزها مكتوبة مصبوغةبالأخضر ، دكناء اللون فى الأعلى .بعض كلمات مَّا استطعتُ تمييزها مكتوبة ومصبوغة بالنبى القاتم فوق الأخضر الخفيف . تلتمُّ الحروف أحياناً كأنها حروف ضوئية على لوحة فحص البصر ، بعدها تنتفخ سجقاً بنيًّا قاتماً ، تنتشر إلى الخارج بسرعة شديدة ، حتى لا يمكن بعد ذلك إدراك شكلها أو معناها ، تنفجر من بعد لتصبح فقاعة بنية على الجدار ، لا تخضع لأية قراءة ، و من ثم وبعد دقيقة ـ تلتمّ مرة ثانية حتى تصبح هباءاتٍ طائرةً صغيرةً ، لكنها لا ترتعش .

إنه الدوار ، ذلك هو المحرّك الذى كان يدوّرنى ، هو محور خيول الألعاب الدوّارة . وكانت انتباهةً صَادِمَة ، أدركت فيها أنى كنت نائمة متمددةً عى الأرض تماماً ، وعلى البقعة السابقة التى استرحت عليها دون أن أتحرّك بوصةً واحدة عنها . أدركت هذا حين توقف الدواء لحظة . كل شىء كان هادئاً . . كل شَىء كان فى مكانه الملائم مرة أخرى ، رأيت صدرى ، الجلد البنى القذر لأحذيتى ، ووقعت عيناى على كتابة الحائط ، والتى استطعت الآن أن أقرأها :

« طبيبك سيعينك إنْ أعانه الله »

أطبقت عينى ، بقيت كلمة « الله» معى ، فى البداية كانت ثلاثة حروف كبيرة ، بنيّة قاتمة وراء أجفانى المطبقة ، ثم لم أعد أرى الكتابة ، وبقيت معى بشكل كلمة ، غطست فىَّ ، بدت تسقط أعمق وأعمق ، وأكثر عمقاً، دون أن تصل إلى القاع ، وفجأة صعدت إلى أُعلى ، صعدت معى إلى السطح ، ليست كتابة ، لكنها فقط كلمة« الله » .

بدا أن الله وحده هو الذى بقى معى فى هذا الدوار الذى غشى قلبى ، وملأ أعصابى ، كان يدور معى مثل الدُّمَى . . غمرنى عَرَقٌ بارد ورعب مدمّر كانت هنالك لحظات فكرت فيها فى فريد ، والأطفال ، رأيت وجه أمى ، والرضيعين ، مثلما أراهم فى المرآة ، لكنهم جميعاً انزاحوا بعيدًا فوق هذا المد من الغثيان ـ ملأتنى لا مبالاة بهم ، بقيت لا شىء معى غير كلمة « الله» .

بكيت ، لم أعد أرى شيئاً ، لم أفكر فى بشىء غير تلك الكلمة المفردة .

دموع ساخنة غزيرة تفجرت من عينى على وجهى . ومن مجرى الدموع

على حنكى وعنقى ، والتى ما أحسست بها ، أستطيع القول أنى كنت نائمة على جنبى . . مرةً أخرى بدأت أدور ، أسرع من قبل ، ثم اطَّرَحْتُ ساكنة تماماً ، وانحنيتُ فوق حافة الجدار المهدّم وتقيأت فى الحشائش الخضر المغبّرة .

لمس فريد جبهتى كما اعتاد أن يفعل . سألنى بحنو :

ـ « هل تشعرين بتحسن الآن ؟ » .

ـ « نعم ، أشعر بأنى أحسن » .

أجبته ومسح حانياً فمى بمنديله .

ـ « فقط أشعر بأنى متعبة جدًّا » .

قال : « يمكنك أن تنامى الآن ، إنها بضع خطوات من الفندق .

قلت : « نعم ، أنام » .

خالطت شحوبَ وجهها عتمة جعلت جلدها يبدو قريباً من السُمْرة ، كما أن بياض عينيها اكْتَسَى بلون سيىء . سكبت بعض الليمون ، شربته كله ، تأخذت يدى وضغطتها على جبينها .

سألتها : « هل أطلب طبيباً ؟ »

قالت : « كلا ، أنا بخير بالآن . إنه الجنين . كان يقاوم مجريات منطقنا، الفقر بانتظاره » . فأكملت : « المقاومة ، إنه زبون مستقبل للدوائيين ، يصير أبرشيًّا مدللا . لكن سأدلّله » .

قالت : « ربما يصير راعى أبرشية ، وليس أبرشيًّا عاديًّا ، قد يصير دارساً لدانتى » .

« أوه « كيت » لا تحاولى أن تكونى فكِهَة ، كيف تعلمين ما سَيؤُول إليه أطفالنا ؟ قد تكون لهم قلوب من حجر ، قد يبنون مقصورات لكلابهم ، ويمقتون الأطفال . لعل المرأة التى تمقت الأطفال كانت من قبل واحدة بين خمس عشرة كن يعشن فى مكان أضيق مما لكلبها الآن، لعلها . . . » .

لم تتكلم « كيت » صمتت ، قَرْعٌ متكرر يبدأ فى الخارج ، انفجارات وضربات تشبه الانفجارات . هرعت إلى النافذة وفتحتها بقوة . كانت الحرب كلها فى ذلك الضجيج : رعد الطائرات ، دوى الانفجارات ، والسماء انقلبت رمادية قاتمة تحجبها مظلات فى مثل بياض الثلج هبطت ببطء تحمل أعلاماً حمراً خفاقة ، تحمل هذه الكلمات :

« مطاط كريس - يحمى ويمنع من ! » .

اجتازت أبراج الكاتدرائية المستدقة فهبطت من فوق سطح المحطة ، نازلة تطفو فى الشوارع هى والأعلام ، وكنت أسمع هنا وهناك الصيحات الاحتفالية للأطفال الحاملين فى أيديهم أعلاماً ومظلات . . حتى هبطت .

سألتْ كيت : « ما الذى يجرى ؟ » .

- « أوه ، لا شىء ، بعض وسائل الإعلان » .

لكن جاء الآن سرب طائرات هدر فوق الرءوس بلمعان مخيف ، وطار منخفضاً فوق الأسطح بأجنحة رمادية مائلة ، وضجيج المحركات يتوجه نحو قلوبنا حتى تَطبع عليها علامة الطائرات . رأيت « كيت » ترتجف، ركضت إلى سريرها ، رفعت يدها :

- « أوه يا إلهى ، ما هذا ؟ » .

سمعنا الطائرات تدور فوق المدينة ، وابتعدت منتظمة مرة أخرى ،

تلاشى أزيزها باتجاهٍ أفقى غير مرئى ، وغطتْ كل سماء الظلمة يطيور حمر تغطس يبطء باتجاه الأرض ، غروب ممزّق ، وها هى ذى طيور مطاطية كبيرةحمراء توزعت فى السماء مثل غروب ممزّق . لم نستطع تمييزها حتى وصلت إلى مستوى البنايات : كانت لقالق مكسورة الأعناق ، هبطت وأجنحتها تخفق وسيقانها هاطلة منها بصورة مخيفة كأنها مجموعة من المشنوقين سنزلون من السماء : غيوم مطاطية صغيرة حمراء نابضة ، صامتة وبشعة أبحرت نازلة خلال سماء المساء الرمادى . ومن الشوارع انطلقت أصوات أطفالٍ مبتهجين بها ، ضغطت « كيت » على يدى ، مِلْتُ عليها وقَبلتها .

قالت بصوت خفيضٍ : « فريد ، تحمْلتُ ديوناً ! » .

قلت : « ومن يبالى ؟ أنا استدنت كذلك » .

كثيرًا ؟ » .

« نعم ، كثيرًا ، لم تبق يمكن أن تقرضنى شيئاً . ليس أصعب من أن يعطيك أحد ماركاً فى مدينة بها ثلاثمائة إنسان التفكير بهذا وحده يُنْضِحُنى عرقاً . »

«ولكنك تدرس الآن ، أليس كذلك ؟ » .

« نعم ، لكنى أدخّن كثيرًا » .

ـ « هل عاودت الشرب ؟ » .

ـ « نعم ، ولكن ليس كثيرًا يا حبيبتى . الحقيقة أنى منذ غادرتك آخر مرة شربت مرتين ، هل هذا كثير ؟ » .

أجبته : « ليس كثيرًا ، أفهم سبب شربك ، لكنك قد تحاول ألاَّ تشرب بعد مطلقاً » .

« صعب هذا خلال الحرب ، خلال الحرب أشرب من الضجر . أنت لا تتصورين حالة السكر على ضجر ، بعده تنامين على السرير ، كل شىء يدور أمام عينيك ، حاولى أن تشربى ثلاثة « بيلات » من ماء فاتر ، ستجدين نفسك أدمنت على الماء ، كذلك بالنسبة لغرفة النوم ، أنت لا تعلمين كم كانت الحرب مضجرة ، أحياناً أفكر فيك ، وفى الصغار ، أتصل بكِ عن طريق الهاتف قدر ما أستطيع ، فقط لكى أسمع صوتك . كان مرًّا أن أسمعك ، لكن هذه المرارة أفضل من أن أكون سكرانًا على ضجر » .

« إنها لا تستحق جهد الكلام يا حبيبتى ، تصوّرى فقط التلهّف طول النهار فى أجهزة الهاتف ، ودائماً تقريباً ، أصوات الضباط الكبار ، أنت لا تتصورين كم هم مضحكون أولاء الضباط الكبار عبر الهاتف ، ألفاظهم محدودة جدًّا ، يمكن أن أقول مائة وعشرون إلى مائة وأربعين كلمة ، ليس هذا كافياً لست سنوات من الحرب . يوماً بعد يوم ثمانى ساعات على الهاتف : تقرير ـ حدث ـ تقرير . . إلى آخر رجل انتشار الجنود إلى H.Q ـ قاوم ـ الفوهرر ـ لا تضعف . . ثم : قليلاً من الأمومة ـ نساء . تصورى الثكنات . .

كنت موظف بدالة لثكنات عسكرية لمدة ثلاث سنوات تقريباً ، سنوات كنت أتقيأ فيها ضجرًا . وإذا أردت أن أخرج لأسكر ، فحيثما ذهبت وجدت الستارات واحدة اللون . لا أستطيع تحمّل منظر الستارات تعرفين عنى هذا » .

قالت : «أعرف » .

« كان هناك عريف واحد أعرفه، يقرأ ريلكه لابنته فى الهاتف ، أوشك أن أموت من هذا ، وإن كان فيه قليل من التغيير ، بعضهم كان يغنى ، وأكثر من هذا كان يُعَلِّمُ بعضهم البعض الآخر أغنيات فى الهاتف ، لكن معظهم كانوا يرسلون موتاً فى الهاتف .صوت بعضهم يتلوى خلال الأسلاك، يزعقون بأصواتهم الرفيعة فى السماعة فى أذن الشخص الآخر الذى يريد أن يتأكد أكثر أن ناساً ماتوا . وإذا مات قِلَّة ، ففى رأى الضباط الكبار أن الحدث قد أُنجِزَ بشكل سيىء . ليس من غير سبب أن تُقاس عظمة المعارك بعدد الموتى ، لم يكن الموتى ضجرين يا حبيبتى ، وليست المقابر ».

نمت إلى جانبها على السرير ، سحبت الغطاء . فى الطابق الأسفل كان الموسيقيون يضبطون آلاتهم ، ومن البار يأتى صوت رجل يغنى ، صوت ناحب وجميل ، وبعده صرخة وحشية من امرأة تخترق غناء الرجل : لم نعد قادرين على تمييز الكلمات ، لكنها كانت تجاوباً مع جمال إيقاعى .

كانت القطارات تقعقع فى المحطة ، وصوت المذيع يصل إلينا من خلال الأصيل المتسرب مثل تذمرات خفيفة لصديق .

ـ « أنت تشعرين بميل إلى الرقص الآن ، أليس كذلك ؟ »

ـ « أوه ، كلا ، لطيف جدًّا أن أنام مرة بهدوء . أتمنى ذلك لو أنك اتصلت بالسيدة « رودر » لنرى إنْ كان كل شىء على ما يرام ، وأنا أحب أن آكل شيئاً يا فريد ، لكن أخبرنى أولاً بشىء آخر . لو أنك تشرح لى لماذا تزوجتنى؟ » .

قلت : « بسبب الإفطار ، طيلة حياتى أبحث عن شخص أتناول

الإفطار معه ، هكذا كان اختيارى ـ هذا ما يسمى ، أليس كذلك ؟ ـ ووقع الاختيارُ عليكِ ، كنت شريكة إفطار رائعة ، ولم أشعر بالضجر معك قط . ولا أنت معى كما آمل . . » .

قالت : « كلا ، لم أشعر بالضجر معك قط » .

« لكنك الآن تبكين فى الليل حينما تكونين وحيدة ، أيكون أفضل إن عدت والأمور على ما هى عليه ؟ » .

نظرت إلىَّ بدون أن تجيب ، قبلتُ بديها ، وعنقها . . لكنها استدارت وراحت تنظر بصمت إلى ورق الجدار . .

توقّف الغناء فى البار ، لكن فرقة الموسيقى تعزف فى هذا الوقت ، وكنا نسمع أصوات ناسٍ يرقصون فى قاعة الطابق الأسفل . أشعلت سيجارة . «كيت » لا تزال تنظر إلى الحائط ، لا تقول شيئاً . قلت لها بهدوء :

« يجب أن تتفهّمى أنى بكل وضوح لا أستطيع تركك وحيدة إنْ كنتِ حاملاً فعلاً . لكنى لا أدرى إنْ كنتُ أجد القوة لأكون محتَمَلاً ، كما ينبغى أن أكون ، لكنى أحبك ، آمل بألاّ يراودك شك فى ذلك » .

قالت : بدون أن تلتفت : « لا أشك فى هذا ، أنا حقيقة لا أشك . . » .

أردت أن أعانقها ، أمسكتها من كتفيها وأدرتها إلىَّ ، لكنى فجأة علمت أنى يجب ألاَّ أفعل ذلك ، قلت :

« إن حدث شىء مثل هذا مرة أخرى فيجب ألا تكونى وحيدة ، أليس كذلك؟ » .

ـ « إنى أكره السُباب الذى يُوَجَّهُ إلىَّ حين يرانى الآخرون فى الشقة حاملاً ، حين كنت أتوقع الطفل ، يا فريد ، أنت تذكر . . . » .

ـ « أذكر ، كان ذلك مزعجاً ، كان الوقت صيفاً ، ولم يكن لدىَّ سنت واحد ، ولا حتى ما يكفى لأن أشترى لك قنينة صودا » .

قالت : «وقد كنت نوامة جدًّا ، استمتعت حقيقة بدور البغىِّ ، كنت ميالةمثلهن للبصق على الأرض أمام الناس » .

ـ « أفعلتِها حقيقةً ؟ » .

ـ « ذلك صحيح ، بصقتُ على الأرض عند قدمى السيدة فرانك عندما سألتنى إلى أى حدٍّ مضيت ، إنه لبديع أن يسألك أحد : إلى أى حدٍّ مضيت» .

ـ « هذا هو سبب عدم حصولنا على الشقة » :

ـ « لا ، لم نحصل على الشقة لأنك تسكر » .

ـ « أحقاً تعتقدين فى ذلك ؟ » .

ـ «تماماً يا فريد ، المرأة الحامل تُسامَحُ على كثير من الأشياء ، أوه كنت سيئة المزاج » .

« سيكون خيرًا إذا استطعت أن تديرى وجهك إلىَّ ، فأنا نادرًا ما أراكِ» .

ـ « أوه ، لا تفعل ، جميل أن أنام هنا بهذه الصورة . وأنا ما زلت أفكر أى جوابٍ أقدمه لك » .

قلتلها : « خُذِى فرصتك ، سأحاول الحصول على شىء نأكله ، وأقوم بذلك النداء ، هل تريدين شيئاً تشربينه ؟ » .

« نعم أريد شيئاً من البيرة يا فريد ، وأعطنى سيجارتك » .

مدت يدها من فوق كتفها ، أعطيتها سِجارتى ونهضت ، كانت لا تزال مضطجعة ووجهها إلى الحائط وهى تدخّن ، أنا غادرت الغرفة .

كان الممرّ ضاجًّا ، وكنت أسمعهم يصرخون فى الأسفل ، فى القاعة ، وهم يرقصون . تريّثتُ ، تمشّيت أسفل السلالم فى وقت عزف الموسيقى ، الضوء الوحيد هناك كان يأتى من مصباح صغير عار ، كانت الدنيا مظلمة فى الخارج ، وقليل من الأشخاص يجلسون إلى موائدهم فى البار ووراء البار جلست امرأة مختلفة ، كانت أكبر سنًّا من صاحبة المحل ، أبعدت أقداحها حين وصلت ، وأنزلت صحيفتها على بقعة البيرة ، انتقعت الصحيفة واسودّت ، وغمزت المرأة لى .

سألتها : « هل يمكن أن نحصل على شىء نأكله ؟ للغرفة رقم أحد عشر ؟ »

ـ « تعنى أن يُرْسَل إلى أعلى ؟ » .

أشرت برأسى : « نعم » .

ـ « لا يمكن ذلك ، نحن لا نقدم خدمات إلى الغرف . إنها عادة سيئة أن يأكلالمرء فى غرفته » .

قلت : « أوه ، لم أعرف هذا ، لكن زوجتى مريضة » .

« مريضة ؟ هذا كل ما نحتاج إليه ، آمل ألاَّ يكون شيئاً خطيرا ، لا شيئًا معديًا ؟ » .

قلت : « لا ، إن زوجتى تشعر بأنها مريضة » .

رفعت الصحيفة من بقعة البيرة ونفضتها ، وبهدوء وضعتها على المدفئة ، ثم التفتت إلىّ بهزة كتف وقالت :

ـ « حَسَن ، ما تريد ؟ لا شيء ساخنًا الآن . . انتظرْ ساعة أخرى » .

تناولت صحناً من رفّ الصحون وراءها ومضت إلى الحافظة الزجاجيةِ حيث الطعام البارد ، تبعتها ، اخترتُ قِطْعَتَيْ لحم ، وطلبت خبزًا .

ـ « خبز ؟ ولماذا الخبز ؟ لِمَ لَمْ تطلب بعض السلَطة؟ بعض سلَطة البطاطا ؟ » .

ـ « نحن نفضل أن نأخذ خبزًا ، ربما هو أفضل لزوجتى » .

قالت : « النساء المريضات لا ينبغى أَخْذُهن إلى الفنادق » .

وذهبت إلى مصعد الطعام وصاحت فى ممر أسطوانى :

ـ « خبز . . بضع قطعٍ من الخبز » .

وردَّ صوت مخنوق مستاء : « خبز !! » .

استدارت المرأة : « سيستغرق دقيقة » .

ـ « أود استعمال الهاتف » .

ـ « لتطلب طبيباً ؟ »

ـ « كلا » .

ودفعت الهاتف لى عبر المائدة .

قبل تدوير الأرقام ، قلت :

ـ « اثنان بيرة من فضلك ، وشنابز الآن » .

دورت رقم السيدة رودر ، سمعت الهاتف يدق ، وانتظرت ، دفعت

المرأة الشنابز عبر المائدة ، حملت قدح بيرة فارغاً إلى الحنفية ، وجاء صوت السيدة رودر فى الهاتف :

ـ « هلو ـ من يتكلم ؟ »

قلت : « بوكنر » .

ـ « أوه ، هو أنت ؟ » .

قلت : « هل تسمحين ، قط . . . » .

ـ « كل شيء على ما يرام ، كنت فوق . . . الأطفال سعداء جدًّا ، كانوا فى المعرض مع الشابين ، حتى إنهم حصلوا على بالونات وعادوا تَوًّا . . إنهم يلعبون مع لقالق حمر مدهشة ، من مطاط حقيقى ، بالحجم الطبيعى » .

ـ « هل عاد فرانك وصاحبته ؟ » .

ـ « كلا ، سيعودان فيما بعد ، ربما صباح غد » .

ـ « إذن كل شيء حقيقة على ما يرام . » قالت : « حقيقةً لا تقلق ، تحية لزوجتك كيف وجدت قلم الحمرة الجديدة ؟ » .

قلت : « عظيم ، شكرًا جزيلاً لكِ » .

ـ « عفوًا ، مع السلامة » .

قلت : « مع السلامة » .

نهضت . أنهيت الشنابز ، وراقبت كأس البيرة الثانى يمتلىء ببطء ، مصعد الطعام يتحرك أمامى ليوصل صحناً بأربع قطع خبز أبيض ، حملتُ كأسَى البيرة وصعدت بهما ، وضعتهما على كرسى بجانب سرير « كيت » . كانت لا تزال مضطجعة هناك ، تحدق فى ورق الحائط ، قلت :

« كل شىء على ما يرام فى البيت ، الأولاد يلعبون مع تلك اللقالق » .

لكن « كيت » حركت رأسها بعسرٍ ، ولم تجب حين أتيت بطبق الطعام ، كانت لا تزال مضطجعة هنا وتحدث فى ورق الحائط ، لكن إحدى الكأسين أُفرِغتْ لنصفها . » قالت :

ـ « أنا جد ظامئة » .

قلت : « استمرى ، اشربى » .

وجلستُ إلى جانبها على السرير . أخرجت منشقتين نظيفتين من حقيبتها ، فرشتها على الكرسى ، وأكلنا اللحم والخبز على المنشفتين النظيفتين ، وشربنا بيرتنا :

« لو تيسّر لى . . لو تيسّر لى أن آكل أكثر يا فريد . . » ونظرت إلىَّ وابتسمت . « أنا لا أدرى الآن إن كنت آكل كثيرًا بسبب الحمل أو لأنى جائعة فعلاً » .

قلت لها : « استمرى ، كلى ، أى شىء آخر تريدين ؟ » .

قالت : « قطعة لحم أخرى ، فلفلة وكأس بيرة آخر . ويمكنك أخذ القدح » .

وأفرغت الكأس وناولتنى إياه . نزلت إلى البار ، وكانت المرأة وراء المنضته تملأ قدحاً ، تناولت شنابز آخر . نظرت إلىَّ المرأة بحنو أكثر من السابق . وضعت قطعة لحم وفلفلة على الصحن ، ودفعته إلىَّ عبر للمنضدة الرطبة .

الظلمة الآن شديدة فى الخارج ، والبار خالٍ تقريباً ، والراقصون فى الردهة صاخبون ، بعد أن دفعت المبلغ بقى معى ماركان فقط .

ـ « هل ستغادرون المكان غدًا مبكرين ؟ » .

قلت : « نعم » :

ـ « إذن من الأفضل أن تدفع أجرة الغرفة الآن » .

ـ « أنا قد دفعت توًّا » .

ـ « أوه ، حَسَن ، لكن من فضلك تأكد من جلب الأقداح والصحون قبل أن تغادرنا ، فقد عرفنا المتاعب التى سوف تجلبها إلى هنا ، أليس كذلك؟ » .

قلت : « طبعاً » .

كانت « كيت » تضطجع على ظهرها ، وتدخن :

ـ « هائلة الحياة هنا » . قالت وأنا أجلس إلى جانبها : « فكرة مدهشة أن تذهب إلى فندق مرة ثانية ، لم نأتِ إلى فندق منذ زمن طويل ، هل هو مُكْلِف ؟» .

ـ « ثمانية ماركات ! » .

ـ «أما زلت تملك هذا المبلغ ؟ » .

ـ « لقد دفعته ، وبقى لى ماركان » .

أخذت حقيبتها ، نفضت محتوياتها على السرير ، ومن بين فرشة الأسنان . وحافظة الصابونة وقلم الحمرة اصطدنا ما تبقّى من النقود التى أعطيتها لها فى أرض الملاعب . كانت أربعة ماركات .

قلت : « هذا جيد وكافٍ لأن نذهب وننال إفطارًا » .

قالت : « أعرف مكاناً لطيفاً يمكننا تناول الإفطار فيه إنه وراء النفق تماماً، إلى يميننا ونحن ذاهبان من هنا » . نظرتُ إليها واستأنفت : « هو مكان لطيف ، هناك فتاة فاتنة ورجل عجوز قهوتهم جيدة ، المكان الذى أنا مدينة له » .

سألتها : « هل الولد الأبله هناك أيضاً ؟ » .

أبعدت سيجارتها من شفتيها ونظرت إلىّ :

ـ « هل تذهب غالباً إلى هناك ؟ » .

ـ « كلا ، كنت هناك لأول مرة هذا الصباح ، أنذهب إليه صباح غد؟ » قالت : « نعم » .

استدارت إلى الجهة الأخرى باتجاه النافذة ونامت وظهرها إلىّ . أردتُ أن أقدم لها الصحن والبيرة، لكنها قالت :

ـ « لا تبالِ، سآكلها فيما بعد » .

بقيت جالساً إلى جانبها ، وإن كانت قد استدارت مبتعدة ، وارتشفت بيرتى . كان الهدوء يسود المحطة . خلال النافذة كنت أرى أعلى البنايات العالية الطويلة وراء المحطة . قنينة البراندى الهائلة واضحة فى الأضواء المعلّقة أبدًا فى المساء هناك . يمكن المرء أن يرى رجلها يشرب فى جوف القنينة . وفى أعلى البناية تلك الرسائل التى تتغير دائماً حروف مضاءة تتدحرج إلى الخارج ، ببطء قرأت :

استعمل عقلك ـ يتلاشى الخط ـ لا تبقَ فى الفراش .

تخرج الحروف متدحرجة فى الليل المظلم ، بعدها لا شىء بضع دقائق ،

ملأتنى رغبة فى معرفة ـ

عندما تعلّق فوق

إنها هناك ثانية ، تسقط عائدة فى الفراغ ، ومرة أخرى لا شىء لبضع ثوان ، ثم فجأة تضاء الحروف جميعها مرة واحدة :

تناول دولورن

ثم فى أصفر حاد :

يمكنك الاعتماد على دوائيك !

قالت « كيت » فجأة : « فريد ، أعتقد بأننا إذا ناقشنا ما تريد أن تعرفه ، لا أمل لك . لهذا لا أفضل مناقشته . يجب أن تعرف ما يجب عليك فعله، وحتى إذا كنتُ حاملاً ، فلا أريدك أن تعود إلى البيت لتظل تصرخ هناك ولتضرب الأطفال وأنت تعلم أنهم أبرياء. لا أريد ذلك . لن أشتاق لصياح بعضنا على بعض » .

كانت لا تزال مضطجعة وظهرها إلىّ ، وكلانا يحدق بالحروف المضاءة فى أعلى البناية ، والتى تتغير الآن أسرع وأسرع ، أكثر وأكثر حدّة ، وفى ألوان قوس قزح مرسلة فى الظلام كلمات بألوان قزحية :

يمكنك الاعتماد على دوائيّك !

ـ « هل تسمعنى؟ »

قلت : « نعم ، سمعتُكِ . لماذا لا تستطيعين المجىء إلىّ بعدُ ؟ » .

ـ « لأنى لست بغيًّا . لا أحمل شيئاً ضد البغايا يافريد ، لكنى لست واحدة منهن . مرعب أن آتى إليكَ لأنام معك فى مكان ما ، فى ممر بناية

مدمّرة ، أو فى حقل ، ثم أركب الترام إلى البيت ، دائماً يتملكنى الرعب فى الترام ، الخوف من أن تكون قد نسيت أن تضع فى يدى خمسة أو عشرة ماركات ، لا أدرى كم يُدْفَع لأولئك النسوة بعد نومهن مع رجل » :

ـ «يأخذن أقل من هذا بكثير حسبما أعتقد » .

أنهيت بيرتى ، التفتُّ إلى الحائط ، تطلعتُ لزخرفة أشكال القلوب على ورق الحائط الأخضر وأكملت :

ـ « أظن أن هذا يعنى أن نفترق » .

قالت : « نعم أظن أن ذلك أفضل . ليست لى أية نيّة لإحراجك ، فريد أنت تعرفنى ـ لكن أظن من الأفضل لنا أن نفترق . الأطفال لا يفهمون حتى الآن ، هم يصدقوننى حين أقول لهم إنك مريض ، لكن كلمة مريض بالنسبة لهم تعنى شيئاً مختلفاً ، إضافة إلى ذلك ، كل ذلك التقريع فى البناية يؤثر فيهم . الأطفال يكبرون يافريد . هنالك الكثير من الناس يظنون أنك تزوجت امرأة أخرى ، لمْ تتزوج ، أليس كذلك يافريد ؟ » .

كنا لا نزال مضطجعين ظهرًا لظهر ، وكانت تخاطبنى كما تتحدث لشخص ثالث . قلت :

ـ « كلا ، لم أتخذ لى زوجة أخرى ، أنتِ تعرفين ذلك » .

قالت : « لا يستطيع المرء أن يكون متأكدًا ، لى شكوكى أحياناً لأنى لا أدرى أين تعيش » .

ـ « لم أتخذ زوجة أخرى ، لم أكذب عليكِ ، تعرفين ذلك » .

بدت مستجيبةً ، قالت :

ـ « كلا ، لا أظن أنك يوماً كذبت علىَّ . لا أتذكر مثل ذلك فى أى حال .

ـ « هكذا إذن تعرفين » .

أخذت رشفةً من بيرتها من الكأس التى على الكرسى بجانبى وقالت :

ـ « فكّر فى هذا . لك حياة لطيفة سهلة ، تسكر حين تحب . . أنت تمضى وتتمشى فى المقابر ، وليس عليك غير أن تتصل بى وأنا آتى لك حين ترغب فىَّ ـ وفى الليل تنام فى بيت هذا المتخصص فى دانتى » .

ـ « أنا لا أنام كثيرًا فى المجمعات السكنية ، أنا عادة أجد بقعة فى مكان آخر : أنا لا أحتمل تلك الدار . إنها ضخمة جدًّا وفارغة وجميلة وراقية . لا أحب الدور الراقية جدًّا » .

استدرت ، صعّدت نظرى من فوق ظهرها إلى الشعار المضاء فى أعلى البناية ، لا يزال كما هو :

يمكنك الاعتماد على دوائيّك !

ظلت الكلمات نفسها تتوهج طول الليل ، تزداد توهجاً وبألوان قوس قزح . نمنا هناك وقتاً طويلاً ، ندخن ولا نقول شيئاً . نهضت بعد ذلك وسحبت الستائر ، لكننا كنا نستطيع رؤية الكلمات حتى بعد إسدال الستائر . تعجبت من « كيت » ، لم تتكلم معى بمثل ذلك من قبل . تركت يدى تستريح على كتفها ولم أقل شيئاً . استمرّت فى نومها مدبرة عنى ، فتحت حقيبتها ، سمعت « تَكَّةَ » ولاعتها ، ورأيت الدخان يتصاعد نحو السقف من حيث تنام .

سألتها : « هل أطفىء الضوء ؟ .

ـ « نعم ، ذلك أفضل » .

نهضت ، أطفأت الضوء ، وتمددت إلى جانبها . إنقلبت على ظهرها ، وانتابتنى هِزَّةٌ حين اقتربت لكتفها والتمت يدى فوق وجهها . كان وجهها مبللاً بالدموع ، لم أجد شيئاً أقوله . أبعدت يدى عنها ، بحثت تحت الغطاء عن كفها الصغير وشددت عليه . سررت إذ تركتنى أفعل ذلك .

قالت فى الظلام : « اللعنة على الموضوع كله ، كل رجل ينبغى أن يعرف ما يفعله حين يتزوج » .

قلت : « سأفعل كل ما أستطيع ، والحقيقة ، كل ما استطعت هو أن أحصل لنا على شقة » .

« لا تكن سخيفاً » قالت وكأنها تضحك : « ليس هو موضوع الشقة . هل تعتقد فعلاً بأنها هى المشكلة ؟ » .

رفعت نفسى محاولاً النظر فى وجهها ، تركت يدها ، رأيت وجهها الشاحب دون وجهى ، رأيت طريق ارتحالها إلى البيت ، والذى أنزل إليه غالباً . وحين توهّجت الحروف مرة أخرى فى أعلى البناية ، رأيت وجهها بوضوح غارقاً فى الخضرة : كانت فى الحقيقة تبتسم . عدت إلى النوم على ظهرى ، فأخذت هى يدى وشدّت عليها بقوّة .

ـ « هل أنتِ حقيقةً لا ترين أن تلك هى المشكلة ؟ » .

قالت بشىءمن الحزم : « كلا ، كلا ، كلا كن الآن أميناً يا فريد . إذا جئت لك وقلت إنى وجدت شقة ، فهل ستُحْبَط أم سيسرك ذلك ؟ » .

قلت فورًا : « سأكون مسروراً ! » .

« كلا، ستكون مسرورًا لأنى أستطيع عندئذ أعود لكم جميعاً . أوه كيف يمكنك حتى التفكير ... » .

كانت الدنيا مظلمة فى ذلك الوقت ، كنا نائمين ظَهرًا لظهرْ مرة أخرى ، وأنا ألتقت بين وقت وأخر لا أرى هل استدارت « كيت » ، لكنها ظلت تحدق فى النافذة نصف ساعة دون أن تقول شيئاً . وحين التفتُّ رأيت الكلمات تتوهج فى أعلى البناية .

يمكن الاعتماد على دوائيّك !

يمكن الاعتماد ...

جاءنا من المحطة التهدج المبهج للمذيع ، ومن الباب فى الأسفل جاء صخب الراقصين ، ولم تقل « كيت » شيئاً . وجدتُ عسيرًا على الكلام مرة ثانية، لكنى خرجت عن صمتى بـ « أخيرًا ألا تريدين شيئاً تأكلينه ؟ » قالت : « أجل لو أوصلت لى الصحن من فضلك ، وأوقدت الضوء» .

نهضت ، أوقدت الضوء وعاودت النوم وظهرى إليها . سمعتها تأكل الفلفلة وقطعة اللحم . أوصلت لها أيضاً قدح البيرة ، فقالت :

ـ « شكرًا » .

وسمعتها تشرب . انقلبتُ على ظهرى ووضعت يدى على كتفها .

« إنه أمر لا أحتمله يافريد » ، قالت لى بهدوء وفرحت لأنها تكلمنى : «أنا أفهمك جيدًا ، ربما فهماً جيدًا جدًّا . أعرف مشاعرك ، وأعرف كم بديعة هى إذ تزخر بالبذاءة أحياناً . أعرف أنه الشعور ، وربما الأفضل لك

أن تكون لك زوجة لا تفهم ذلك أبدًا . لكنك تنسى الأطفال ، هم هناك ، هم أحياء ، أنا لا أحتمل الأمر بسببهم . أنت تعرف كيف كان الحال حين بدأنا ، كلانا ، نشرب أنت الذى رجوتنى أن أتوقف . . » .

ـ « لقد كان فعلاً أمرًا مزعجاً حين مضينا إلى البيت وشم الأطفال . الرائحة . لكنها غلطتى أنا ، كنت تشربين أيضاً » .

ـ « لست معنية بتحديد من المذنب فى هذا » .

أنزلت الصحن وارتشفت شيئاً من البيرة ،

ـ « لا أعرف ، لا أعرف أبدًا يافريد إنْ كانت هى غلطتك أم لا . لا أريد إدانتك يا فريد ، لكنى أحسدك » .

ـ « تحسديننى ؟ » .

ـ « نعم أحسدك ، لأنك لست حاملاً . يمكنك أن تمضى فى نزهات ، وتقضى ساعات فى المقابر ، وتسكر باكتئابك عندما لا تملك مالاً لتشرب . أنت تسكر بحزنك حين لا تكون معنا . أعرف انك تحب الأطفال وتحبنى أيضاً ، أنت تحبنا كثيرًا جدًّا ، لكن لم يخطر لك أن حالاً لا تحتمله وتبتعد عنه ببطء يسبّب موتنا . لأنك لست معنا . لا يخطر لك أن الصلاة هى الشىء الوحيد الذى يمكن أن يعيننا . أنت لا تصلى ، أليس كذلك ؟ » .

قلت : « نادرًا جدًّا ، لا أستطيع » .

« كل واحد يرى ذلك يا فريد ـ أنت تشيخ ، أنت تبدو شيخاً حقيقة ، مثل أعزب عجوز بائس . أن تنام بين حين وآخر مع زوجتك لا يعنى أنك متزوج بها . أخبرتنى مرة خلال الحرب أنك تفضل العيش فى زنزانة حقيرة

على أن تكون جنديًّا . لم تكن شابًّا صغيرًا حين كتبت ذلك ـ كنت فى السادسة والثلاثين . أحياناً أحس بأن الحرب تركت فيك خللاً ، صرت بعدها مختلفاً » .

كنت متعباً جدًّا ، وكل ما قلته أحزننى لأنى أعرف أنها على حق . أردت أن أسألها إنْ كانت لا تزال تحبنى ، لكنى خشيت أن يكون سؤالى مضحكاً . إعتدت أن أقول لها كل شىء كما يخطر لى ، لكنى الآن لم أسألها إن كانت لا تزال تحبنى .

قلت بإعياء : « ربما تركت فىَّ الحرب نَدْباً . فأنا دائماً تقريباً أفكر فى الموت ، كيت ، إنها تدفعنى للجنون . فى الحرب عدد كبير جدًّا من الموتى، عدد لم أر مثله من قبل . كنت أسمع فقط ، كنت أسمع أصوات غير مهتمة تقرأ أرقاماً فى الهاتف ، وتلك الأرقام هى أعداد الموتى حاولت تصوّرهم ذلك جيل كامل . مرةً قضيت ثلاثة أسابيع فيما يسمّى الجبهة . رأيت كيف يكون الموتى . أحياناً الخروج خلال الليل لإصلاح الخط ، وفى الظلام أتعثر بالموتى ، الظلام شديد ، لم استطع رؤية شىء . . أى شىء . سواد تام ، على نقطة العيب فيه . أَصلحت الأسلاك . ربطت جهاز الفحص ، تقرفصت هناك فى الظلام . وأنبطح حين ينبثق وهج أو تُطْلَقُ قذيفة ، وتكلمت فى الظلام مع آخر يجلس فى موضع على بُعد ثلاثين أو أربعين ياردة ـ لكن ما أخبرك عنه كان بعيدًا .

قالت بلطف : « ليس الله عنا ببعيد » .

قلت : كنت أتحدث بصوت يختبر الخط ، إنْ كان قد عاد يعمل ثانية ، ثم كان علىَّ أن أزحف ببطء عائدًا ، أمسك الكابل بيدى ، تعثرت مرة

أخرى فى ذلك الظلام فوق الموتى ، وأحياناً أظل مطروحاً إلى جانبهم . مرة قضيت الليل بطوله . ظن الآخرون أنى أحد الموتى . بحثوا عنى ، حتى تخلوا عنى أخيرًا .

لكنى بقيت مطروحاً طول الليل بجانب الموتى الذين لم أستطع رؤيتهم ، كنت أحس بهم ـ بقيت بجانبهم ، لا أدرى لماذا ـ والوقت لا يمر لصالحى . وحين وجدونى ظنوا أنى كنت مخمورًا . وأحسست بالضجر حينما وجبت علىَّ العودة للعيش ـ أنت لا تصدقين كم كان الناس بعدها يُضْجِرُوننى . الموتى هم الرائعون » .

قالت ، دون أن تترك يدى :

ـ « أنت مزعج يافريد ، أعطنى سيجارة » .

بحثت عن سجائر فى جيبى ، أعطيتها واحدة أشعلت كبريتاً . وانحنيت عليها لأرى وجهها . بدت لى أكثر شباباً ، وأنها تشعر بتحسن ، ولم يعد جلدها أصفر .

سألتها : « ألا تشعرين بعد بأنك مريضة ؟ »

قالت : « كلا ، أبدًا أنا بخير . لكنى خائفة منك ، أنا فعلاً خائفة » .

ـ « لا تخافى منى . ليست هى الحرب التى أتعبتنى ، فسيكون الشىء نفسه تماماً ـ أننى ببساطة أضجر ـ يجب أن تسمعى ما يمر فى أذنى طيلة النهار : أكثره هواء ساخن »

قالت : « يجب أن تصلى ، فعلاً يجب أن ... إنها الشىء الوحيد الذى لا يُضْجِر » .

قلت : صَلِّ أنتِ من أجلى ، كنت قادرًا على الصلاة ، فقدت القدرة الآن » .

ـ « تحتاج إلى مرانٍ . يجب أن تثابر . ابدأْ وابدأ مرة أخرى . السكر ليس جيدًا » .

ـ « حين أكون سكراناً أستطيع أحياناً أن أصلى جيدًا » .

ـ « لاخيرة فى ذلك يا فريد ، الصلاة للصاحى . إنها مثل الوقوف أمام واحد من ذلك النوع من المصاعد المتحركة وأنت تخشى أن تقفز عليك يجب أن تُبقى نفسك مشدودة القوى ، وفجأة تكون فى المصعد وهو يحملك إلى أعلى . « أحياناً أشعر بها واضحة جدًّا يا فريد ، حينما أضطجع يقظانة فى الليل وأبكى ، وحين يكون أخيرًا قد صَمَتَ كل شىء . أشعر غالباً بأنى ماضية خلال ذلك . بعدها لا أعنى بأى شىء آخر . لا الغرفة ولا القذارة، ولا حتى التعاسة ، وحتى بعدك عنا لا يعود يهمنى . بعد كل شىء يافريد، ليس من أجل تلك الثلاثين سنة الأخرى الطويلة أو الأربعين ، والتى مثلما هى طويلة جدًّا ، فإن فيها ما يجعلنا نتحمل مشقاتها معاً إلى نهايتها . وأشعر بأن علينا تحملها معاً . لكن يا فريد أنت تصغّر نفسك » ، أنت حالم واصطناع الأحلام خطر .

كنت فهمت الأم لو أنك تركتنا من أجل امرأة أخرى ، سيكون ذلك مزعجاً لى أكثر بكثير مما هو الآن ، لكنى سأفهمه . وإن كان بسبب تلك الفتاة التى فى كوخ الأكلات الخفيفة يافريد لاستطعتُ فهمه أيضاً .

قلت : « أرجوك ، لا تتحدثى عن ذلك » .

أكملت : « لكن ابتعدت فى أحلامك . هذا ليس جيدًا ، أنت تحب رؤيتها ، أليس كذلك ؟ الفتاة التى فى الكوخ ؟ »

ـ «نعم ، أحب أن أراها . أحب كثيرًا أن أراها . سأذهب كثيرًا إلى هناك وأراها ، لكنى لا أحلم أبدًا بهجرك من أجلها ، إنها تقيّة جدًّا » .

ـ « تقيّة ؟ كيف عرفت ذلك ؟ » .

ـ « لأنى رأيتها فى الكنيسة . إنى رأيتها هناك تركع فقط وتتلقى البركة ، لم أبق فى الكنيسة أكثر من ثلاث دقائق ، كانت تركع هناك مع الأبله ، وقد باركهما القس معاً . فرأيت كم ورعة هى ، رأيت ورعها فى حركاتها ، تبعتها لأنها لا مست قلبى » .

ـ « ما الذى فعلته ؟ »

ـ « لامست قلبى » .

ـ « هل أنا أيضاً لامست قلبك ؟ » .

ـ « أنتِ لم تلامسى قلبى ، أنت قلبت قلبى عالياً سافلا ، هذا ما يُعبّر عنه حسبما أعتقد بـ « أحبك كثيرًا » .

ـ « هل من نساء أُخريات لا مَسْنَ قلبك ؟ »

قلت : « نعم ، قليلات جدًّا . قليلات أولئك اللائى لامَسْنَ قلبى . وفى الحقيقة أنا لا أريد وصف الأمر بهذا المعنى ، لكنى لا أعرف تعبيرً أفضل . . لامَسْنَنِى بلطف ، هو ما يجب أن أقوله . فى برلين رأيت امرأة لامست قلبى . كنت واقفاً عند نافذة القطار . فجأة دخل قطار من الرصيف الثانى . توقفتْ نافذة فيه قبالة نافذتى ، وكانت النافذة مفتوحة ـ

كانت مضَببَّة ـ وصرت أتطلّع فى ووجه امرأةٍ لامست قلبى فى الحال . كانت شديدة السُمرة طويلة ، وابتسمتُ لها . ثم بدأ قطارى يتحرك ، انحنيت إلى الخارج ، لوّحت لها طويلاً قدر ما استطعت رؤيتها . لم أرها مرةً أخرى ، ولم أرد أن أراها مرة أخرى » .

ـ « لكنها لامَسَتْ قلبك . أخبرنى بكل قصص الملامسات هذه يا فريد . هل لوّحت لك أيضاً مُلامِسةُ القلوب ؟ »

قلت : « نعم ، لوّحت لى . لأفكر قليلاً ، أنا متأكدة من أنى سأتذكّر الأخريات . لى ذاكرة جيدة للوجوه » .

قالت : « استمر يافريد ، تذكّر » .

قلت : « غالباً ما يحدث لى هذا مع الأطفال ، مع الرجال الشيوخ ، والنساء العجائز أيضاً ، للسبب نفسه » .

ـ « وأنا قلبتُ قلبك عالياً وسافلاً فحسب ؟ » .

ـ « أنتِ لامسته أيضاً . أوه يا حبيبتى . لا تضطرينى على ترديد هذه الكلمة . حين أفكر فيك ، فكثيرًا ما يحدث هذا : أراك تنزلين على السلم ، تتجولين وحدك خلال المدينة ، أراك تتسوقين ، تُطعمين الطفل . إذن ، هذه هى حالى معك » .

ـ « لكن الفتاة فى الكوخ قريبةُ جدًّا » .

ـ « ربما اختلف الأمر إذا رأيتها مرة أخرى » .

قالت : « ربما ، هل تريد أن تنهى بيرتى ؟ .

قلت : « نعم » .

وأوصلَتْ كأسها إلَيَّ فأنهيتها ، ثم نهضت ، رفعت الأقداح والصحون الفارغة ونزلت بها . رجلان شابان كانا يقفان عند المنضدة ، كشَّرَا فى وجهى وأنا أضع الأقداح والصحون الفارغة على المنضدة .

مرة أخرى كانت هناك صاحبة المحل ذات الوجه الأبيض عديم المسام . أشارت برأسها إلَيَّ ، وصعدت حالاً إلى الطابق العلوى . حين دخلت الغرفة نظرت إلَيَّ كيت وابتسمت . أطفأت النور ، خلعت ملابسى فى الظلام ودخلت الفراش . قلت :

ـ « إنها فقط العاشرة » .

قالت : « بديع ، نستطيع أن ننام تسع ساعات تقريباً » .

ـ « كم سيبقى الرجل الشاب مع الأطفال ؟ » .

ـ « إلى ماقبل الثامنه » .

قلت : « لكننا لا نريد أن نسرع بعد الإفطار » .

ـ « ألا يوقظنا أحد » .

ـ « كلا ، سأستيقظ أنا فى الوقت » .

قالت : « أنا متعبة يافريد ، لكن أخبرنى أكثر . ألا تعرف مزيدًا من قصص الملامسة ؟ » .

قلت : « قد أفكّر فى قليل منها » .

قالت : « استمر ، أنت رفيق لطيف ، لكنَّ هناك أوقاتاً أود أن أضربك فيها . أنا أحبك » .

ـ « إننى مسرور لأنكِ قلتِ هذا . أحسست بأن علىّ أن أسألك . . » .

ـ « اعتدنا أن يسأل أحدنا الآخر كل ثلاث دقائق » .

ـ « لسنوات » .

قالت « لسنوات ، استمر ، أخبرنى » .

وأخذت يدى متشبّثة بها .

سألتها : « أعن نساء ؟ » .

قالت : « كلا ، أفضل أن أسمع عن رجال أو أطفال ، أو عن نساء كبيرات السن . لا أدرى إنْ كنت متأكدة من أمر الشابات » .

ـ « لا شىء تخشين منه » .

قلت هذا وانحنيت عليها ، قبّلتُ فمها ، حين اضطجعت ثانية ذهب بصرى إلى الخارج ، ورأيت شعارًا مضاءً :

يمكن الاعتماد على دوائيّك !

قالت : استمر» .

قلت : « فى إيطاليا . كثير من الناس لامسوا قلبى . رجال ونساء ، شباب وشيب .. أطفال أيضاً . وحتى نساء ثريّات ، ورجال أثرياء أيضاً »

ـ« قبل دقيقة مضت ، قلت إن الناس مُضجِرون » .

ـ « أشعر بأننى مختلف جدًّا ، أنا أفْضَلُ كثيرًا منذ عرفتُ أنكِ لا تزالين تحبيننى . لقد قلتِ لى أشياء مزعجة » .

ـ « لن أسحب منها كلمة ، نحن الآن نلعب قليلاً يا فريد . لا تنس أننا

نلعب . قريباً سنعود إلى الجد ـ ولن أسحب منها كلمة ـ وحقيقة أنني أحبك لا تعني شيئاً ، فأنت تحب الأطفال أيضاً ، لكن لا تهتم حتى بـ كيف يحيون» .

قلت : أوه ، أعرف ، لقد كشفت عن نفسك تماماً . لكن حدّدى الآن اختيارك أيّاً تحبين ، رجلاً ، أو امرأة ، أو طفلاً ، وأى بلد ؟

قالت : «هولندا ، ألمانيا»

قلت : « أوه ، هذا يعنى أنك تتوقعين منى أن أجد لك ألمانيًا ليلامس قلبك؟ أنت وَضِيعة ، فأنا خلال الحرب مرة واحدة فقط رأيت ألمانيًّا لامس قلبى ،و كان ثريًّا فى ذلك الوقت . لكنه لم يعد غنياً ـ كان ذلك ونحن نُساق عبر روتردام ، كانت تلك أول مدينة مدمّرة أراها ؛ لطيف أنى وصلت الآن مرحلة أن مدينة غير مدمّرة تحبطنى ـ فى ذلك الوقت كنت مشوَّشاً تماماً ـ رأيت الناس ، رأيت الخرائب ...» .

أحسست الآن أن قبضتها على يدى قد تراخت ، انحنيت عليها . رأيت أنها نائمة : فى النوم يبدو وجهها متغطرساً ، مهموماً جدًّا، شفتاها منفرجتان قليلاً فى مظهر المعاناة .

اضطجعتُ ثانية، دخّنت سيجارة أخرى وبقيت مضطجعاً يقظانَ فى الظلام وقتاً طويلاً ، أفكر فى الأمر كله . حتى أنى حاولت أن أصلّى ، لكن لم أستطع ، وللحظة فكرت فى النزول مرة أخرى إلى الطابق الأرضى فقد أحظى برقصة على الأقل مع تلك الفتاة من مصنع الشيكولاته ، لأشرب شنابز آخر ، لألعب بالمكنات قليلاً ـ مؤكد أنها الآن مجاناً ـ لكنى بقيت فى النهاية حيث كنت . كل مرة أرى الشعار فى أعلى البناية يتوهج ، فيُضاء

ورق الجدران المخضرّ والمزخرف بقلوب . أرى ظل المصباح قُبالة الحائط ، وأرى نقوش البطانيات : دببة تلعب كرة ، وقد استحالت رجالاً يلعبون كرة : رياضيون بأعناق ثيران ينطحون لبعضهم فقاعات صابون فائقة الحجوم . كا الشعار هناك فى الأعلى :

يمكن الاعتماد على دوائيكَ !

ذلك هو الشىء الأخير الذى رأيته قبل أن أغرق فى النوم .

مازالت مظلمة فى الخارج استيقظت . لقد نمت نوماً عميقًا ، ولحظة استيقظت كنت أتمتع بشعور عظيم بالحياة الطيبة ، فريد مازال نائمًا وجهه إلى الحائط ، وكنت لا أرى غير رقبته النحيلة ، نهضت سحبت الستارة جانباً ، فرأيت الفجر الرمادى الباهت فوق المحطة . قطارات معاكسة تصل . صوت المذيع المخنوق يمر عبر الخرائب حتى يصل إلى الفندق . ويمكن سماع ضربات القطارات . كل شىء فى البناية هادىء . كنت جائعة ، تركت النافذة مفتوحة ، عدت إلى الفراش وانتظرت . لكنى كنت غير مستقرّة . أفكر دائماً بالأطفال ، اشتقت لهم ، أفكر فى الوقت ، مادام فريد لا يزال نائماً فهى ليست السادسة والنصف ـ لدى وقت كثير . نهضت ثانية ، ارتديت الجاكيت الخاص بى ، لبست حذائى وانسلَلْت خلال الممر نصف المضاء إلى المغاسل ، حتى وجدتها أخيرًا فى زاوية غير مضاءة ، كريهة الرائحة . لا يزال فريد نائماً ، وكنت أرى الساعات المتلامعة فى المحطة ـ مصفرّة متوهجة الأقراص ـ لكنى لم أستطع قراءة الوقت . فى أعلى البناية السامقة ، توهج الشعار ثانية ، سطعَ حادًّا فى الظلمة الرمادية :

يمكنك الاعتماد على دوائيك

اغتسلتُ جيدًا بدون إحداث ضجة ، ارتديت ملابسى ، وحين نظرت حولى رأيت فريدًا يراقبنى : اضطجع هناك يطرف بعينيه ، أشعل سيجارة ، وقال :

ـ صباح الخير .

قلت : « صباح الخير » .

ـ « هل تشعرين بعد بمرض ؟ » .

ـ أبدًا ، أشعر بأنى بخير تماماً » .

قال : « حسن ، لا حاجة للتعجل » .

قلت : « يجب أن أغادر المكان يا فريد ، قد بدأت أقلق » .

ـ « ألا نمضى لتناول الإفطار معاً ؟ » .

قلت : « كلا » .

صاحت صَفَّارَةُ مصنع الشيكولاته عالياً ، صوتها الحاد شق الفضاء ثلاث مرات فى ذلك الصباح .

جلست على حافة السرير ، شددت أشرطة حذائى ، وأحسست بفريد يمرّر يده فى شعرى من الخلف ، تركه يتهدل بلطف من بين أصابعه وأشار:

ـ « إن كان كل أمس صحيحاً ، فافترضى أنه يعنى : أن يرى أحدنا الآخر مرة أخرى زمناً . . ولكن ألا نشرب فنجانَ قهوة معاً على الأقل ؟ » .

لم أقل شيئاً ، شددت تنورتى ، وزررتُ قميصى ، تطلعت إلى المرآة ومشطت شعرى ، ما كنت أنظر إلى نفسى فى المرآة ، لكننى مشطتُ شعرى ، وأحسست بخفقان قلبى . أدركت الآن كل شىء قلته أمس ، ولم أشأ

استرجاعه . شعرت شعورًا كاملاً بأنه سيعود ، لكن كل شيء بدا الآن غير أكيد .

سمعته ينهض ، رأيته في المرآة يقف إلى جانب السرير تماماً ، وآلمني كم بدا مدمرًا . كان قد نام في قميصه الذي كان يرتديه خلال النهار . شعره كان أشعث ، وقد بدا نكدًا بدون قصد سحبت المشط خلال شعري ، لم أضع في اعتباري جديًا أنه قد يهجرنا فعلاً ، لكنني أعتقد ذلك الآن .

سكن قلبي ، بدأ يسرع ، توقّف ثانية . راقبته عن قرب وهو واضع سيجارة في فمه ، ويزرر بمللٍ بنطلونه البالي ، شد حزامه ، ارتدى جوربيه وحذائيه : إنه هنالك واقف في حسرة مرّر يديه على جبهته وحاجبيه ، ولم أستطع تصديق أني قد تزوجته لخمس عشرة سنة : كان غريباً عليَّ ذلك الرجل الضَجِرُ ، الملول ، الذي جلس الآن على حافة السرير ، يمسك رأسه بيديه ، تركت نفسي تهوى في المرآة وتعيش على رؤيا حياة أخرى أنا فيها دونما زواج : إنها ستكون رائعة ، حياة لا زواج فيها ، لا أزواج مجهدي العيون ، يندر أن يكونوا يقظِين ، يبدأون نهارهم بالزحف إلى سجائرهم . سحبت عيني من المرآة ، مشّطت شعري في ذلك المكان ومضيت إلى النافذة . هي أخفّ الآن . الرمادي الشاحب فوق المحطة ، حَلَّ فيَّ أنا بدون أن أدري : فقد كنت لا أزال أحلم بتلك الحياة التي لا زواج فيها ، هذا الذي وُعدِنْا به . أسمع إيقاع التراتيل ، رأيت نفسي في مجموعة الرجال الذين لم أتزوّجهم ، رجالٍ عرفتهم وما كانت لهم رغبة في اختراق رحمي .

سألني فريد وهو عند المغسلة : « أيمكنني استعمال فرشاة أسنانك ؟ »

نظرت إليه وقلت بتردد : « نعم » .

وفجأة ذهبت إليه مرة أخرى . وصحت :

ـ « يا إلهى ، تستطيع على الأقل خلع قميصك وأنت تغتسل ! » .

قال لى : « ألم أفعل ذلك ؟ » .

وفتح ياقة قميصه ، بلّل المنشفة ، مسح وجهه ورقبته ، وأثارتنى حركاته اللامبالية .

قال : « سأعتمد دوائيًّا وأشترى فرشاة أسنان معتمدًا عليها . ماذا لو اعتمدنا دوائيًّا فى كل أمورنا ؟ » .

صرخت فيه ثانية : « فريد ، كيف يمكنك طرح نكات ، لم أرك مطلقاً فى مثل هذا الحال الطيب وفى هذا الصباح الباكر ؟ » .

قال : « لست فى حال طيب أبدًا ، ولا حتى فى حال سيىء ، وإن كان صعباً الشعور بالسرور دونما إفطار، ولا حتى قهوة » .

قلت : « أوه ، إنى أعرفك ، امْضِ ودعْ قلبك يُلامَس » .

كان يستعمل مشطى ، توقف الآن ، استدار ونظر إلىَّ : « أدعوكَ لإفطارٍ يا حبيبتى » . وقال : « أنتَ لم تعطنى أىَّ جواب حتى الآن » .

التفتَ مبتعدًا عنى ، استمرَّ فى تمشيط شعره ، وقال فى المرآة :

ـ « سوف أكون قادرًا على إعطائك تلك الماركات العشرة ، ربما فى الأسبوع القادم » .

ـ « أوه ، انْسَها ، ليس حتما عليك منحى كل نقودك » .

ـ « لكنى أودُّ ذلك ، وأرجوكِ أن تقبليها » .

ـ « شكرًا لك يا فريد ، أقدر لك ذلك ، فأنا حقًّا أتقبلها ، إنْ كنا ذاهبين لتناول الإفطار، فالأفضل أن تعجل لها » .

ـ « إذن ستأتين ؟ » .

ـ « نعم » .

ـ « أوه ، حسَن ! » .

سحب رباطه تحت ياقته ، شده ، ومضى من فوق السرير ليأخذ سترته .

صاح : « سأعود . سأعود بالتأكيد ، أعود إليك ، لكننى لا أريدَ أن أضْطرَّ إلى شىء أميلُ لأن أفعله من تلقاء نفسى » .

قلت : « فريد لا أظن هنالك أى شىء آخر لكى نناقشه بعد » .

قال : « كلا ، أنتِ على حق ، سيكون رائعاً أن أراكِ مرة أخرى فى حياة أستطع أن أحبك فيها قدْرَ ما أحبك الآن دون أن أتزوجك » .

همست : « كنت أفكر فى هذا » .

ولم أستطع حبس دموعى .

أسرع إلىَّ من حول السرير وطوَّقنى بذراعيه ، وسمعته يقول وفمه يستقر على رأسى :

ـ « كم هو رائع أن أراكِ مرة أخرى ، آمل ألاَّ يصدمك إقترابى منكِ هناك أيضاً » .

قلت : « أوه ، يا فريد ، فكِّر فى الأطفال !» .

ـ « ألا تعطيننى قبلةً ؟ » .

رفعتُ رأسى وقبلته .

انسحب منى ، ساعدنى على ارتداء جاكيتى، وحزمتُ أنا أشياءنا حين كان ينتهى هو من ارتداء ملابسه .

قال : « المحظوظون هم أولئك الذين لا يحب أحدهم الآخر حين تزوجوا . إنه لأمرٌ مزعج أن يحب بعضهم بعضاً ويتزوجون » .

قلت : « لعلك على حق » .

كان الظلام لا يزال منتشرًا . وفى الممر كانت هناك رائحة تأتى من زاوية المغاسل ، وكان المطعم الذى فى الطابق الأرضى مغلقاً ، وليس هناك أحد ، ولا باب مفتوح . علّق فريد المفتاح على مسمار كبير بجانب المدخل المؤدى إلى المطعم .

كان الشارع ممتلئاً بالفتيات اللائى فى طريقهن إلى مصنع الشيكولاتة : كنت مندهشة للسرور البادى عليهن ، أكثرهن ، يَسِرْنَ ذراعاً فى ذراع ويتضاحكن .

ونحن ندخل مطعم الأكلات الخفيفة ، دقت أجراس الكاتدرائية السابعة إلا ربعاً . أدارت لنا الفتاة ظهرها ، وهى تشغَل مكنة القهوة . كانت هناك مائدة فارغة واحدة . جلس الأبله قابعاً إلى جانب الموقد ، يمص مصاصته . كان المكان دافئاً وداخناً ، ابتسمت لى الفتاة وهى تستدير، وقالت :

ـ « أوه ! » .

ثم نظرت إلى فريد ، وثانية إلىَّ ، ابتسمت وأسرعت إلى المائدة الفارغة لتمسحها . طلب فريد قهوة ولفائف خبز وزبدًا .

قعدتنا » وأراحنى أن أراها مسرورة بصورة حقيقية : أخذتها محمرتان من الانفعال وهى تُهيىء لنا الصحون . لكنى كنت قلقة ، مضيتُ فى التفكير فى الأطفال ، والإفطار لا يعنى تحقيق نجاح . كان فريد قلقاً أيضاً ، لاحظتُ أنه نادراً ما ينظر إلى الفتاة وأنه متعب ، ولا ينظر لى حين لا تكون عيناى عليه ، وحين أنظر إليه يبتعد بنظره عنى ، كثير من الناس دخلوا «الكوخ» ، تناولت الفتاة لفائف الخبز والسجق والخليل . حسبت النقود ، أخذت بعضها ، وهى تنظر إلىَّ بين حين وآخر وتبتسم ، كما لو أنها تؤكد فهماً شخصيًّا ، فهم شىء لما بدت ـ وهى صامتة ـ متيقنة منه . وحين هدأت الأمور قليلاً مضت إلى الأبله ، مسحتْ فمه ، همست باسمه فى أذنه ، فى حين كنت أنا أفكر فى بكل ما حدثتنى عنه .

لقد أُرْجِعْتُ بكل كيانى إلى الوراء حينما دخل القس الذى تلقى اعترافى أمس ـ ابتسم للفتاة ، أعطاها بعض النقود ، وتسلم منها ، عبر المنضدة ، علبة سجائر حمراء ، كان فريد يراقبه بانتباه أيضاً ، بعدها فتح القس العلبة وساحت نظرته بدون قصد حول الغرفة ، رآنى ، ورأيته يجفل ، هو ليس مبتسماً الآن ، ترك السيجارةِ تنزلق فى جيب سترته السوداء ، اتجه إلىَّ وتردد ، وخطا إلى الوراء مرة ثانية .

نهضت وسرت إليه .

قلت : « صباح الخير يا أبى » .

ـ « صباح الخير » .

أجابنى ونظر حواليه فى حيرة ، وهمس :

ـ « يجب أن أتحدث إليك ، فقد كنتُ فى بيتك هذا الصباح » .

سألته : « ولكن لماذا ؟ » .

أخذ السيجارة من جيب سترته ، وضعها بين شفتيه وهمس ، وهو يشعل عود الثقاب :

ـ « إنكِ فى حِلٍّ تام من ذلك ، كنت أحمق ، اغفرى لى » .

قلت : « أشكرك كثيرًا ، كيف الأمور فى البيت ؟» .

ـ «تكلمت مع السيدة الكبيرة وبالمناسبة ، أهى والدتك ؟» .

تساءلتُ بفزعٍ : « أمى ؟» .

ـ « تعالى ، وقابلينى فى وقت مّا » .

قال هذا وغادر المكان مسرعًا .

حين عدت إلى المائدة ، لم يقل فريد شيئاً ، بدا تعيساً جدًّا ، وضعت يدى فوق ذراعه :

ـ « علىَّ أن أرحل يا فريد » .

ـ « ليس الآن ، أريد أن أتحدث إليك » .

ـ « ليس هنا ، يا إلٰهى ! فيما بعد ، إنَّ لك الليل بطوله » .

همس :

ـ « إننى عائد ، وقريباً ، هذه بعض النقود للصغار ، لقد وعدتُ . . . أليس كذلك ؟ اشترى لهم شيئاً ، ربما بعض الآيس كريم ، إن كان ذلك مما يحبونه » .

وضع ماركاً ، أخذته ، وضعته فى جيب سترتى .

همس : « فيما بعد ، ستأخذين ما أنا مدين به إليك » .

قلت : « أوه ، فريد لا تواصل التفكير فى هذا » .

قال : « يجب علىَّ . . إنه لأمر مخيف أن أفكر فى أننا ينبغى أن . . »

همستُ رادَّة عليه : « اتصل بى هاتفيًّا » .

سألنى : « هل ستأتين إن أردتك فى الهاتف ؟» .

ـ « لا تنس أنى مازلت مدينةً لهم بثمن القهوة، وثلاث كعكات مقلية» .

ـ « لا أنسى ، هل حقًّا تريدين الذهاب الآن ؟» .

ـ « يجب علىَّ . . »

نهض ، وبقيت جالسة ، وراقبته يقف عند المنضدة وينتظر . الفتاة «عبرّتْ لى بابتسامة حين كان فريد يدفع الثمن ، ونهضت وسرت مع فريد إلى الباب» .

نادت علىَّ : « تعالى مرة أخرى ! » .

وصحت مجيبة : « سوف أجىء ، وألقيت نظرة على الأبله ، الذى كان لايزال جالساً مُنشغلاً بمصاصته الجرداء» .

أخذنى فريد إلى موقف الحافلة ، لم نتبادل كلمة واحدة ، منح أحدنا الآخر قبلةً على عجل حين قدمت الحافلة ، ورأيته يقف هناك ، كما كنت غالباً أراه : رثّ الملبس وحزيناً .

استطعت أن أراه يمشى مبطئاً فى اتجاه المحطة بدون أن يلقى نظرةً واحدةً إلى الوراء .

شعرت كأنى بعيدة عنه بُعْد الأبدية ، وأنا أسير صاعدة على سلالم قذرة إلى شقتنا ، أدركت أنى لم أترك الأطفال مدة طويلة كهذه من قبل ، كان هنالك هرج جانبى فى النيابة ، أباريق تغلى تطلق صفيرًا ، ومذاييع تلقى تشجيعاتها وبشائرها الرسمية ، وعلى الطابق الثانى «مزويتر» يتشاجر مع زوجته ، لم يكن هناك أى صوت وراء باب شقتنا : ضغطت على زر الجرس ثلاث مرات ، انتظرت ، وأخيرًا سمعت الأطفال حين فتح بلرمان الباب ، الباب ، سمعتهم ثلاثتهم ، حييت بلرمان تحية متعجلة وتجاوزته راكضةً إلى الغرفة لأرى الأطفال : كانوا جالسين حول المائدة يظهرون سلوكًا أفضل من ذلك الذى يبدونه معى ، حديثهم وضحكهم تَلاشَى حين دخلْت ، كانت لحظة صمت وشعرت بندبة حزن ، خفت ـ دقيقة واحدةً لكنها دقيقة لا أنساها .

بعدها نهض الكبيران واعتنقانى ، وحملت أنا الرضيع بين ذراعىَّ ، قبلَّته وأحسست بدموعى تجرى على وجهى ، كان بلرمان مرتدُياً سترته ، حاملاً قبعته ، سألته :

ـ « هل كان سلوكهم جيدًا ؟» .

قال : « نعم ، جيدًا جدًّا » .

ونظر الأطفال إليه وابتسموا .

قلت : «انتظر دقيقة»

وضعت الرضيع فى مقعده العالى ، تناولت محفظة نقودى من الدرج ، وخرجت مع بلرمان إلى إلممر ، رأيت قبعة السيدة زوجة فرانك ، وقبعة السيد فرانك موضوعتين على المائدة فى الصالة .

قلت : « صباح الخير » .

السيدة همف كانت عائدة من المغسل عاقصة شعرها تحت ذراعها مجلة مطوية ، انتظرت حتى دخلت فى غرفتها ، فنظرت إلى بلرمان وقلت :

ـ « أربعة عشر ، أليس كذلك ؟» .

قال مبتسماً :

ـ « خمسة عشر » .

أعطيته خمسة عشر ماركاً وقلت :

ـ « شكراً جزيلاً » .

فأجاب : « بكل سرور » .

ثم أحنى رأسه على باب غرفتنا ، ونادى :

ـ « وداعاً أيها الصغار !»

ورد عليه الصغار : « وداعاً ! » .

عانقتهم كلهم مرة واحدة حين بقينا وحدنا ، منحت كل واحد نظرة فاحصة ، ولم اكتشف شيئاً فى وجوههم يتفق ومخاوفى . بحسرةٍ رحت أُهَيِّىء لهم «سندويتشات» المدرسة كليمنز وكارلا كانا ينشبان فى صناديقهما، كارلا تنام على سرير حربى أمريكى ، كنا طويناه أثناء النهار وعلَّقناه فى السقف ، وكليمنت على أريكة عتيقة مستوية ، زاد طوله عن طولها ، بلرمان سوّى لهم حتى فراشهم .

قلت لهم : « أيها الصغار يرسل لكم أبوكم محبته ، أعطانى لكم بعض النقود » .

مشت « كارلا» إلىَّ وأخذت «سندويتشاتها» ، نظرتُ إليها : إن لها شعرَ فريد الأسود وعينيه ، وهى مثله حين تنظر بعيدًا فجأة .

كان الرضيع يلعب فى مقعده الصغير ، ويتطلع إلىَّ بين وقت وآخر كأنه يريد التأكد من أنى ما زلت فى مكانى ، ثم يمضى لاعباً .

قالت «كارلا» : ثم قلتُ :

ـ « هل أديتما صلاتكما ؟» .

ـ « نعم » .

ـ « سيأتى أبوكم إلى البيت قريباً » .

قلت ذلك وشعرت بعطف كبير على الأطفال، وجاهدت لكى لا أبكى مرةً أخرى .

ومرة أخرى لم يقل الطفلان شيئاً .

نظرت إلىَّ «كارلا» التى كانت جالسة على كرسى إلى جانبى ، تتصفح كتاباً مدرسيًّا وترشف حليبها بارتباك ، وفجأة ، نظرت إلىَّ ، وقالت بهدوء :

ـ « إنه ليس مريضاً . . إنه لايزال يعطى دروساً » .

التفتُّ ونظرتُ إلى «كليمنز» الذى كان جالساً على الأريكة منحنياً فوق أطلس ، نظر ساكناً وقال :

قال لى بيزم : « إنه يجلس جوارى» .

لم أكن أعرف هذا .

قلت « هنالك أمراض لايرقد فيها الشخص فى الفراش » .

لم يقل الطفلان شيئاً ، خرجا بحقيبتيهما المدرسيتين ، وخرجت أنا للممرّ، تابعتهما من هناك بعينىّ وهما يسيران بطيئين فى الشارع الرمادى ، كتفاهما مرخيتان قليلاً تحت ثقل الكتب ، لم أعد أرى الطفلين ، صرت أرى نفسى وحدها من فوق : فتاة صغيرة بضفائر شُقر ، تفكر فى حياكة صورة ، أو تأريخ موت شارلمان . .

حين رجعت إلى نفسى كانت السيدة فرانك واقفة أمام مرآة الصالة تسحب إيشارباً بنفسجياً لتشده فى المكان المناسب دون قبّعتها . .

كانت الأجراس تُقْرَع لقداس الساعة الثامنة . قالت :

ـ « صباح الخير » .

وتقدمت إلىَّ تستقبلنى بابتسامة فى ظلامك الممر ، ثم راحت تسايرنى إلى غرفتنا .

قالت بلهجة ودية : « يقولون إن زوجك هجرك أخيرًا ، هل صحيح ذلك ؟» .

قلت بهدوء : « ذلك صحيح ، هو قد هجرنى » .

وعجبت من أنى لم أشعر نحوها بمزيد من الكراهية .

ـ « وهو يشرب ، أليس كذلك ؟» .

وشدت «الإيشارب» على عنقها الجميل .

يندر سماع صوت هناك ، لكنى كنت أسمع مناغاة رضيعنا فى غرفتنا وكأنه يكلّمُ قوالبه ، كما سمعت صوت مذيع المحطة يعلن خمس ، ست ، سبع مرات ، أستطيع سماعه بوضوح فى ذلك الصمت :

« إنها السابعة وتسع وثلاثون دقيقة ، لعله الوقت الذى تترك فيه زوجتك الفاتنة ، ولكن ربما لايزال بإمكانك أن تصغى إلى مارش «بلُوْر» الصباح البهيج . . » .

أستطيع أن أسمع الآن موسيقى الصباح ، والبشائر الرسمية المشجّعة وهى تَهْوى علىَّ مثل جلدات سَوْط ، السيدة «فرانك» تجلس قُبالتى ، لاتتحرك ولا تتكلم ، لكنى رأيت ذلك الألق الفتّاك بعينيها ، متشوقة هى لصوت الزنجى الخشن ، والذى سمعته أنا مرةً ، مرة واحدة فحسب ، وبقيت أنتظره سُدًى منذ ذلك الحين ، الصوت الخشن الذى غنى :

« . . . ولم يقل كلمة » .

قلت « وداعاً » للسيدة فرانك ، أبعدتها قليلاً عن طريقى ودخلتُ غرفتى ، لم تقل شيئاً ، حملتُ الرضيعَ ، ضَمَمْتُهُ إلى صدرى ، وسمعت السيدة فرانك تمضى إلى القدّاس .


5

تقف الحافلة دائماً فى المكان نفسه ، والفسحة التى تتوقف فيها مملوءة بالحُفَر ، فكلما وقفت فيها أحدثت ضجة توقظنى ، نهضت ونزلت منها ، وبعد عبور الشارع وجدت نفسى أمام واجهة مخزن مُعَدَّات : نظرت إلى إعلان

« سلالم ـ جميع الأحجام ـ ٢٠ , ٣ للعارضة » .

لم أقصد النظر إلى ساعة البناية كى أتأكد كم الوقت ، ولكنها كانت الثامنة إلا أربع دقائق ـ إن بدت الساعة الثامنة أو تجاوزت الثامنة ، فسأعرف أن الساعة مسرعة : الحافلة أكثر دقة فى الوقت من الساعة .

أقف كل صباح لمدة أربع دقائق أمام الإعلان :

« سلالم ـ جميع الأحجام ٢٠ , ٣ للعارضة » .

يلى الإعلان سلم ذو ثلاث عوارض ، ولأن الصيف ابتدأ ، فإلى جوار السلّم امرأة شقراء بالحجم الطبيعى مصنوعة من «البايير ماشه» أو الشمع ، متمددة على كرسيّها ـ لا أدرى أية مادة يستعملون لصناعة « المانيكانات» ـ

كانت المرأة تلبس نظارات شمسية وتقرأ رواية عنوانها : «استراحة من النفس» ، لم أستطع قراءة اسم المؤلف ، لأنه كان مخفيًّا وراء لحية عفريت من بلاستك ينحنى فوق حوض مائى ، فى المخزن ، بين طواحين القهوة ومكاوى الملابس والسلّم تتمدد تلك « المانيكان» الشقراء بالحجم الطبيعى، مضطجعة على كرسى الاستراحة وهى تقرأ رواية «استراحة من النفس » .

لكن اليوم ـ وحين خروجى ـ رأيت أن إعلان « سلالم كل الأحجام ـ ٣,٢٠ لكل عارضة» قد اختفى ، وأن المرأة التى أمضت الصيف كله مضطجعة كل كرسى الاستراحة تقرأ « استراحة من النفس » ، ترتدى الآن بدلة تزحلق زرقاء ، وتقف على زلّاجتين ، يرفرف شعرها فى الهواء ، وإلى جانبها هذا الإعلان :

فَكِّرْ فى رياضة الشتاء !

لم أفكر فى رياضة الشتاء ، انعطفت إلى شارع «ملشيور» ، اشتريت خمس سجائر من الكشك على يسار مكتب الأبرشية ، وسرت مجتازةً البواب فى الرواق ، حيّانى البواب ، هو أحد أصدقائى فى هذا المكان ، يأتى إلىَّ أحياناً ويتفقدنى فى الطابق الأول ، يدخّن غليونة ويخبرنى بآخر الشائعات .

أشرتُ برأسى للبواب ، وحييت عددًا من رجال الدين كانوا حاملين حقائبهم ويسرعون فى صعود السلّم .

فى الطابق الأعلى ، فتحت باب غرفة البدالة ، علقتُ سترتى وقُبعتى ، وألقيتُ سيجارتى على المنضدة وأتْبَعْتُها بقطع «الخردة» أوصَلْتُ الكهرباء بالبدالة ، وجلست .

شملتنى السكينة بعد أن قعدت فى مكان عملى : همهمة خافتة فى أذنى

تقول : « تبادُل » حين اشتعل الضوء الأحمر ، أدار واحد فى البناية أرقام هاتفه مرتين ، وتم الاتصال ، حسبت قطع نقودى المرمية على المنضدة ـ كانت ماركاً وعشرين ـ اتصل البواب حين أجابنى ، قلت :

« بوكنر يتكلّم ، صباح الخير ، هل وصلت الصحيفة؟ » .

قال : « حتى الآن سأصعد بها إليك حالماً تأتى » .

ـ « إذن إلى اللقاء . . » .

ـ « إلى اللقاء . . » .

فى الثامنة والنصف وصل التقرير الذى يُمليه «مونسينور زمر» مدير الدائرة ـ عبر الهاتف ، كل واحد يشعر بالاستياء من «زمر» ، حتى القسس العاملون فى البناية ، والذين تحولوا من واجباتهم الرعوية إلى الإدارة ، فهو لايقول لأحد «رجاءً» ، ولا يقول «شكراً» ويقشعر جسدى كلما أدار أرقام هاتفه وأجبته ، كل صباح فى الثامنة والنصف تماماً يقول :

ـ « مونسنيور زِمر » .

وسمعت « برزكن » يدلى بتقريره :

ـ « خرجوا مرضى : فلدريك ، زك ، شابلين ، هوشل ، لم يقبل عذر «شابلين سودن» حتى الآن » .

ـ « ما قضية سودن ؟ » .

ـ « لا فكرة يا سيدى » .

وسمعت تحسّرًا من «زِمر» ، هو الحال كلما ورد اسم «سودن» ، كانت تلك نهاية المكالمة .

الساعة قاربت التاسعة ولم ينته ضجيج المخابرات : نداءات آتية ، نداءات خارجة ، نداءات بعيدة عليَّ أن أتسلمها وأدخلها الخط مرةً ، وأخرى أنا أدخل على الخط ، أصغى إلى المكالمة حتى أصل إلى نتيجة أنها لم تتجاوز المائة والخمسين كلمة ، أكثر الكلمات استعمالاً عند الناس هى : «انتبه» ، إنها تظهر فى الكلام مرة بعد أخرى ، إنها حاضرة فى الكلام العادى .

« الصحافة اليسارية هاجمت خطاب ن ، م ، انتبه » .

« الصحافة اليمينية أهملت خطاب ن ، م ، انتبه » .

« الصحافة الكنسية امتدحت خطاب ن ، م ، انتبه » .

« ارتحل سودن بدون عذر ، انتبه » .

« وبولز يواجه جمهوراً فى الحادية عشرة ، انتبه » .

« و ن ، م مختصر لـ : نيافة المطران » .

قضاة الطلاق يتكلمون اللاتينية حتى فى الهاتف حينما يجرى حوارهم عن المهنة : دائماً أُنْصِتُ وإن كنت لا أفهم كلمة واحدة ، أصواتهم رزينة ، وإنْ بدا غريباً إصغائى لهم وهم يضحكون من نكات فى يلقونها باللغة اللاتينية ، غريبان هذان الرجلان : الأب بتنر ، ومونسنيور سيرج ، هما الوحيدان فى المنطقة اللذان يبديان لى ودًّا ، فى الحادية عشرة اتصل «زمر» بسكرتير المطران الشخصى :

ـ « أقترح معارضة لغوغائية الدوائيين ـ ولكن انتبه ، انتهاك لموكب المنطقة إن لم يكن استهزاءً به ، انتبه » .

بعد خمس دقائق ، ردّ السكرتير العام للمطران :

ـ « نيافته سيشارك فى المعارضة بشكل شخصى ، ابن عم لنيافته هو رئيس اتحاد الدوائيين ، انتبه » .

ـ « ماهى نتيجة الجمهور مع بولز ؟» .

ـ « لا شىء محدد حتى الآن ، لكن أكررُ : انتبه » .

بعد قليل طلب مونسنيور زِمر أن أوصله بمونسنيور فاينر :

ـ « ستة انتقلوا من الأبرشية المجاورة » .

ـ « كيف هم ؟ » .

ـ « اثنان مستقيمان ، ثلاثة ج ناقص ، أحدهما يبدو جيدًا ، هكمان عائلة عريقة » .

ـ « أعرفهم ، عائلة من الطراز الأول ، كيف كان الحال أمس ؟ » .

ـ « مرعب ، المعركة مستمرة » .

ـ « ما هو ؟ » .

ـ « مستمرة ، المعركة ـ فى السَلَطَةِ خَل » .

ـ « وقد حصلت الآن . . . » .

ـ « اعتمد أشهرًا على الليمون ، لا يستطيع الحصول على خَلٍّ ، تحدٍّ مطلق » ،

ـ « من تعتقد وراء ذلك ؟ » .

ـ « ف ، » قال زِمر : « أنا متأكد أنه « ف» أشعر بالانزعاج » .

ـ « عمل مرعب ، نعود له لاحقاً » .

ـ «نعم لاحقاً » .

وهكذا أُلْقِيتُ فى معركة خضتها كما يبدو من أجل قطرات خَلٍّ .

حوالى الحادية عشرة وخمسين دقيقة ، اتصل « سيرج» مرة أخرى وقال :

ـ « بوكنر ، كيف تفضل النزول إلى المدينة ؟

ـ لا أستطيع الابتعاد ، سيدى »

ـ «معى شخص يريحك ، لمدة نصف ساعة ، إلى المصرف فقط ، وقد شعرت بأنك تود ذلك . هنالك أوقات يود فيها المرء الابتعاد » .

ـ « من سيريحنى ؟» .

ـ « الأنسة هانكه ، فسكرتيرتى ليست هنا ، والآنسة لا تستطيع الذهاب بسبب عجيزتها ، ما تقول فى هذا ؟ »

قلت : « حسن » .

ـ « هذا ما ظننته . سأصعد حالما تصل هانكه » .

وصلت الآنسة « هانكه » حالاً ، دائماً ما أشعر بهزة حين تدخل غرفتى باهتزاز بدنها الغريب. إنها تحررّنى حين أرغب فى الخروج ، لأذهب إلى طبيب الأسنان أو لأحمل رسائل لسيرج حينما يريدنى أن « أبادل» . . الآنسة « هانكه » طويلة القامة محنية وسمراء . مشكلة عجيزتها بدأت قبل ثلاث سنوات ، حين كانت فى العشرين . لم أتعب قَط من النظر إلى وجهها : أنيق ، تظلَلْهُ لطافة . حلمت لى زهرات أقحوان ، وضعتها فى الأصيص بجوار النافذة قبل أن تصافحنى .

قالت : « كيف الصغار ؟ »

قلت : « بخير . . إنهم بخير » .

وارتديت سترتى .

قالت مبتسمة : « بوكنر ، شخص مارآكَ سكراناً . لتعرف فقط إذا أشاعها زِمر » .

قلت : « شكراً» .

ـ « يجب ألا تشرب » .

ـ « أعرف » .

وسألتنى متهيّبة : « وزوجتك ، كيف زوجتك؟ »

زررت سترتى ، نظرت إليها ، وقلت :

ـ «أخبرينى بكل شىء ، ما الذى يقولونه عن زوجتى ؟ » .

ـ «يقولون إنها تأمل ثانية ... » .

ـ « اللعنة عليهم ، زوجتى نفسها لم تعرف إلا أمس » .

ـ «مروجَ الإشاعات عرف قبل أن تعرف زوجتك » .

قلت : « آنسة هانكه ، مالذى يجرى ؟ »

تسلّمت نداءً ، أوصلت الخط ، نظرتْ إلىَّ مبتسمةً :

ـ « حقيقة لا شىء ، يقولون إنك تشرب ، إن زوجتك حامل ، مع أنك منفصل عن زوجتك منذ مدة » .

ـ « طبعاً ».

ـ « حسن هٰأنتذا تقول . . أستطيع فقط أن أحذّرك من (زِمر) ، من (برسجن) ، من الآنسة (هشت) ، لكن لك أيضاً أصدقاء فى الجوار ، لك أصدقاء أكثر مما لك من أعداء » .

ـ « لا أصدّق ذلك »

قالت : « ذلك أمر حقيقى ، وبخاصة بين الكرادلة ، كلهم تقريباً يحبونك ، « ابتسمت ثانية ، » الطيور على أشكالها تقع ، كما تعرف ، ولست الوحيد الذى يشرب . » .

ضحكتُ : « أخبرينى بشىء واحد آخر فحسب : من الذى اغتال (زمِر) اغتيالاً بطيئاً بقطرات من خَلٍّ ؟ »

ضحكتْ مندهشةً : « ألا تعرف ! »

ـ « حقيقةً لا أعرف » .

ـ « يا إلهٰنا الطيب ! نصف المحيطين بالأبرشية يضحكون من ذلك ، وأنت ، الجالس فى مركز كل الشائعات ، لاتدرى ! حسن : إنه « وب» ، ديكون وب ، له أخت مسئولة عن مطبخ فى دير وشاح العذراء الأزرق ، هل من حاجة لأن أقول أكثر ؟ »

قلت : « استمرى ، فليس لى مايدلنى » .

ـ « زمِر منع وب من أن يصبح مطران . بدأ القصاص : خمسون فينيكاً لقنينة خل ، أُخرجت من زاوية خفيةً فى المطبخ فى دير وشاح العذراء الأزرق لحظة ظهر فيها (زِمر) لتناول وجبته . لكن أسرِعْ أنت الآن ، سيرج فى انتظارك » .

أشرتُ لها برأسى وغادرت المكان . كلما حدّثتُ الآنسة هانكه ، امتلأتُ بسرور غريب . إن لها موهبة جعل الأشياءتفقد ثقلها . وبنظرتها النافذة تحيل الأمور إلى لعبة صالةٍ تتمنى التمتع بها .

نصُبٌ باروكية مثبّتة فى جدران الممر . هذا الممر المغسول جيدًا ، والذى يقود إلى مكتب سيرج . سيرج جالس فى مكتبه ، رأسه على يده . لا يزال رجلاً شابًّا ، أصغر منى ببضع سنوات ، وله أهميته فى القانون الشرعى .

قال : « صباح الخير يا سيد بوكنر » .

قلت : « صباح الخير » .

وسرت إليه ، فصافحنى .

وحين رأيته بعد أيام من إقراضى النقود جعلنى أشعر بأنه قد نسى أمرها . تلك هى مزيّتُهُ . ولعله نسيها فعلاً . مكتبه واحد من المكاتب القليلة التى لم تُدَمّر . وتحفتُه مدفئةٌ ذات زخرفة باروكية فى زاية مكتبه . هذه التحفة يشير لها دليل التُحَف الفنية . لم توقد هذه المدفئة لأن الأمير الناخب قضى الشتاءات الماضية فى قصر آخر أصغر من هذا . سلّمنى سيرج بضعة شيكاتٍ وظرفاً فيه أوراق نقدية .

قال : « هنالك اثنان وستون ماركاً وثمانية فينيكات . رجائى إيداع الشيكات والنقد فى حسابنا ، أنت تعرف رقم الحساب » .

ـ « سأفعل » .

قال : « أنا سعيد بالتخلص منها . ولحسن الحظ سيعود ، فتش بعد غد وسأعيد له كلَ هذه العوائد » .

حَدَّقَ فيَّ بعينيه الواسعتين الهادئتين ، وأحسست بأنه يتوقع منى الحديث عن زواجى . صحيح أنه قد يكون قادرًا على إسداء نصيحة ، كما هو أمر طبيعى أن تكون لموضوعى عنده أوليّات ممتعة . أرى فى وجهه رقة وذكاء ، أود الحديث معه ، لكننى لا أستطيع أن أقرّب إليه . أفكر أحياناً ، أنى سأتحدث إلى قسٍ رثّ الثياب ، وحتى أنى سأعترف إليه . لكنى أعلم أيضاً أن لا لوم على أحد بسبب نظافته أو حبه للنظافة ، إذن فسيرج الذى أعرف طيبته هو أخر شخص يمكن أن ألومه على ذلك ، ومع هذا ، فإن بياض ياقته الناصع ، والطريقة المتقنة التى تظهر فيها الحافة البنفسجية وراء غفّارته، ذلك كله لم يشجعنى على الحديث إليه .

وضعت الشيكات والنقود فى جيب سترتى الداخلى ، نظرت إليه ثانية ، ووجدت نفسى أواصل النظر فى العينين الواسعتين الهادئتين اللتين بدتا هما أيضاً لا تغادران وجهى . أحسست به وكأنه يريد أن يقدم لى عوناً . إنه يعرف كل شىء ، إنه لن يفتح الحديث عن الموضوع . رددت على نظرته حتى راح ببطء يبتسم ، فسألته فجأة سؤالاً بقيت سنوات أريد أن أسأله لقُسٍّ :

ـ « هل تعتقد يا سيدى بأن الموتى سينهضون ثانية ؟ »

تابعت وجهه الوسيم النظيف بدقة ، وظلت عيناى تلازمان وجهه بحرص ، فما تغيّرت ملامحه ، وقال لى بهدوء :

ـ « أجل ! » .

ـ «وهل تعتقد فى ذلك ؟ » .

مضيت بأسئلتى ، لكنه قاطعنى إذ رفع يده ، وقال بهدوء :

« أعتقد فى كل شىء تريد أن تسألنى عنه ، وإلاَّ خلعت هذا الجلباب فى الحال وطلقت شريعتى ، تاركاً كل هذا الكوم ورائى» .

وأشار إلى حشد من الملفات على مكتبه .

ـ « لكنت أحرقت هذه الملفات ، لأنها عندئذ ستكون لا معنى لها عندى ، ولا عند أولئك الذين يعذبون أنفسهم بسبب ذلك الاعتقاد نفسه »

قلت : « اغفر لى »

« أوه ، من أجل ماذا ؟ » قالها بهدوء وأكمل :

« أعتقد بأن حقك فى أن تسألنى أكثر من حقى فى أن أسألك » .

قلت : « لا تسألنى »

قال : «لا أفعل ، ولكنك ستتكلم يوماً ، أليس كذلك ؟ »

قلت : « نعم ، يوماً ما سأتكلم » .

تناولت الصحيفة من البواب ، حسبت نقودى مرة أخرى خارج المدخل، وسرت فى البلدة مُبْطِئاً ، فكرت فى أشياء كثيرة : فى الأطفال ، بكيت بما أخبرنى به « سيرج » ، والآنسة « هانكه » . كلهم كانوا على حق ، وأنا المخطىء ، لكن ما عرف أحد منهم ، ولا حتى « كيت » كم كنت مشتاقاً لأطفالى ، ولكيت أيضاً ، وكيف كانت تمر بى لحظات أعتقد فيها بأنى على صواب وكل الآخرين مخطئون ، لأنهم جميعاً يستطيعون التعبير جيدًا عن أنفسهم ، وأنا الذى لا أستطيع العثور على الكلمات .

فكرت إنْ كنتُ أقدر أن أشترى لنفسى كوباً من القهوة وأقرأ صحيفة . ولفّنى ضجيج الشارع وإن كنت أمضى باستقامة بين الأصوات ـ شخص

كان يبيع موزاً ، ينادى عليه . توقفت أمام واجهة بونبرج ، تطلعت إلى المعاطف المعلّقة ، إلى وجوه « المانيكانات » التى تفزعنى دائماً . حسبت الشيكات التى فى جيب سترتى الداخلى ، تأكدت من أن الظرف وما يحويه من نقد لا يزال فى مكانه ، وفجأة وقع نظرى على الأركاديا التى تقسم واجهات بونبرج : رأيت امرأة فلامس مرآها قلبى ، وأثارنى .

المرأة لم تعد شابة ، لكنها جميلة ، رأيت ساقيها ، تنورتها الخضراء ، رثاثة « جاكتها » البنّى رأيت قبّعتها الخضراء ، ورأيت فوق كل هذا ، جانب وجهها ، ملامحها الناعمة الحزينة ، ولدقيقة أو أكثر ، لا أدرى كم من الوقت ـ توقّف قلبى ؛ رأيت ، خلال الزجاج أنها كانت تنظر إلى الملابس ، وهى فى الوقت نفسه تفكّر فى شىء آخر .

شعرت بقلبى يخفق ثانية ، ما زلت أرى جانب وجه المرأة ، وفجأة عرفت أنها « كيت » . مرةً أخرى بدت غريبةً علىَّ ، لبضع لحظات أبحرت فى الشك ، شعرت بحرارة تجتاحنى وظننتُى سأُجَنُّ لكنها الآن واصلت مشيتها ، تبعتها ببطء ، وحين رأيتها بدون زجاج ، عرفت أنها « كيت » حقيقةً .

لقد كانت « كيت » ، لكنها « كيت » أخرى ، مختلفة تماماً عن تلك التى عرفت وأنا أتابعها طول الشارع ، ما زالت تبدو لى غريبة وقريبة فى آن واحد . هى زوجتى التى أمضيت معها الليل كله ، التى كنت متزوجها لخمس عشرة سنة .

فكرت : « ربما أنا فى طريقى إلى الجنون فعلاً » .

فزعت حين دخلت « كيت » إلى المخزن ، توقفتُ إلى جانب عربة

خضار، أراقب مدخل المخزن ، وبعيدًا ورائى ، وكما لو كان ينادينى من منطقة أخرى ، سمعت الرجل الذى يقف ورائى مباشرة يصيح :

- « قرنبيط ، قرنبيط ! اثنان بمارك ! » .

وإن كان ذلك غير معقول ، فقد كنت خائفاً من أن « كيت » لن تخرج من المخزن ثانية : راقبت المدخل ، تفرّست فى الوجه المكشرّ لذلك الجاوىّ المصنوع من كارتون وهو يحمل كوب قهوة إلى أسنانه الساطعة وسمعتُ صوت بائع الخضار كأنه يصل إلىَّ من كهف عميق :

- قرنبيط ، قرنبيط ! اثنان بمارك ! .

وفكرت فى أشياء كثيرة جدًّا لا أعرف الآن ما هى ، ارتعت لرؤية « كيت» وهى تخرج من المخزن . سارت قدماً فى شارع « كرون » مشت مسرعة جدًّا ، لكنها توقفت بعد ذلك أمام واجهة مخزن دُمًى ، كنت أستطيع مراقبتها ، أستطيع رؤية جانب وجهها الحزين ، رأيت قامتها ، تلك التى تمدّدت إلى جانبى فى الليل سنوات عديدة ، تلك التى رأيت قبل أربع ساعات فحسب ولم أميزها ، حين استدارت ، خطواتُ بسرعة وراء منصة بائع متجول ، فتمكنتُ من رؤيتها بدون أن ترانى . نظرتْ فى حقيبة تسوّقها ، سحبتْ قطعة ورق ، قرأتها ، إلى جانبى كان الرجل يصيح :

- « إذا توقّفتم عن التفكير ، ياسادة ، بِحَلْقِ لِحاكُمْ لمدة خمسين سنة ، نعم خمسين سنة ، فإن بشَرتكم ...

لكن « كيت واصلت سيرها ، ولم أسمع نهاية كلام البائع الجوّال . . تبعتُ زوجتى ، ورأيتها من بُعْد خمسين خطوة اجتازت خطوط الترام التى تلتقى فى ميدان « بلدونر » . توقفت « كيت» و عند منصة بيع زهور ، رأيت

يديها ، يدى المرأة التى ارتبطتُ بها ارتباطاً حميماً أكثر من أى إنسانٍ آخر على وجه الأرض ، التى مانمت معها فحسب ، وأكلت وتحدثت أكثر من عشر سنوات مستمرّة ، لكن هنالك شيئاً آخر يربطنى بها أكثر من النوم معاً ؛ كان هنالك وقت صلّينا فيه معاً .

اشترت بعض الأزهار الصفراء والبيضاء ، واستمرت بطيئة فى سيرها ، جد بطيئة ، هى التى كانت تمشى مسرعة جدًّا ، أعرف فِيمَ تفكر . تقول دائماً أشترى الأزهار التى تنبت فى المروج ، حيث لا يلعب أولادنا أبدًا .

وهكذا سرنا ، الوحد وراء الآخر ، كلانا يفكر فى الأطفال ، وما امتلكتُ تلك الأصوات من حولى . بعيدة واهنة ، صوت مذيع المحطة رتيباً يطن فى أذنى وهو يعلن فى مكبر الصوت :

ـ « نرجو الانتباه ! ترام خاص على خط (هـ) إلى معرض الدوائيين ـ نرجو الانتباه ! ترام خاص على خط (هـ) ... » .

مضيت وراء « كيت » مثلما أسبح فى ماء رمادى ، لم أعد أستطيع حساب دقّات قلبى ، وفزعت مرة أخرى حين دخلت « كيت» كنيسة الدير وأغلقت وراءها الباب الأسود المبطن بالجلد . إذا ذاك انتبهت إلى أن السيجارة التى أشعلتها حين مررت بالبواب أنا فى طريقى من مكتب الأبرشية لا تزال متّقدة. رميتها ، فتحت باب الكنيسة ، سمعت أنغام الأورغن ، فتراجعت، سرتُ عبر الميدان ، جلستُ على مصطبة ، وانتظرت .

انتظرتُ وقتاً طويلاً ، حاولت أن أتخيّل ما كان فى الصباح ، حينما ركبت « كيت فى الحافلة ، لكن لم أستطع تصورّ شىء ـ شعرت بالضياع ، هائماً

أطفو على مجرى لانهاية له ، والشيء الوحيد الذى استطعت رؤيته هو الباب الأسود للكنيسة والذى ستخرج منه كيت » .

حين جاءت فعلاً ، لم أتَبّتْ من أنها هى ، كانت تسير أسرع ، وقد وضعت الأزهار الكبيرة ، طويلة السيقان بين مقبضى حقيبتها ، وكان علىَّ الإسراع للّحاق بها وهى تمشى منزلقة عبر ميدان « بلدونر » عائدة إلى شارع كرون : الأزهار تهتز وفق إيقاع خطواتها ، أحسست بتعرّق راحتى ، وبدوار قليل ، فى حين طفح قلبى بخفق كثير موجع .

توقفت أمام واجهة « بونبرج » و تيسّر لى وقت لأتسلّل بين « الأركاديا » ، فصرت أراها واقفة حيث كنت واقفاً أنا . رأيتها لطيفة، حزينة الملامح ، تابعت قوامها يعلو على المعاطف الرجالية المعلّقة ، وكلما تأرجحت واجهة «بونبرج » الثقيلة ، سمعت مكبّرة الصوت من الداخل :

ـ « سِتَر ؟ فى بونبرج ! قبّعات ؟ فى بونبرج ! بدلات ! فى بونبرج ! لقبّعة أو جاكيت ، لسترة أو رباط ، بونبرج ! أفضل شراء لكَ فى بونبرج !» .

استدارت « كيت » وعبرت الشارع ، وقفت عند كشك مرطبات ، ومرة أخرى رأيت يديها الصغيرتين تدفعان نقودًا عبر المنضدة ، تلتقط الباقى وتبعه فى محفظتها حركات صغيرة أعرفها ، تسبّب لقلبى الآن ألماً كبيرا سكبت عصير الليمون فى قدح ، شربته ، ومن داخل من المخزن جاء الصوت :

ـ « سِتَر ؟ فى بونبرج ! قبّعات ؟ فى بونبرج ! بدلات ؟ فى بونبرج ! لقبّعة أو جاكيت ، لسترة أو رباط ، بونبرج ! أفضل شراء لك فى بونبرج ! »

ببطء دفعت القنينة ، وبعدها القدح ، رفعت الأزهار بيدها اليمنى ،

ومرة أخرى رأيتها تغادر ، إنها زوجتى التى عانقتها عددًا لا يحصى من المرات بدون أن أستوعبها .

سارت مسرعة ، بَدَتْ عَلَى قَلَقٍ ، بقيَتْ تُعاود النظر إلى وراء ، وأنا كدت أعود ، أنحن ، شعرت بوجع حينما اختفت قبّعتها لحظة ، وحينما توجهت إلى موقف الترام (رقم ١٢) فى شارع « جيرستن » لُذْتُ أنا فى حانة فى الجهة الأخرى من موقف الترام .

قلت لصاحب الحانة ذى الوجه الأحمر المستدير :

ـ « شنابز »

ـ « كبير ؟ »

ـ « نعم » .

وأتيت على كأس الشنابز الكبير . نظر إلىَّ صاحب الحانة نظرة طويلة، وقال :

ـ أترغب فى واحد آخر ؟ »

ـ «كلا ، شكرًا ، كم ؟ »

ـ «ثمانية فينيكات . »

وضعت ماركاً ، وبدأ بطيئاً يعد لى عشرين فينيكاً ، وما زالت عيناه مسلطتيَن علىَّ . وعلى طول شارع « جيريستن » ، عبر ميدان « موتلكه » عدت أخطو إلى مكتب الأبرشية ، بدون معرفة لما سأفعله .

اجتزت البواب فى الممر الأبيض النظيف مارًّا بالتماثيل الباروكية ، طرقتُ على باب « سيرج » وإذ لم يجبنى أحد ، دخلت :

ـ « حسن يا بوكنر ، لقد عدت سريعاً ! » .

ـ « سريعاً ؟ .

أجبته دون أن ألتفت .

« نعم » .

وضحك : « ما كادت تمر عشرون دقيقة . » .

ثم توقّف قُبالتى ونظر إلىّ ، وكنت أرى من سيما وجهه ما قد جرى فى ذهنه ، رأيت ذلك كله إنها يقظة عريضة ، ومن وجهه يمكن أن أقول إن أولى أفكاره كانت عن النقود ، قد ظن أن شيئًا مَّا حدث لنقود . رأيت ذلك فى وجهه .

قا ل لى بهدوء : « بوكنر ، أنت مريض ، أم سكران ؟ » . سحبت الشيكات من جيبى ، الظرف وفيه الأوراق النقدية ، قدمتها لسيرج ، أخذها منى وبدون أن ينظر إليها وضعها على مكتبه .

قال : « بوكنر ، قل لى ماذا حدث ؟ »

قلت : « لا شىء، لم يحدث شىء » .

ـ « هل تشعر بمرض ؟ »

ـ « كلا إنى أفكّر فى شىء ، لقد تذكرت الآن شيئاً » .

ورأيت كل شىء وراءت عينى « سيرج » النظيفتين ، رأيت « كيت » زوجتى ، سمعت شخصاً يصيح : « ستِرَ» « رأيت « كيت» مرة أخرى ، شارع كرون بطوله ، رأيت رثاثة جاكِتها البنّى ، سمعت شخصاً مَّا يُعلن عن ترام خاص على الخط (هـ) إلى معرض الدوائيين ، رأيت باب الكنيسة

الأسود ، رأيت أزهار المارجريتا طويلة السيقان مهيأة لقبرَىْ طفلَيَّ ، وشخصاً يصيح : قرنبيط ! « رأيت ، سمعت كل شىء مرة أخرى ، رأيت «كيت » حزينة ناعمة الملمح ، رأيت كل شىء خلال وجه « سيرج » . حين مضى مبتعدًا عنى ، رأيت الحائط الأبيض فوق المدفأة المزخرفة التى لم توقد قط : تمثال من كارتون لجاوى يحمل كوباً من القهوة لأسنانه البيض الساطعة

كان سيرج يتحدث فى الهاتف :

ـ « سيارة ، أرسل سيارة فى الحال . »

ثم رأيت وجهه متجهاً إلىّ مرة أخرى ، وأحسست بنقود فى يدى . نظرت إليها : قطعة فئة خمسة ماركات لامعة .

وقال سيرج :

ـ « يجب أن تمضى إلى بيتك » .

ـ « نعم ، بيتى » .


المؤلف

هاينرش بُلْ Heinrich Böll وهذه الرواية :

فى السادس عشر من تموز ١٩٨٥ توفى الكاتب الألمانى هاينرش بل ، حامل جائزة نوبل لسنة ١٩٧٢ ، وكانت آخر رواية نشرت لهذا الكاتب هى روايته المعروفة « نساء أمام منظر نهرى» .

الحسنة العظيمة لهذا الكتاب ذى الطبع الرقيق والأسى الإنسانى هى أنه يرسم شخصيات لا تفارق الذاكرة، وتظل مثل بعض ممن تحبهم أو تريد أن تُعين فى روايتنا هذه ـ ولم يقل كلمة ـ نظل نتذكر « بوكنر » إنساناً بسيطاً وممُتحناً ، ونظل نتذكر السيدة ـ الأم « كيت » . ولا ننسى الشخصيات التى التقيا بها فى السكن أو فى الطريق ، وشخصياته فى رواياته الكبرى الأخرى : « بيت بلا حراس » ، أو « بيت دون حراسة » ، و«بليارد فى التاسعة والنصف»، و « أين كنت ياآدم ؟»، و « صورة جماعية مع سيدة » ، و«المهرج»، و « خبز السنوات الأولى » . . هى شخصيات يذكرها جيدًا من التقى بها فى كتبه . . فكما نتذكر كيت ، وبوكنر ، وسيرج ، وفتاة المطعم الصغير ، والأبله فى روايتنا التى نقدمها اليوم ، نتذكر جيدًا آدم فى أين كنت يا آدم ؟، ولينى فى صورة جماعية مع سيدة ، وشنر فى المهرج، وهيدفيك فى خبز السنوات الأولى .

حين انتهيت من قراءة المهرِّج "The Clown" وهى فى الألمانية" نظرات مهرج Ensichten eines Clowns " وقرأت "ولم يقل كلمة And Never Said a word » وجدتنى أمام محبة خاصة أسعد إذ أجدها فى الكتابة ، ووجدتنى أمام رقة وخصب إنسانيين نحتاج إليهما فى الحياة . لم أجد فى كتابته كراهةً شديدة، لم أجد ثأرًا موجعاً ، لم أجد عبارة قاطعة . . بل وجدت ابتساماً هادئاً ، وألماً هادئاً ، ورفضاً هادئاً ، ومحبة مديدة هادئة ، دون أن يفتقد صرامة الحكمة أمام الخطأ . . فأى توازن فى شخصية هذا الكاتب النبيل ! وأية قوة إيمان لا تستدرجها أو تغريها صغائر الحياة وموضوعاتها العابرة ! لا يكتب إلا عن شىء يؤمن بجدواه وخيره . إنه واعظ مثلما هو مبدع ، وإنه « مرجع » كما وصُفِ حين أريد وصفُه .

وُلد « بُل » فى « كولون » فى ١ أيلول عام ١٩١٧ . كان كاثوليكيًّا من «كولون»، ولكنه كان ينظر للكنيسة من بُعدٍ صافٍ وفَهْم خاص . وهكذا ظل حتى مات . ففزعت لموته جماهير ، وأدباء ورجال سياسة ، وأنصار سلام ، وقُراء ، ورجال دين . . فما كان المبدعُ الذى توفى كاتب روايات ، ولا كاتبَ مقالة، أو مترجماً يحمل شارة شرف، ولكنه ـ كما وصفه فرانز جوزف كورتز ـ: إن لم يكن سُلطةً فهو ضمير الأمة الذى لا يموت ، وبُعد أخلاقى ، حتى فى نظر أولئك الذين لا يشاركونه مواقفه السياسية ... » .

وقال عنه الناقد الألمانى فريتس رادتس Fritz Raddatz :

«فى كتب بُل دائماً شىء ينفع الناس . فقد جعل لهم اللغة قابلةً للسكنى . والتطابق النادر بين هويتى المؤلف وأعماله أمر يتخطى التجربة اللسانية الذوقية ، إذ إن أعمال « بُل » حافظت دوماً على التوازن بين ما يؤمله القارىء من تخيّل منظارى وما يقدمه المبدع ... لقد اعتُرِف لـ « بُل» بدور

الإخبارى الناقد الذى يؤرخ وقائع الجمهورية الاتحادية ، وبدور المراسل من بلد الجوع وإعادة البناء ، بل المعجزة الاقتصادية وإعادة التسلح ، وأخيرًا بلد قاعدة « البرشنغ ـ التى تظاهر ضدها فى مونتلاغن هذا الحامل لجائزة نوبل . . لقد كان «هاينرش بُل» بلزاك الجمهورية الألمانية الثانية . فكما أن ذاك رسم مجتمع الجشع فى مملكة البرجوازية ، فإن «بُل» أخرج لنا الرقصة الهائلة لعمالقة التكالب على الإثراء بعد الحرب العالمية الثانية ... » .

«هذا هو المفهوم الأصلح لفن « هاينرش بُل » ، إنه مُخْرِجٌ . إنه لا يخترع، بل يجد . إن مادته مركَّبةٌ مما هو موجود أو مُتَذكَّر . رواياته تحيا من حافز معين . وذلك ليس بحثاً عن الزمن الضائع ، بل عن الزمن المخون ، الزمن : إنه مافعَلْنا ... » .

هكذا اتضح المشهد الآن . . الإشارة الواضحة هى الرواية الآن ، أو هى وثيقة الإدانة أو الكشف الحزين لما يجرى . بمحبة موجعة يكتب مثل هذا «بلُ» .

لقد اخترنا من أعماله مثلاً ، اخترنا هذه الرواية لأنها حميمة ، ولأنها مَثَلٌ قريب واضح الخطاب ، ويرسم بشكل جميل ومحدد ما كان يجرى . . ليست استثناء ، فقد تحدث «بُل» فى كل رواياته عن الناس ، تحدث عنهم فى ألمانيا بعد الحرب وتحدث عنهم فى غيرها ، ولم يكن له مكان واحد يُؤثر اختيار نماذجه منه ، لأنه أصلاً لم يختر نماذجَ ، وإنما وجد ناساً وتحدث عنهم وهم يواجهون النتائج الصعبة مثلما يجهدون للخلاص من أسباب نتائج أخرى تستجد . لقد كانوا يعانون من « السباحة فى ماء رمادى » . . كل هذا وإنسانيتهم معهم : يحبون ويشتاقون ويتمنون ، وإذ يضحكون فنادرًا ،

وبخفوت ، وابتساماتهم لا تكاد تظهر حتى تختفى . الهمُّ فى أرواحهم وعلى الوجوه .

ولا نعلم إن كانت روايات «بُل» ستُقَرأ فى القرن القادم ، ولكن مادام هنالك أدب ألمانى فسَيُذْكَرُ « هاينرش بُل » بالاحترام والتقدير .

ياسين طه حافظ



عربية للطباعة والنشر

٧ ، ١٠ شارع السلام . أرض اللواء المهندسين

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ـ٣٠٣٦٠٩٨

تصميم ورسوم : محمد حجى

صدر من هذه السلسلة

اللا أخلاقى .. أندريه جيد

العجوز والبحر .. أرنست هيمنجواى

الأم الكبيرة ..جابريل جارسيا ماركيز

صحراء الحب .. فرانسوا مورياك

شعب يوليو .. نادين جورديمر

أمير الذباب .. وليام جولدينج

أنطوانيت .. رومان رولان

الغريب ..ألبيركامى

أحلام الناى ..هيرمان هسّه

الأم .. جراتسيا ديليدا

ولم يقل كلمة .. هاينرش بل

مراعى الفردوس .. جون شتاينبك

مغامرات نلز العجيب .. سلمى لاجرلوف

رياح الشرق ورياح الغرب .. بيرل باك

الآلهة عطشى .. أناتول فرانس

الدار المصرية اللبنانية

